

حبيب جاماني



أبراهيم
في الميدان

عنيت بنشره
ادارة الميثاق
١٩٣٤





محمد علی باشا - للرسام هوارس فرنیہ

الامير بشير الشهابي
أمير لبنان

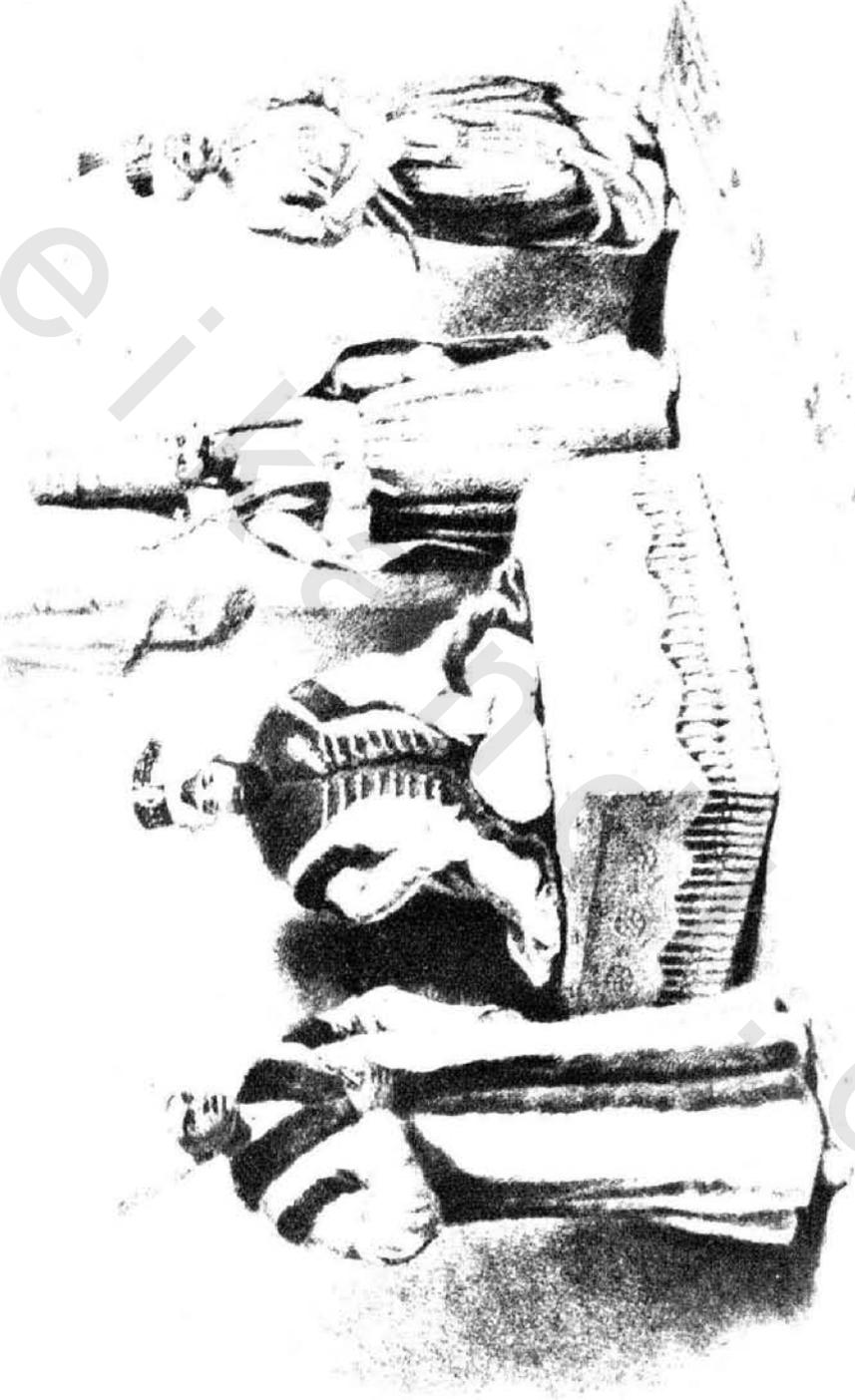


قصر « بيت الدين »
مقر الأمير بشير بلبنان





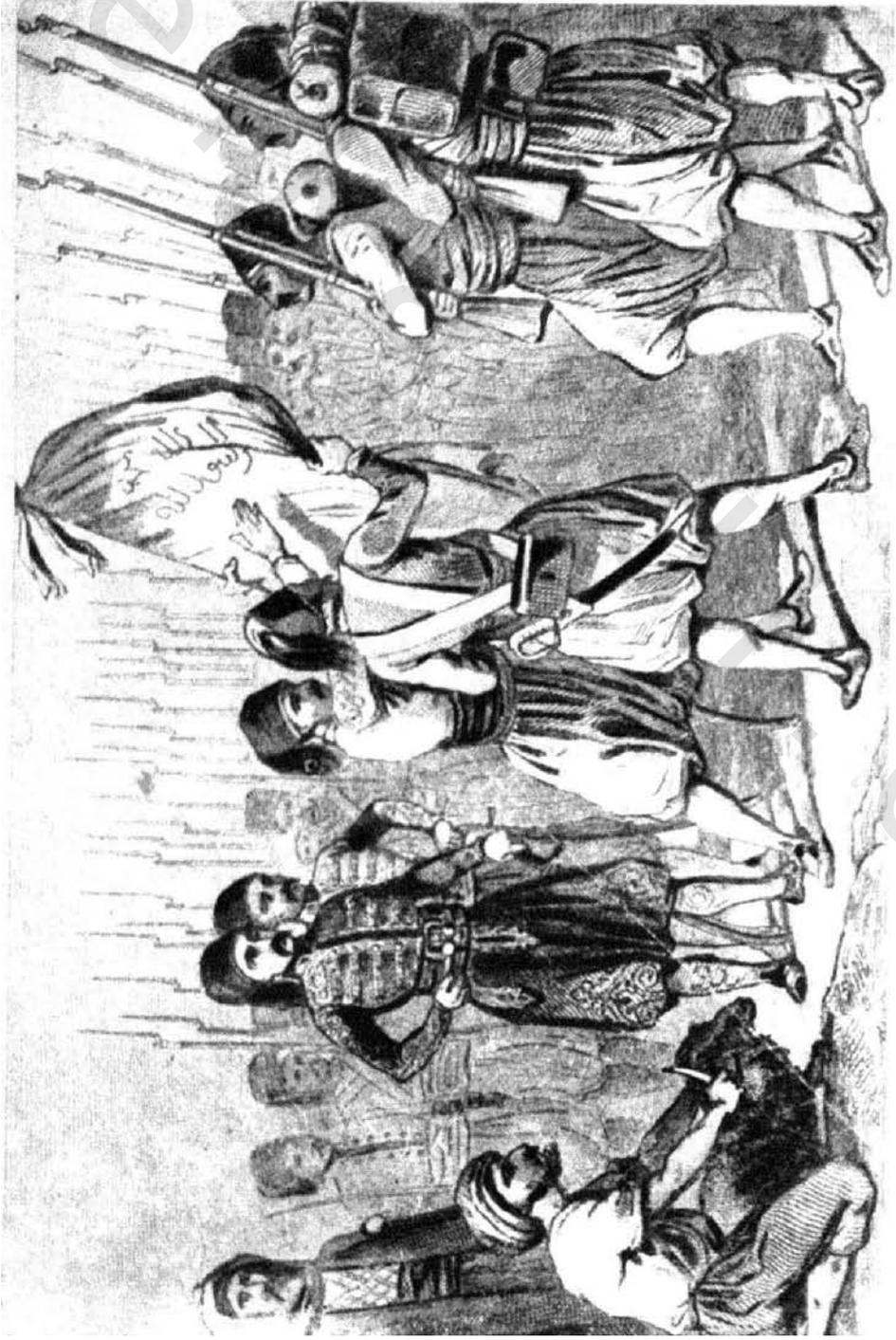
سليمان باشا الفرنساوي (الكولونيل سيف)



السلطان محمود الثاني على عرشه

محمد علي في قصر شبرا الذي نزل فيه الامير بشير ضيفا عليه





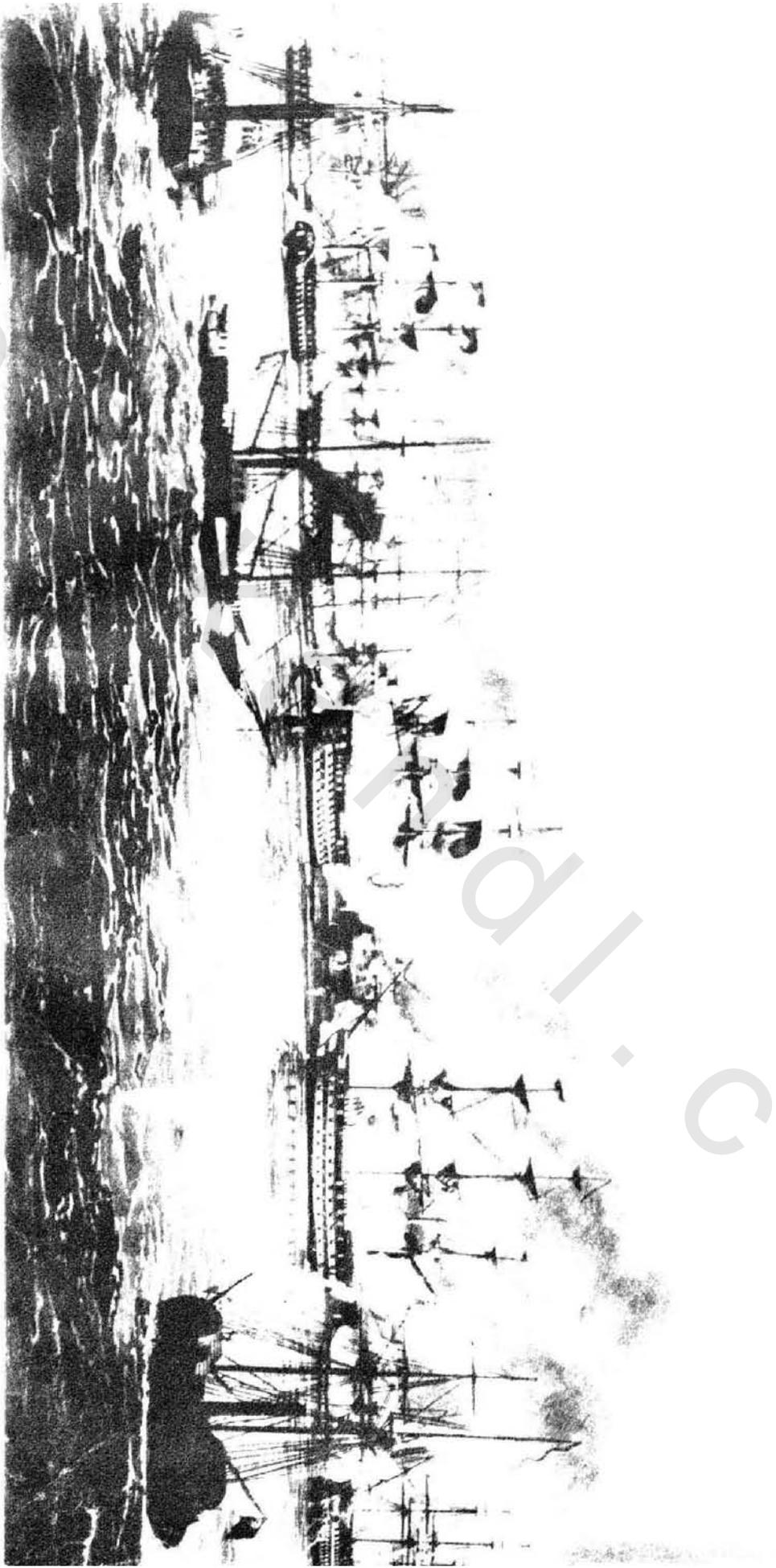
الجنود المصريون يقسمون بين الاخلاص للعلم في عهد ابراهيم باشا



جنود المشاة في جيش ابراهيم باشا



ابراهيم باشا في معركة نرب





سمراغانم أحد زعماء الثورة اللبنانية على ابراهيم باشا



ابراهيم باشا في آخر أيام حياته

أبراهيم

عظيم

في الميدان

تأليف

مبيب جاماني

عنيت بنشره

ادارة الهيئ لال بنصر

١٩٣٤

اهداء الكتاب

الى الابطال الذين يشهرون السيوف في وجوه
الغاصبين، ويمحون الطغيان والعدوان ، وينتقمون للمظلومين
من الظالمين ، في حومة الوغى وغمرة الميادين

الى الابطال الذين يعيدون الى الشرق مجده الضائع ،
وحقوقه المغتصبة ، واستقلاله المسلوب

الى أبطال الحروب ، هذه الاحاديث عن أبطال

الحروب

وعلى أبطال الامس السلام

والى أبطال الغد التحية !

تصدير لفقيه الصحافة العربية

المرحوم داود بركات

كان المؤلف قد طلب من المرحوم داود بركات تصديراً لسكنابه « ابراهيم في الميدان » ومضت شهور ولم يكتب التصدير . ثم فجئت الصحافة العربية بوفاة شيخها . وبينما كان اخوه الاستاذ مركات بركات يجمع الاوراق المتناثرة التي تركها الفقيه في خزائنه بجانب الفراش الذي قضى فيه نحيبه ، عثر على التصدير الذي كان رحمه الله قد بدأ بكتابته وهو على فراش الموت ، وقد فاضت روحه وحطم قلمه قبل أن يأتي على نهايته . والمؤلف ينشر هذا التصدير كما تركه كاتبه رحمه الله عليه ، ناقصاً غير كامل ، فهو آخر أثر كتابي للراحل الكريم :

الى منشىء

العلم المصري في سورية ولبنان

طلعت رسالتك عن « ابراهيم في الميدان » او « العلم المصري في سورية ولبنان » ثم أعدت هذه المطالعة العذبة التي ينتقل فيها الفكر من القصة الى الاسطورة والحكاية والى الوصف والاعادات والتقاليد والاخلاق . ثم الى ما فوق ذلك كثيراً جداً وأسمى غرضاً وأنبئ قصداً . الى ترابط نفوس هذه الطوائف والامم الشرقية ترابطاً روحياً ينتهي

مع تراخي الزمن الي ترابطها القومي الوثيق ، الذي كانت عليه يوم كانت مدنها عامرة وحضارتها زاهرة وعلومها باهرة، فكانت تعرف أن منافعها متحدة وانها واحدة كآدابها وفنونها وعاداتها واخلاقها . فلم يفرقها سوى الضعف ولم يمزقها سوى الجهل ولم يقم الفواصل بينها سوى هذين العاملين اللذين جملاها اقساماً واشطراً ، وجعلا كل قسم وشطر عبدا ذليلاً . الى أن نهض محمد علي بمصر ، فنهضت مصر الفتاة بقيادته وهدية الى لم ذلك الشمل الممزق ، واطاعة ذلك الظلام الخيم ، وتوحيد تلك القوى المفرقة ، حتى تصير قوة واحدة تستعيد مجدها وتحبى ذكرى تاريخ تل العمارنة ، وقد سطر على جدرانها تاريخ سورية ومصر في وادي النيل ، وتاريخ بيلوس (جبيل) وقد سطر على صخورها تاريخ مصر والفرعنة ملوكها ووزرائهم وكهانهم . وقد ضمت مصر بين ذراعها الاختين الشقيقتين واشترك الجميع في جهاد واحد وسلم واحد تحت علم واحد انخلم له قلب أوروبا فتألمت جميعاً على تلك الامبراطورية الحديثة النابتة وقطعت أوصالها . فكان عمل محمد علي والامير بشير بروح قومية طبيعية . وكان عمل أوروبا المتألمة عليها بروح القوة الغشوم . والقوة تنتقل من جانب الى جانب . واما فعل الطبيعة فدائم خالد . فهل أنت في أقاصيصك التاريخية تسير اليوم فعل القومية وفعل الطبيعة الخالد الدائم لتوقظ الهاجع وتدعو الى وصل ما انقطع ؟

انك اذن لموفق في عمالك . وانك اذن لرافع بعلم مصر في سورية ولبنان علم القومية في البلدين الشقيقين . وهو أعز الاعلام يغالب الدهر وأحكامه الى أن يغلبه ويمحوها اذا ظل خافقاً بايدي الهداة المرشدين

لقد عرفوا الرواية ولا أدري من اخترع هذا الاسم لأنه لا ينطبق

من جهة اللغة على الحقيقة . والحقيقة انها القصة أو الحكاية . وتعريفها انها
مظهر تاريخي يثير الطریق بايرادها مع الاهتمام ، سواء كان بتحکیم الميول
والعواطف والاهواء أو بتصوير الاخلاق والعادات أو بغرابة الحوادث
لذلك كانت هذه القصص والحكايات على ضروب شتى كالرواية
الادبية والرواية المهجائية والرواية الفلسفية والرواية التاريخية . . .

حتى انهم أطلقوا هذا الاسم على ما لا يسلم العقل به . . .
ولقد عرفت أن الشرقيين هم الذين ابتدعوا هذه القصص وكانوا
ينظمونها شعراً كالزجل عند العرب والقصيد . وتنشأ كل قصة عن
شجاعة وفخر وتصوير عواطف الانسان فيما هو سام عال . وهي تورث
العواطف في اعماق نفس الانسان . والمراد منها أن ننشئ لانفسنا نظاما
للحوادث أكثر بهاء من نظامها الذي نلمسه ونعرفه

والغرض الذي كان يرمي اليه السلف هو مغزى الحكاية الادبي
أما التاريخ فهو رواية الوقائع أو هو درس الماضي والبحث عما
فعل الذين تقدمونا في الحياة . ومثل كل جيل مع من تقدمه في الحياة
كمثل الطفل بحاجة الى ما وصلت اليه خبرة والديه . والتلميذ الى خبرة
معلمه . حتى قالوا انه لا يشاد بحرفة أو عمل أو شأن في الاجتماع اذا لم
يراجع في كل أمر ما تقدم منه وما سبق . فالتاريخ اذن هو قرارة اختبار
الانسانية . . .

وما هي الحكمة في أعمالنا اذا لم تكن مكونة من خبرة آباؤنا

داود برطانت

مقدمة

آليت على نفسي منذ سنوات أن ابحث في بطون التاريخ، ومخطوطات المكاتب الخاصة والعامة، والمخطوطات القديمة، وصحائف الذاكرات ومكثون الذكريات، عن الحوادث التاريخية المجهولة أو المهملة. وقد عثرت على الكثير منها ووضعتها في قالب قصصي. ونشرت بعضها فوجدت من اقبال القراء عليها ما شجعتني على المضي في عملي وكان لعهد محمد علي باشا نصيب كبير من تلك المباحث والجهود. وعلى الخصوص تلك الصفحة المجيدة التي سطرها ابراهيم باشا في سجل التاريخ. واعني بها حملته على سورية والاناضول ووقوفه منتصراً على مقربة من البواغيز التركية متحفزاً للوثوب على الاستانه وهذه مجموعة من الاقاصيص التاريخية التي وقعت حوادثها في ذلك العهد الزاهر، وكانت ربوع الشام وهضاب لبنان ميداناً لها. وما هذه الاقاصيص في الواقع غير تاريخ تلك الحملة العسكرية التي جعلت العلم المصري المظفر ينفق عالياً بين الاعلام الحفاقة المظفرة وتتناول هذه الاقاصيص أعمال الفروسية والشجاعة التي قام بها جنود ابراهيم باشا وأنصارهم في سورية ولبنان، والمعارك التي اشتركت فيها النساء مع الرجال جنباً الى جنب، واللدائس التي حاكت السياسة خيوطها في ذلك العهد على دولة مصر الفتية، والادوار التي لعبها الجواسيس، وغير ذلك من الحوادث المجهولة أو المبهمة

في سنة ١٨٣٢ ، دخل ابراهيم بن محمد علي باشا والى مصر ،
سورية ولبنان فاتحاً ، وسار بجيشه المظفر وألوية النصر خفاقة
أمامه ، الى الاناضول والبواغيز ، فراجعت جحافل الاتراك مرتبة
مدعورة أمام الغزاة الفاتحين . وحاولت أن توقف ذلك التيار المتدفق
الجارف في مواقع تاريخية دموية ، فكان الفشل نصيبها ، وهزمها ابراهيم
شر هزيمة ، من غزة إلى عكا إلى دمشق إلى الزراعة إلى حمص فحماه
فانطاكية فحلب فيلان فقونية وغيرها وغيرها من المعارك ، التي بطش
فيها المصريون بنحومهم بطشاً ذريعاً ، وأظهر فيها ابراهيم نبوغاً جعله
منذ ذلك الوقت رجل عصره وفريد دهره

كانت سنة ١٨٣٢ سنة حرب وكفاح وكر وفر ، فقد بدأها
ابراهيم بنصر مبين وختمها بنصر مبين . ولم يمض شهر من شهرها ،
بل أسبوع من أسابيعها ، دون أن يطبعه ابراهيم بطابعه ، ويدون
ذكره في التاريخ مقروناً بفوز جديد

ووقفت أوروبا مذهولة لاهثة ، تنظر الى ذلك الاسد المائج في
وشاته ، والى أشباله اللاحقين به ، وقد ملأوا الشرق الأدنى زخيراً ،
ورفعوا اعلامهم على الاقطار العربية ، وتطلعوا إلى الاستانة الجائمة على
ضفاف البوسفور ، وتحفزوا للاقتضاض عليها ورفع أعلام محمد علي
على أسوارها

عقد محمد علي باشا النية ووطد العزم على غزو سورية في سنة ١٨٣١
وجعل يعد المدة لتسيير الحملة في صيف تلك السنة . لكن تفشى
الامراض في مصر حال دون تنفيذ رغبته فاضطر الى تأجيل الزحف
الى الحريف

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣١ ، تحرك الجيش والاسطول

كانت الحملة مؤلفة من ثلاثين ألف جندي ، معهم أربعون من مدافع الميدان وعدد كبير من مدافع الحصار ، ومن ثلاث وعشرين سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل . فسار الجيش برأ بقيادة ابراهيم باشا الصغير . وسار الاسطول بحراً بقيادة عثمان نورالدين بك . وعين ابراهيم باشا الكبير ابن محمد علي باشا قائداً عاماً للحملة . وسافر بحراً من الاسكندرية الى يافا ، ونزل هناك الى البر وقصد الى حيفا ومعه أركان حربه ومدافع الحصار الضخمة

وجعل ابراهيم باشا مدينة حيفا قاعدة لاعماله الحربية ومركزاً للقيادة العامة . وما ان وطئت قدماه أرض المدينة حتى توافد عليه الزعماء ورجال الدين وقدموا له خضوعهم وعرضوا عليه مساعدتهم وقبل أن يبدأ ابراهيم باشا بمحاصرة عكا الحصينة ، التي كانت عبد الله باشا قد جمع فيها جيشاً قوياً استعداداً للمقاومة ، أراد القائد المصري أن يثق من ولاء الامير بشير الشهابي الكبير ، أمير لبنان وسيد المطاع . فدارت بين الاثنين مفاوضات ودية ، ذكر في خلالها ابراهيم لأمير لبنان ما قطعه من عهود لأبيه محمد علي باشا ، والخطة المشتركة التي وضعها الخليفان في مصر لطرد الاتراك من سورية والاستيلاء على الاناضول

وأكد الامير للقائد المصري ولاءه وولاء قومه . وجاء الى حيفا حيث أكرم ابراهيم باشا وفادته ورسم بالاتفاق معه خطة السير في مستقبل الايام

وكان الجيش المصري قد احتل غزة هاشم ويافا وحيفا دون أن يلقى مقاومة ما . وفي اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٣١ شرع ابراهيم باشا في محاصرة عكا ، وجعل يهاجمها برأ وبحراً لكنه لم يحصر جهوده في ذلك ، بل سير جيوشه الى الشرق

والشمال لاحتلال المدن واخضاع الحاميات التركية في السهول والجبال .
وتمكن في بضعة اسابيع من عزل عكاه عن سواها من قواعد الدفاع
في سورية عزلاً تاماً

ففي ١٤ ديسمبر (كانون الاول) سار أربعة آلاف فارس ورجال
من حيفا واحتلوا صور وصيدا والقدس وطرابلس . وكان مع المصريين
عندما دخلوا طرابلس ورفعوا عليها اعلامهم الف مقاتل من أبناء
لبنان بقيادة الامير خليل ابن الامير بشير الشهابي الكبير . وذلك في
اليوم العشرين من يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٣٢
أما بيروت فقد استقبلت المصريين بالترحاب وسار متطوعوها معهم
الى طرابلس مهللين مكبرين

وبعد أن وزع ابراهيم جنوده على المدن والقرى والقلاع ، ضيق
الخناق على عكاه برآ وبحراً . وفي اليوم السابع والعشرين من شهر مايو
(ايار) سنة ١٨٣٢ دخلها بجيشه ظافراً منصوراً ، وأرسل حاكمها عبد الله
باشا اسيراً الى مصر حيث أكرمه محمد علي باشا وعامله معاملة العدو
الباسل الذي عبس القدر في وجهه وخانه الحظ في الميادين

ولا انبسط هنا في ذكر الحوادث السياسية التي وقعت في اثناء تلك
الحرب الشعواء والفسائس التي حيكت في الجهر والخفاء في الاستانة
ولندن وبطرسبرج وغيرها من عواصم الغرب ، لمنع الجيوش المصرية
من التقدم الى الامام ، والقضاء على الخطة التي رسمها محمد علي باشا للاستيلاء
على السلطنة العثمانية وتأسيس الامبراطورية المصرية على انقاضها
ففي شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٢ زحف القائد التركي عثمان باشا
الليبي ببضعة آلاف مقاتل على طرابلس لانتزاعها من حاميتها المصرية

واللبنانية ، بعد أن عينته الدولة العلية حاكماً عليها . فهاجم المدينة لكن الحامية الباسلة ردتة عنها خائباً خاسراً

وبلغ الخبر ابراهيم وهو امام عكاه ففادرها الي طرابلس للقاء عثمان باشا اللبيب . لكن « اللبيب » أدرك انه يسعى الى حتفه بظلفه ففر هاربا قبل أن يدركه ابراهيم بجيشه

غير ان المصريين تعقبوه . واذا كان القائد العثماني قد تمكن من الوصول الى حماه فان جيشه قد وقع في قبضة الفاتحين

« ومنذ ذلك الوقت تتابعت المعارك بسرعة وخفقت الوية النصر على

الجيوش المصرية بلا انقطاع

دخل ابراهيم حمص فاتحاً

ثم عاد إلى بعلبك حيث أخذ لجيشه ما يحتاج اليه من مؤونة و ذخيرة

وتبعه الجيش التركي إلى هناك فلاقاه ابراهيم في سهل الزراعة ، في ١٤ ابريل (نيسان) ١٨٣٢ - ١٤ ذي القعدة ١٢٤٧ ، وعهد إلى سليمان باشا الفرنساوى في ادارة المعركة، وكان عدد الأتراك أضعاف عدد المصريين . لكن سليمان باشا أحرز في ذلك اليوم انتصاراً عظيماً فانهمزم الجيش التركي تاركا مدافعه وخبوله

والتقى ابراهيم باشا في بعلبك بعباس باشا ابن طوسون باشا ، واستراح قليلا

ثم عاد إلى عكاه ، فاقنحم أسوارها وحصونها في مايو (ايار) سنة ١٨٣٢

وفي ١٦ يونيه (حزيران) دخل المصريون دمشق وعرض ابراهيم في السهول الواقعة حول المدينة فرق المتطوعين الذين التحقوا بجيشه من لبنان والبادية

ومكث ابراهيم في دمشق ثمانية عشر يوماً ، ثم سار شمالاً إلى حمص حيث هزم الأتراك في معركة دموية في اليوم الثامن من يولييه (تموز) ١٨٣٢

وبعد أن نظم شؤون الادارة في حمص ، واصل الزحف الى حلب فاحتلها في ١٥ يولييه ١٨٣٢ بلا مقاومة . وأخذ الجيش نصيبه من الراحة استعداداً للقاء الاتراك في بيلان

وفي ٢ ربيع الأول سنة ١٢٤٨ هجرية ، أي في ٢٩ يولييه سنة ١٨٣٢ مسيحية ، اشتبك الجيشان في معركة بيلان الشهيرة

وفي ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ - الموافق ٢٩ رجب سنة ١٢٤٨ سحق ابراهيم البقية الباقية من جيوش الاتراك في قونية . وكان انتصاره في هذه المعركة أعظم انتصار أحرزه منذ اليوم الذي بدأ فيه حملته على سورية والاناضول

أقف بك الآن عند هذا الحد لأنني ما أردت الا أن أتحدث عن سنة ١٨٣٢ دون أن أتجاوزها الى السنوات التي تلتها والتي بدأ فيها عهد الحكم المصري في سورية ولبنان ، ذلك العهد الذي دام عشر سنوات لا يزال أبناء البلاد يذكرونها بالخير

مرت السنوات على تلك الحوادث الجسام والمواقع التاريخية والعهد السعيد المجيد ، ومصر الآن تجول في ميدان الجهاد وتتحفز للوثوب من جديد نحو تلك القمة التي بلغت في وقت من الاوقات ، وهي اليوم كما كانت بالامس جديرة بان تتولى زعامة هذا الشرق الناهض ، كما تولتها في عهد محمد علي و ابراهيم

فان سنة ١٨٣٢ من السنوات التي يحق للمصريين أن يفاخروا ويخطوا أرقامها في توارخهم باحرف من ذهب ، فهي سنة قلما تجود

الاقدار والظروف يمثلها على الامم . واذا كان الاورييون لا يزالون الى اليوم يحتفلون بايام معلومة من سنين معينة ، لان جيوشهم في تلك الايام قد احرزت نصراً أوردت عن الوطن عدواً، فان المصريين في استطاعتهم أن يحتفلوا على الدوام بذكرى سنة كاملة كانت من أولها الى آخرها سلسلة انتصارات باهرة وأعمال مجيدة زاهرة

لو راجعنا حوادث سنة ١٨٣٢ ، الكبيرة والصغيرة ، من شهر يناير إلى شهر ديسمبر ، واحصينا المواقع والمعارك والمناوشات التي خاض الجيش المصري غمارها في الاثني عشر شهراً التي تتألف منها السنة ، لوجدنا ان ابراهيم باشا وقواد جيشه وحلفاءه قد انتصروا في أكثر من مائة موقعة ومعركة ومناوشة ، أي بمعدل انتصار واحد لكل ثلاثة أو أربعة أيام . وهذا ما لم يذكر له التاريخ مثيلاً ، حتى في أعظم الحروب شأنًا وأبعدها مدى

فاذا حق للفرنسيين أن يحتفلوا بذكرى انتصار نابوليون في وجرام . وللانجليز أن يحتفلوا بذكرى واقعة واترلو أو الطرف الاغر أو غيرها . وللأمم الاوربية الاخرى أن تحتفل باى يوم من أيام تاريخها الذي طبع بطابع النصر . فان الامة المصرية يحق لها أن تفاخر أمام تلك الامم جميعاً بمعركة عظيمة دامت سنة كاملة ، وانتصار باهر خفقت اعلامه مدة اثني عشر شهراً بلا انقطاع ، ثم استقبلت السنة التالية ، سنة ١٨٣٣ ، وظلت فيها اعلامها خافقة على رموس الجنود البواسل الذين قادم ابراهيم من ضفاف النيل الى شاطئ البوسفور

كان لبنان يعد ولاية عثمانية وان كان يتمتع باستقلال ذاتى واسع . وقد بذل الاتراك جهدهم للتأثير على الحياة اللبنانية من وجهتها السياسية والاجتماعية لكنهم فشلوا . وعهد الاتراك الذي ظل مئات السنين لم

يترك في لبنان من هاتين الوجهتين أثراً يذكر ، بعكس عهد المصريين الذي لم يدم غير عشر سنوات

كان اللبنانيون في القرن الثامن عشر يتخذون عهد أميرم فخر الدين المعني قاعدة لتواريخهم . لكنهم بعد اقامة المصريين بين ظهرانيهم أبدلوا القاعدة القديمة بأخرى جديدة . فصاروا يقولون : « الحادث الفلاني وقع بعد وصول المصريين بكذا أو بعد رحيلهم بكذا . . . »

بل انهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فاتخذوا في أواخر القرن الماضي حوادث الاسكندرية وحركة عرابي باشا قاعدة لتواريخهم أيضاً . فصاروا يقولون - ولا يزالون كذلك : « فلان ولد سنة عرابي أو قبلها أو بعدها بكذا . . . »

وم يضربون الامثال بعدل المصريين . فاذا أرادوا الثناء على احد القضاة قالوا عنه : « انه كإبراهيم في عدله وانصافه ! »

ولا يزالون إلى اليوم يقولون عن الفني : « عنده مصاري كثير أو مصريات كثير . . . » وذلك اشارة إلى النقود التي كانوا يتداولونها في عهد ابراهيم والتي كانت القطعة منها - أي البارة - تسمى « مصرية » والبنادق الطويلة لا تزال تعرف في بعض أنحاء لبنان بالبنادق أو « البواريد الابراهيمية » وذلك لان البنادق التي كانت يحملها جنود ابراهيم كانت من البنادق الطويلة . ويوجد كثير منها إلى الآن في البيوت اللبنانية مع انها قد انقرضت في مصر .

هذا قليل من كثير مما تركه من أثر في الحياة اللبنانية مرور المصريين في تلك البلاد واقامتهم فيها عشر سنوات فقط

عبيد جامالي

مصر - يوليه (تموز) سنة ١٩٣٤

ربيع الاول سنة ١٣٥٣

نحية ورجاء

عندما دخل ابراهيم باشا مدينة بيروت في سنة ١٨٣٢ ، وقف في غابة الصنوبر على ابواب المدينة ، وخاطب بشيراً الشهابي امير لبنان قائلاً :
— ها نحن يا بشير ! لقد جئنا نبرم بالدم ميثاق المودة والاخاء الذي قطعناه على انفسنا ، عندما نزلت علينا في « شبرا » ضيفاً مكرماً !
فأشار بشير الى من كان يحف به من زعماء الجبل وكنانه ، وأجاب :
— احبي ابطالك باسم هؤلاء الابطال يا ابراهيم . واذا كانت الظروف والاحوال قد أقامت بين بلدينا الحدود ، فثق أن ليس هناك من حدود تفصل بين القلوب !

ثم صاح أحد الزعماء قائلاً :
« إذا ما ابرقت السماء في مصر ، سمعنا هزيم الرعود في لبنان ! »
هكذا كان القوم يتخاطبون في ذلك العهد . ولم يذكر التاريخ في صفحاته حماسة كالتى استولت على اللبنانيين يوم وافام ابراهيم بكتائبه المظفرة . فقد انحدر المتطوعون الاشداء من أعالي جبالهم انحدار السيل الجارف ، للانضمام الى الغزاة الفاتحين ، يشاركونهم في غزواتهم وفتوحاتهم . فامتزجت دماء أولئك الحلفاء من مصريين وسوريين ولبنانيين ، في وهاد الاناضول ونجاده ، وكانت أساساً لمهد الاخاء والمودة والاخلاص

وقد لعبت الاقطار الثلاثة - مصر وسورية ولبنان - في القرن الماضي دوراً سياسياً وحربياً التي الرعب في اوربا، وبعث اللدعر في قلوب ساستها.

وطالما شهدت العصور الخوالي من قبل، ادواراً عديدة مثل ذلك الدور،
ميتها أيضاً الامم الشقيقة الثلاث :

مصر أم المدينة منذ عهد الفراعنة الجبابرة . وسورية مهذبة الصحراء
ومشيدة المدن وسط الرمال . ولبنان ناقل الحضارة إلى ما وراء البحار
في عهد الفينيقيين ذوي الهمم القعساء

مصر التي تحفظ معابدها إلى ايامنا هذه بقايا الارز القديم - ذلك
الارز الحالد الذي استوردته من غابات لبنان . وسورية التي تضم في ثنايا
سهولها آثار الفراعنة الغزاة . ولبنان الذي يحمل رسومهم منقوشة
على صخوره الصماء

مصر درة الفاطميين . وسورية جنة الامويين . ولبنان معقل
«المردة» وحصنهم الحصين

مصر وسورية الغازيتان بقيادة الاسد صلاح الدين . ولبنان وكر
الصقر نجر الدين المعنى الكبير

فسلام على الاقطار الثلاثة ، وحقق الله آمال مصر وسورية ولبنان،
في الحرية التامة والاستقلال الكامل !

درة بنت النصيرى

عصى عبد الله باشا والى عكاه أوامر الدولة العلية ، وانضم اليه الأمير
بشير الشهابى أمير لبنان . فصدر السلطان إرادته السنية بعزل الاثنين .
ولجأ الأمير اللبناني إلى عزيز مصر محمد علي باشا ، وسافر إلى القاهرة
في سنة ١٨٢٢

نزل في ضيافة صديقه وحليفه ، في قصر شاهق فاخر الرياش ، على
ضفاف النيل ، حيث توافرت له أسباب الراحة . وأقام في ذلك القصر
ضيافاً كريماً مكرماً

كان محمد علي باشا في ذلك الوقت قد وطد دعائم حكمه في مصر ،
حيث استتب له الأمر ، وبدأ يفكر في توسيع دائرة سلطته ، وإبعاد
القاهرة عن تخوم السلطنة العثمانية ، بإقامة حاجز حصين بينه وبين
الاستانة ، وإنشاء دولة مستقلة في وادى النيل

لم تكن مصر في مأمن من الغزوات . فقد غمرتها جيوش الفاتحين
مقبلة عليها من طريق واحد لم يتغير : سورية وصحراء سيناء
ذلك هو الطريق الذى سلكه قمييز والاسكندر

ومن هذا الباب دخل الفاتحون المسلمون ، وتبعتهم الجحافل التركية
لكن سورية كانت أيضاً طريق الغزاة المصريين من وادى النيل
إلى ممالك الشرق في عهد الفراعنة . وهى كثيرة الجبال والوديان . وكان

القدرة الالهية قد أوجدتها هناك سداً منيعاً في وجوه الطامعين
وضع محمد علي باشا بثاقب رأيه جميع تلك الاعتبارات في كفتي
الميزان . وانضح له أن لا سبيل إلى الاطمئنان على حدود ولايته ، إلا
بنقل تلك الحدود إلى ما وراء قعم لبنان . وبدل أن يكون خط الدفاع
عن مصر في السويس ، لا بد أن ينتقل إلى جبال طوروس
سيغزو إذن محمد علي ذلك القطر كما غزاه الفراعنة من قبل .
وسيتخذ من أهله الأقوياء الأشداء ، حلفاء يزداد بهم جيشه عدداً وقوة ،
فنخف بذلك وطأة التجنيد عن الفلاح المصري . كما أنه سيجد في
غابات لبنان ووهاده ، الحشب والفحم والنحاس وغيرها من منتجات
الطبيعة ، التي تفتقر إليها مصر في نهضتها الحربية والصناعية والتجارية
ثم إن سورية طريق الحجاج إلى بيت الله الحرام . ومحمد علي يرمى
إلى السيطرة على أبواب مكة المكرمة والمدينة المنورة
إن امتلاك سورية ولبنان أمر لازم لا مناص منه
لذلك أقسم منقذ مصر من شر المماليك ، أن يغزوها وينتزعها من
قبضة السلطان

ولكن ، لا بد من حليف يعتمد عليه في تنفيذ هذه الخطة الواسعة
النطاق
وأى حليف أكثر صلاحية لذلك من سيد لبنان ومعبوده : الامير
بشير الشهابي ؟
لقد أرسلته العناية الالهية ، طريداً يوم وشريداً ساعة ، إلى مصر
ملتجئاً . فعلى صاحب الامر والنهي في مصر أن يغتنم الفرصة السانحة ،
ويجمل من عدو السلطان صديقاً له ، ومن القائد المغوار والسياسي
المحنك حليفاً في السراء والضراء

وهذا ما فعله محمد علي باشا
وظال كل من الصديقين مخلصاً لأخيه ، في أيام النصر وأوقات الاحن
على حد سواء

عقد محمد علي باشا وضيغه الامير اللبناني في القنعة انشرفة على القاهرة
مجلساً سرياً ، لم يحضره معهما غير ابراهيم بن محمد علي . ورسم الزعماء
الثلاثة خطة العمل بمخاطيرها
قال محمد علي :

— ان الدولة في انحلال مستمر . ومضى يبست الشجرة أو نخر
فيها السوس ، وجب أن تقطع منها الاغصان وتغرس في الارض ، فتنمو
وتزدهر وتصبح أشجاراً فتية تحمل عمل الشجرة البالية النخرة . سوف
نقتطع من ذلك الجسم المريض عضوين لم يدب اليهما الفساد بعد . وعلى
انقراض الدولة المتداعية ، نقيم دولتين قويتين . سأستقل في مصر كما
تستقل أنت يا بشير في لبنان . واطلب منك عهداً على أن تكون في
الحرب إحدى ذراعي . فعليك بعد ولدي ابراهيم أعتمد ، وأضع فيك
ثقي التامة الخالصة
فأجابه بشير :

— اقسم ان اسير معك الى النهاية يا اخي . ومرحى للحرب
ما دامت في سبيل الجهد يضرم سعيها . إن الحرب نار والامم وقودها .
لكن تلك الامم تخرج من اتونها كما يخرج الذهب من المواقد ، وقد
صهرته النيران . قل : ماذا تطلب مني ؟
فأجابه محمد علي :

— سأسعى للحصول من السلطان على العفو عنك . فتهود الى
لبنان ، وتعد للحرب المقبلة عدتها ، وتعد للحادث المنتظر سبيل النجاح .

إنني اعتمد على رجالك الأشداء . ولن أخشى عدواً ما دمت لي مخلصاً
وتم الاتفاق بين الرجلين - وهما من اتباع الدولة - على مهاجمة
الدولة . واقتطاع جزء من أملاكها وولاياتها

كان الأمير ذات ليلة جالساً في حفلة سمر وطرب ، أحيائها القائد
إبراهيم بن محمد علي لضيفه الكريم ، فدخل حاجب وقال له : إن فارساً
من رجال حاشيته يطلب المشول بين يديه

أذن له الأمير بالدخول . فدخل الشاب وقال :

— مولاي . وصل رسول من الجبل يحمل اليك أخباراً

فقاطعه بشير قائلاً :

— كنت في انتظار ذلك الرسول يا فريد . فدعه حتى يستعيد قواه

ويأخذ لنفسه بعض الراحة . سأجتمع به الليلة في دار الضيافة

فالتفت محمد علي إلى ضيفه مبتسماً وقال مستفهما :

— أرجل هذا أم امرأة ؟ والله لو لم تناده « يا فريد » لظننته فتاة !

فقال بشير :

— ولكنك على صواب في ظنك أيها الأمير ! فريد فتاة كما

تقول !

— كيف ذلك ؟ وما جاء بها إلى هنا ؟

— أنها لا تفارقني خطوة واحدة منذ سنتين . وستظل في معيتي إلى

أن يفرق الموت بيننا . ألسنت صادقاً في قولي يا فريد ؟

فنظر الشاب إلى الأمير نظرة حب وحنان وقال :

— أنت صادق يا أبي : لن يفرق بيننا غير الموت !

فأمر محمد علي في أمر الفتى - أو الفتاة - وطلب إلى ضيفه أن يقص على

المجلس قصة فريد . لكن الأمير التفت إلى الفارس وأمره بلطف قائلاً :

— قص عليهم قصتك بنفسك يا بني . فليس فيها ما يدعو الى التسكّم

قالت الفتاة :

— ان اسم « فريد » الذي اطلقه علي مولاي الامير ، اسم مستعار .
انتي ادعى « درة » . وكان ابي « ابو ضرغام النصيري » من تجار
الخيّل في بادية الشام . ربيت في كنفه ، بعد أن ماتت أمي وأنا في الثالثة
من العمر . وترعرعت في البراري والقفار ، تارة أرافق أبي في روحاته
وغدواته ، وتارة أقيم عند الأهل والأصدقاء في سهول « حوران »
أو في وعر « اللجاء »

« وحدث يوماً أن سافرت مع أبي إلى الحجاز ونجد . وعدنا من
هناك ومعنا مائة من جياد الخيل ، ووجهتنا فلسطين وجبال لبنان . فطويتنا
الفيافي والقفار . واجتزنا جبل الدروز وحوران . وأوشكنا أن نصل
إلى نهاية رحلتنا . لكن ركبا من العربان فاجأنا بهجومه . ووقعت
مصادمة شديدة بين رجال القافلة وأبناء البادية

« دافعنا عن أنفسنا دفاعاً مجيداً . وحاول رجالنا أن يتفقدوا جزءاً
من الأموال والخيول . لكن المهاجمين كانوا أكثر منا عدداً ، والمثل
الساثر يقول : « الكثرة تغلب الشجاعة ! »

« غلبنا على أمرنا . فمات منا من مات وتشنت الباقون في البراري .
وعاد البدو من حيث أتوا بعد أن ساقوا معهم الجياد والأموال . أما
أنا ، فقد أصبت بجرح في جني الأيمن ، وبقيت على الأرض مغمسياً علي
ساعات عديدة

« ولما استيقظت من ذلك الحلم المزعج ، وجدت نفسي وحيدة على
قيد الحياة ، بين جثث القتلى البعثرة هنا وهناك
« نهضت . . . وأخذت أعدو في ذلك الجحيم ، باحثة عن أبي ،
منادية مستغيثة والدم يسيل من جرحي

« أبي ! . . . وجدته ! . . . ولكن جثة هامدة بين الجثث الهامدة
الأخرى ! قضى المسكين بطعنة رمح سدتها إلى صدره يد مجرم أثيم
من أولئك الفئلة السفاكين . فصعدت روحه إلى خالقها تشكو إليه
ظلم الانسان لأخيه الانسان

« وكدت أموت غماً وكدرأ ، لو لم يلتقطني الرعاة في ذلك السهل

اللعين

« ثم أخذوني معهم إلى « وادي التيم »

« وهناك ، نظرت في أمرى ، وعولت بعد التفكير الطويل على

الذهاب إلى سيد لبنان وأميره ففعلت

« وحسناً فعلت ! »

فقاطعها بشير قائلاً :

— جاءتنى درة في حالة يرثى لها . فأشفقت عليها ، وأعجبت بجرأتها

وذكائها ، وأمرت بادخالها القصر في « بيت الدين » حيث أقامت مع

أهلى وأبناء أسرتى

« لكنها رغبت الي ، بعد أشهر مضت على ذلك الحادث ، في ان تسير

في معيتي وتدخل في سلك حرسى . فأجبتها إلى رغبتها . لكنني حذرتها

من الاختلاط بالرجال . ولم ابح في بادىء الأمر لأحد بانها فتاة . وهذا

هو الداعي إلى تسميتها باسم رجل . فأننى دعوتها منذ ذلك اليوم باسم

« فريد »

« أما الآن ، فالجميع يعلمون انها فتاة وانها في معيتى ، تقوم بخدمتى

الخاصة وتحرس بابى . »

صدر العفو عن أمير لبنان بفضل المساعى التى بذلها صديقه محمد علي

باشا . فعاد الى وطنه في شتاء سنة ١٨٢٣

ومضت عشر سنوات على ذلك اليوم الذي قصت فيه درة قصتها على
مسمع من عطاء مصر وقوادها ، في تلك الحفلة التي احيها ابراهيم
اكراما لضيفه

وكان الحليفان - محمد علي وبشير - قد نفذوا خطتهما، فمشت جحافل
المصريين على سورية . وانضم اليها هناك عدد عظيم من المتطوعين .
وأصاب محمد علي هدفه ، فتم له ما أراد من سوّدد وسلطان

وكانت درة في اثناء ذلك تقوم بواجبها كحارس وجندى ، تسهر
على راحة سيدها ، ولا تتحجج أمام الاخطار ، فتخوض غمار المعارك عندما
تقتضى الحال

لكنها أحببت فتي لم ينل حظوة في عين ولي نعمتها . فأنها الأمير
على ذلك ، وحاول عبثاً أن ينتزع من قلبها جرثومة ذلك الغرام ، الذي
كان يوجس منه خيفة لاسباب لم يبيح بها لأحد
لكن الحب ، متى تملك قلباً وبسط سلطانه عليه ، كانت له الغلبة
وفشل أمامه كل سلطان !

أحس الأمير بأنه لم يعد وحده مالك قياد الفتاة . وان هناك قوة
اعظم من قوته تسيطر عليها، ونفوذاً أبعد من نفوذه يسير خطاها . وفي
صباح يوم من أيام شهر يونيو (حزيران) سنة ١٨٣٩ ، نادى بشير الشهابي
صديقه الباسلة ، وكانت أمارات القلق والاضطراب بادية على عيانه .
وبعد أن تنهد مراراً وحقق البصر طويلاً في درة ، قال لها :

— درة . اني مرسلك في مهمة خاصة اعلق على نجاحها اهمية كبرى .
ويحملني على اختيارك دون سواك ماوضعتك فيك من ثقة لا احد لها .
خذى هذه الرسالة واسرعى الى دمشق . وهناك ، عند قوس النصر
القديم المهتم ، تجدى رجلا في زي بدوى . اقتربنى منه وقولى : «بشارا»

وعند ما يجيئك الرجل : « بشير ! » ادفعى اليه هذه الرسالة وعودى
إلى بلا ابطاء

— لا حياة فيها

— من تكون هذه الفتاة ؟

— من يدري ؟

— فتاة متنكرة بملابس الفرسان

— أمر غريب !

كلمات تبادلها المارة عندما عثروا على جثة الفتاة المسكينة ، مطعونة
في ظهرها، وملقاة على الخضيب في أسفل « قوس النصر القديم المتهدم »
هكذا ماتت « درة بنت النصيرى »

من هو ذلك النذل الجبان ، الذى بادر فتاة بطعنة خنجر في ظهرها،
بينما كانت تبحث عن الرجل الذى اوفدها اليه الامير ؟ هل يكون الرجل
المنشود هو نفسه الذى فعل تلك الفعل الشنعاء ؟ وما هو مضمون الرسالة
ياترى ؟

هل يكون الامير الشهابي قد أرسل صديقه إلى الموت متعمداً ؟
هل في الأمر خيانة أو مكيدة ؟ ام كتب لتلك الفتاة على صفحات القدر ،
ان تموت بخنجر سفاح زعيم ، بعد أن عجزت عن النيل منها في ساحات
الوغى رماح الفرسان وصوارم الابطال ؟

دموع سليمان

خاف عبد الله باشا على نفسه من اتساع سلطة محمد علي باشا . وداخله الحسد من نجاح عزيز مصر المستمر ، وازدياد قوته ونفوذه . فقرر البقاء في طاعة الدولة العلية ، ومناصرتها عليه . وكان يفخر بأن عكاه ، مدينته الحصينة ومعقله المنيع ، لا تنال أسوارها ولا تدك أبراجها ، ويعمل النفس بأن يرى جيوش المهاجمين ترتد عن تلك المدينة خائبة ، كما ارتدت عنها من قبل جيوش بونابرت ، وخارت أمامها عزيمة ذلك القائد العظيم أما محمد علي باشا ، فكان قد أعد للهجوم عدته ، بعد أن مهد له السبل ، وعقد مع حليفه الأمير بشير اللبناني معاهدة أبرمت بالدم والأقسام المغلظة ، ودرب على القتال ثلاثين ألفاً من جنوده البواسل ، زودهم بأربعين من مدافع الميدان ، وعدد كبير من مدافع الحصار . وجهز للسير بحراً إلى السواحل السورية ، أربعين من مرابك النقل وسفن القتال

لم يبق غير تحين الفرصة للهجوم ، وتنفيذ الخطة المرسومة منذ عشر سنوات

كان محمد علي ينشط زراعة التوت وتربية دود الحرير في مصر . وكان يجلب البذور من لبنان . فحال عبد الله باشا دون ذلك ، واستولى عنوة على المؤن المرسله من بشير إلى صديقه وحليفه

وكان محمد علي باشا قد منع هجرة الفلاحين إلى خارج القطر
فراراً من الجندية . ففتح لهم عبدالله باشا أبواب ولايته، ورحب باقائهم
في كنفه ، نكايه بخصمه وتشفيًا منه

فكان ذلك كافيًا لاشعال نار الحرب

وبدأ الزحف في اليوم الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣١
سارت الحملة، بعضها برا بطريق العريش فيافا فحيفا، بقيادة ابراهيم
باشا « الصغير . » وبعضها بحرا من الاسكندرية الى يافا فحيفا ، بقيادة
ابراهيم باشا « الكبير . »

وكان أمير البحر عثمان نور الدين بك يقود الأسطول ويشرف
على نزول الجنود إلى البر

وهناك - في حيفا - التقت القوتان ، ووحدت الصفوف ، ووضع
قاهر الوهابيين ومدوخ المورة الحطة النهائية للمهجوم

خضع له في بادئ الأمر مشايخ القدس و نابلس وطبريا ، لاستيائهم
من عبدالله باشا . فبسط الفاتح المصري حكمه على المقاطعات المحيطة بعكاه
بلا قتال ، فأصبحت طرق مواصلاته في مأمن من المفاجآت

وشخصت الأنظار إلى عكاه !

عكاه الحصن الحصين ، الذي طالما تحطمت تحت أسواره الضخمة

هجمات المهاجمين ، وتبددت أمام أبراجه الشاهقة أحلام الفاتحين !

عكاه التي تحوم حولها في سكون الليل أرواح الأبطال الصناديد ،

الذين أهرقت دماؤهم في خنادقها، وتكدست اشلائؤم في أزقتها، من عهد

الاسكندر قاهر الفرس والماديين ، الى عهد « غودفروا » قائد

الصليبيين ، الى عهد صلاح الدين فخر المسلمين ، الى عهد بونايرت نابغة

الفرنسيين !

عكاه الشاهجة التي لا بد من اذلالها !

كانت منيعة فزادها و الجزائر ، مناعة بعد ارتداد الفرنسيين عنها ،
وطوقها بسلسلة ثانية من الاسوار والخنادق
وبذل عبد الله باشا جهده في اعدادها لمقاومة الحصار المنتظر .
فوزع فيها جنوده من دالاتية والبنانيين وعرب . وكان لديه من الذخيرة
والثون والمياه ما يكفيه للمقاومة سنوات

شرع المصريون في الحصار برأ وبحراً ، في السابع والعشرين من
نوفمبر سنة ١٨٣١

وفي الثامن من ديسمبر (كانون الاول) ، اطلقت المدافع للمرة الاولى
على المدينة من جميع جهاتها . فقابلها رجال عبد الله بنار حامية
وشدد ابراهيم على عكاه الحصار !

أقبل عليه المتطوعون من كل صوب ، وحمل اليه بشير الشهابي
وأبناؤه - تحف بهم كواكب الفرسان - تحية الجبل الابيض ، ودعاء
البنانيين بفتح قريب وفوز مبین

وزع ابراهيم جنوده على المدن المحتلة ، فبقى معه عشرون الفا من
الرجال ، وستة وثمانون من مدافع الحصار

واستبسل عبد الله باشا في الدفاع عن أسواره . فأرسل اليه ابراهيم
يعرض عليه التسليم ويعدده بعاماته بالحسنى . لكنه أبى وعهد الى مدافعه
في الاجابة عنه

فشدد ابراهيم على عكاه الحصار !

وقلق السلطان . فأوفد الى محمد علي باشا رسولا يفاوضه في الناء
السلاح ، لان الحرب تحول دون وصول الحجاج الى بيت الله الحرام
فأبقى محمد علي رسول السلطان شهراً كاملاً في الحجج الصحى ، بحجة

أن في الاستانة وباء، وأن الرسول قد يكون حامله جراثيم قاتلة من ذلك الداء

وكانت نيران الحرب تشتد في تلك الاثناء سعيماً . ففطن السلطان الى الحيلة . وأصدر أوامره الى حكام البلاد بأن يجردوا جيوشهم لملاقاة ابراهيم وردة على أعقابيه

فاشتد ساعد عبد الله باشا ، وتضاعف عناده في المقاومة

وشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

وفي الثالث والعشرين من ديسمبر ١٨٣١ أحدثت المدفعية المصرية الثغرة الاولى في سور المدينة الشرقي

واحتل المصريون بمساعدة اللبنانيين مدن صور وصيدا وطرابلس

وفي أول شوال ١٢٤٧ هـ - الموافق ٣ مارس ١٨٣٢ م - صدرت

و التعميمات الشاهانية ، خالية من ذكر مصر . ووجه السلطان الى

محمد علي وابنه ابراهيم انذاراً نهائياً بالرجوع الى الطاعة

فضرب محمد علي بالانذار عرض الحائط

وشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

كان يتفقد الجنود بنفسه . ويشرف على الاعمال الحربية في الليل

والنهار . وفي العاشر من شهر مارس (آذار) أحدثت المدفعية المصرية

في الاسوار ثغرة ثانية . فدخل منها الى المدينة قسم من الجيش ، ودارت

معارك دموية هائلة في الشوارع والنازل ، وانفجرت الالغام تحت أقدام

الجنود ، فاضطروا إلى العودة الى ما وراء الاسوار . . .

لكنهم لم يفقدوا قوتهم المعنوية ووثوقهم من النصر، فهتفوا لقائدهم

وجددوا له ايمانهم فيه وثقتهم به

وشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

وفي أواخر مارس ، عين الباب العالي وزيره حسين باشا قائداً عاماً

للجيوش المصرية . وولاه حكومة مصر وكريت والمبشة . وصدر الأمر
بعزل محمد علي باشا من ولايته

فاستصدر محمد علي من الشريف محمد بن عون فتوى بتكفير
السلطان محمود . وطلب من ولده أن يذكي نار الحرب سعيراً
فشدد ابراهيم على عكاه الحصار !

وسار بنفسه الى طرابلس وبعليك وحمص . ونكل بالاعداء في
مواقع عديدة

ثم عاد الى المدينة المحاصرة ، وعقد في السادس والعشرين من شهر
مايو (ايار) ١٨٣٢ مجلساً حربياً ، تقرر فيه القيام بهجوم عام للاستيلاء
على عكاه

وفي اليوم التالي ، تمكن قائد المدفعية ، سليمان بك الفرنسي ،
من إحداث ثغرات جديدة في الاسوار

فجرد ابراهيم باشا سيفه ، وهجم في طليعة الجند كأنه الريح الهبوب
أو البلاء المصوب . فاندفع الجيش في أثره وتدفق الى داخل المدينة
كالأمواج الهائجة المزبدة . ودارت رحى القتال بين الفريقين . فسالت
الدماء غزيرة ، وبيعت الأرواح رخيصة ، وكان ابراهيم يرى في كل
ناحية من ذلك الجحيم ، وقد صدق فيه قول القائل :

كان سيوفه صيفت عقوداً تجول على التراب والنحور !

دافع عبد الله باشا عن معقله دفاع اليائس السميت ، وحاول عبثاً
أن يصد عنه هجوم « أبالسة الميادين » وأن يتقد في آن واحد أسرته
من الموت ، وثروته من السلب ، وولايته من الضياع
كانت الحصون تحمي جيشه أثناء الحصار . أما في مضمار القتال ،
فان ذلك الجيش كان أضعف من أن يقوى على الثبات امام الجنود

المصرية المنظمة. وبعد أن دكت أسوار المدينة ، وانهمزم المدافعون عنها ، سقط ذلك الحصن الحصين في قبضة الغزاة ، وفاز ابراهيم باشا المصري بما عجز دونه القائد العظيم بونابرت الفرنسي !

ظل القتال الى ما بعد منتصف الليل ، وعلى ضوء المشاعل ، تقدم عبد الله باشا طالباً العفو والأمان

فعمفا ابراهيم عنه ، وأمنه على حياته ، وأرسله الى مصر حيث أسكنه محمد علي قصرًا فخماً في جزيرة الروضة

كان معظم الفضل في ذلك الانتصار الباهر لقائد المدفعية المصرية « سليمان بك الفرنساوي » الذي أحدث الثغرة الاولى في تلك الجدران المائلة المحيطة بالمدينة احاطة السوار بالمعصم ، وحطم بقذائفه الصائبة الابواب الضخمة المنيعة ، ومكن الجنود من اقتحامها وإبادة حاميتها والقبض على عبد الله باشا وسوقه الى الأسر ذليلاً

وقد هنا ابراهيم قائد مدفعيته ، وأثنى على مهارته ، وعهد اليه بقيادة ستة آلاف من أبطاله البواسل . فسار بهم من ميدان الى ميدان ، والفوز حليفه وحليفهم . فهزم الأتراك في بيلان واسكندرونة ، ومهد السبيل للنصر في واقعة قونية الفاصلة ، كما مهده من قبل أمام أسوار عكاه

فكافأه ابراهيم بأن أنعم عليه برتبة « باشا » وخصه بثقتة ومحبة دون سواء من القواد والانصار

القدس الشريف أورشليم بيت المقدس
قف خاشعاً أمام تلك القرية الكبيرة المتهدمة ، ومبها ماشئت ،
فهى في نظر الاديان الثلاثة مهبط الوحي وموضع الاجلال والاكرام

ثم تجول في طرقاتها ، وتوغل في ثنايا أزقتها ، وتصفح تلك الوجوه
التي تلاقيها في طريقك ، تجد فيها أنموذجاً من كل بشرة وسحنة
ذلك لأن المدينة المقدسة ، التي اتخذها الانبياء والرسل موطناً
ومقاماً لهم ، كانت ولا تزال في أعين البشرية وعرفها ، موطناً ومقاماً
لكل انسان مهما يكن مذهبه أو جنسه !

وهذا الاختلاط الغريب الذي نشاهده اليوم في اورشليم ، كان
من قبل وسوف يظل من بعد على كره الدهور ، صبغة خاصة بالمدينة
السورية ، وطابعاً يميزها عن اخواتها في مختلف الاقطار والامصار

تمتعت اورشليم في عهد المصريين براحة لم تعهدها من قبل . وساد
بين سكانها روح وثام لم يألوه أسلافهم في العصور الخوالي . فعم المناء
والحبور ، وارتفعت الاصوات بأيات المدبح والثناء ، تترنم بعدل ابراهيم
وتضرع الى الله ببقائه وتثبيت سلطانه

وكان « سليمان باشا الفرنساوي » ممن يحملون في طيات صدورهم
اجلالاً خاصاً لتلك المدينة التاريخية العظيمة . فكان يتردد عليها أثناء
إقامته في أرض الشام ، ويطوف فيها باحثاً متفرجاً سائلاً
دخلها ذات يوم بعد عودته من قونية ، محتطياً صهوة جواده العربي ،
وجعل يتفقد بيت المقدس كما دته

وصل الى قبر المسيح ، فوقف أمامه خاشعاً ، وسرح بصره يمينا
ويساراً ، وم بتابعة السير
لكنه أجهل بجأة ، وترجل مسرعاً ، وقد ارتسخت على وجهه أمارات
الدهشة والحيرة

ذلك لانه أبصر ، على مقربة منه ، شخصاً لم يكن ينتظر لقاءه في ذلك
المكان . شخصاً أعاد الى ذهنه ذكرى أيام خلقت ، وحوادث تركت في
نفس ذلك الجندي أنراً عميقاً !

اقرب سليمان من ذلك الشخص مضطرباً مرتجفاً ، يحدق فيه
البصر ، ولا يدري أفي حلم هو أم في يقظة
وتتم سائلاً :

— ماري تويز ؟

رفع الشخص رأسه . . .

هي امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها ، لب الشيب في
رأسها ، وحفرت الشيخوخة في وجهها الأخاديد قبل الأوان
نظرت الى الرجل الشاخص أمامها بعينين قد أطفئ فيهما يريق
الذكاء . وزاد جبينها تقطباً ، كأنها تبحث في سجل ذاكرتها ، عن اسم
سبق لها أن طبعته فيه . ثم اختلجت شفتاها وسقط من بينها هذا
الاسم :

— سيف ؟

هو اسم سليمان باشا الفرنسي ، قبل أن يهجر وطنه فرنسا ، ويحط
رحاله في مصر ، ويستعيز عن فرنسيته ومسيحيته ، بمصريته وإسلامه
سأل المرأة :

— كيف وصلت الى هذه الاقطار وماذا تصنعين هنا ؟

— اقيم في هذه المدينة مع زوجي ، وهو خادم في كنيسة اللاتين

— زوجك ؟ أتعنين الضابط شارل جيرار ؟

— أجل

— هل شفى من جرحه ؟

— نعم . لكن الاطباء قد بتروا ذراعه اليمنى

— مسكين جيرار !

وعاد سليمان بذكريته الى الماضي ، الى ثلاثين سنة خلت ، حيث
كان جندياً في البحرية الفرنسية

كان يحب الفتاة « ماري لويز » وهي من مدينة « ليون » مسقط رأسه . وكان الفتي والفتاة قد تعاهدا على الزواج لكن الضابط « سيف » كان شرساً نزاعاً الى الحرية والاستقلال في الرأي والعمل . فقامت ذات يوم مشاجرة بينه وبين رئيسه ، في السفينة الحربية التي كان يخدم فيها ، فهاجم سيف على غريعه ، وانهاه عليه ضرباً ، وكاد يودي بحياته لو لم يدركه الجنود .
وهل سيف أمام محكمة عسكرية حكمت عليه بالاعدام . . .
لكن أحد اصدقائه المعجيين بشجاعته واقدامه ، بذل نفوذه لدى الامبراطور نابوليون . فأبدل حكم الاعدام بعقوبة اخرى .
وقطعت اسرة الفتاة بعد ذلك الحادث كل علاقة بالجندي الشرس المحكوم عليه

ثم مرت الايام . وارتقى سيف في سلك الجندي من رتبة الى رتبة ، مشتركاً في حروب نابوليون وغزواته ، يبلى في الميادين البلاء الحسن ، ويصاب بجرح اثر جرح ، وينتقل من نصر الى نصر . . .
وكانت حروب روسيا سنة ١٨١٢ . فاخذ سيف نصيبه منها ، وقطع مرحلة جديدة في مراقى الجدد

وهناك ، في تلك الاصقاع الثلجية ، بينما كان جيش نابوليون عائداً أدراجه الى فرنسا ، والاعداء يمدقون به من كل صوب ، والجنود يسقطون في الطريق جوعاً واعياء ، هناك التقى سيف ثانية بالمرأة التي احبها وأحبته

كانت ماري لويز قد التحقت بالجيش ، تخدم الجنود وتواسي الجرحى ، وقد ارغمها اهلها على الزواج بالضابط جيرار ، من رجال المدفعية . أصيب الزوج بشظايا قنبلة هسمنت ذراعه اليمنى ، اثناء اجتياز الجيش جسر « البرزينا » ولو لم يدركه سيف ويحمله وراهه على سرج

جواده ، الى مركز الاطباء والممرضين ، لفضى الرجل نحيبه في ديار الغربية ،
بين الثلوج المتراكمة

وهكذا أتقد سيف الرجل الذي حل مكانه في قلب حبيبته !

قصت ماري لويز على سليمان باشا قصتها . وأخبرته كيف خرج
زوجها من الجيش بعد زوال الامبراطورية من فرنسا ، وقبوله العمل في
دير الرهبان اللاتين بالقدس الشريف ، بعد أن سدت في وجهه أبواب
الرزق في وطنه

أصغى اليها القائد واجماً حزيناً . ولما أتمت حديثها سألمها :

— وأنا . أما زلت تذكريني بالخير يا ماري لويز ؟

فسكتت المرأة لحظة ، ثم نظرت اليه بعينها ، وقد عاد اليها بريقهما

الاول ، وترقرقت فيهما الدموع ، وقالت بصوت متهدج حزين :

— لقد أحببتك يا سيف ولم أحب قط سواك . لكن ذلك الحب

قد أمسى من آثار الماضي ، فانتقل من القلب إلى الذاكرة !

فأخذ سليمان باشا يد ماري لويز ، ووضع عليها قبلة حارة

لم تنم تلك القبلة عن حب وهيام . ولكنها كانت رمز احترام

واجلال

واغرورقت عيناه بالدموع . وهي الدموع الاولى التي سقطت من

مقلة ذلك القائد المغوار !

فيظ الصنكبوت

دسمبر سنة ١٨٣١ . . .

دخلت الجيوش المصرية بيت المقدس . فنفخ في الابواق ونادى
المادى داعياً وجوه المدينة وأعيانها الى الاجتماع أمام المسجد الأقصى .
فلبى الجميع النداء ، ووقف فيهم رسول ابراهيم يفضي اليهم بمشيئة القائد
العام ، ويتلو عليهم «مرسوماً» يوجه فيه ابن محمد على الخطاب الى الناس
باسم أبيه عزيز مصر :

« الى شيخ الحرم القدسي ، الى مفتي هذه الديار ، الى النائب وجباة
الاموال وغيرهم من حكام ومشايخ وزعماء في ولاية صيدا وبيت المقدس
والحاضرة والبادية . يقول ابراهيم بن محمد علي : بلغني أن اليهود
والنصارى لا يعاملون بالحسنى ، فأمر بالتسامح في معاملتهم . وأمر أيضاً
برفع التكاليف عنهم لأنها تؤخذ منهم ظلماً وجوراً . وسواء لدي أكان
أولئك النصارى واليهود من أبناء هذه البلاد أو من الاغراب المقيمين
فيها أو الحججاج الذين يقدون على بيت المقدس زائرين متبركين . وأمر
أيضاً بالغاء رسوم الحفر التي تجبى من النصارى الذين يقصدون الى
ضفاف نهر الشريعة للاغتسال في مياهه المقدسة ، أو الى كنيسة القيامة
لأداء فروض العبادة والصلاة . وأمر أيضاً بأن تكون حرية الأفراد
محترمة في أعمالهم ومعتقداتهم وروحانهم وغدواتهم . وأمر أيضاً بالألا

تلبسوا الحق بالباطل . و سأسهر على راحتكم جميعاً وأجعل لواء
الانصاف يرفرف فوق هذه الربوع ويحقق حقوق اعلامنا المظفرة في
ميادين القتال . هذا ما يأمر به ابراهيم بن محمد على فيكونوا له طائعين . »

يونيه (حزيران) سنة ١٨٣٢ . ٠٠٠

عقد اليهود في المدينة مجلساً ، فتصدر الخاخام « كوهين المارديني »
ذلك المجلس . وألقى على الحاضرين بعد أن اكتمل عقد هذا
السؤال :

« كلفت بان أحمل الى قائد المصريين شكاوى أبناء اسرائيل . فهل
بينكم من لديه شكوى يرفعها اليه ؟ »

فأجابوا جميعاً وبصوت واحد : « لا »

ونهمز « حاتم الحداد » وبعد الاستئذان والسماح له بالكلام قال :
« أنا من أبناء الشعب أيها الاخوان . أحترف مهنتي في هذه البلدة
منذ أكثر من عشرين سنة . ولم تمر علي أيام أفضل من هذه الايام
فقال الخاخام كوهين :

« كان الحكام من قبل يميلون تأمين الحقوق واقرار السكينة .
فكان جبل الامن مضطرباً ، والناس على أموالهم خائفين ، والنهب
والسلب معرضين . ألم يشبهوا الحكام السابقين برمال الصحراء
الدائمة الظمأ ؟ كانت أموالنا تتسرب إلى جيوب أولئك الطغاة كما
تتسرب المياه إلى جوف الرمال . أما الآن فقد تبدت الظروف وتغيرت
الاحوال . إن ابراهيم المصري قد ضرب على أيدي المفسدين ودفع عن
الناس شرهم . لقد أمر جنوده برد الاسلاب والغنائم التي أخذوها من
الاهالي في عكاه الى أصحابها ، وأمن الجميع على أملاكهم ومنقولاتهم .
فلنضرع الى الله أن يحفظ ابراهيم من الاذى ، وأن ينصر جيوشه على

اعدائه ، ويذلل في طريقه الصعاب ، ويصونه من كيد السكائدين !
فنهض الجميع ، ورفعوا الى السماء اكف الضراعة قائلين بصوت
واحد : « آمين ! آمين ! »

عاد حاتم الحداد الى منزله في المساء ، فحفت ابنته «استير» للقاءه ،
وضمها الرجل الى صدره ، ودخل الاثنان الى الغرفة الوحيدة التي
يتألف منها المنزل الحقير
وسألت الفتاة أباه :

— لماذا تأخرت في العودة الليلة يا أبي ؟ ألا تعلم اني أخاف عليك ،
وان وجود المصريين في هذا البلد يملأ قلبي رعباً ، ويمنع عني الراحة
مادمت بعيداً عن البيت ؟

فطبع حاتم قبلة على جبين وحيدته وقال :

— لا تخشي شيئاً أيتها الحبيبة . فان المصريين يحافظون على أموالنا
ويحترمون حريقتنا ، وقد قيل لى ان قائدم ابراهيم باشا بن محمد علي
والي مصر ، يشدد المراقبة على جنوده ، ويخرج ليلاً متسكراً للوقوف
بنفسه على حركاتهم وسكناتهم . وما تأخرت الليلة إلا لأنني كنت أضع
في مكان أمين النقود التي جاءني بها خطيبك «الياهو» وأودعها أمانة
بين يدي

— وأين وضعتها ؟

— في حفرة أعددتها لهذا الغرض في الحانوت . وقد وضعت فيها
أيضاً جميع ما أملك من مال

— ولكن ، ألا تخاف أن يسطو اللصوص على الحانوت ؟

— كلا . فان العسس يطوف بانتظام في الأسواق . وأموالنا تكون
في أمان هناك أكثر منها في منازلنا

وبعد سكوت قصير ، مضى حاييم قائلاً :
— دعينا من هذا كله الآن وعلينا بالتوراة . . . فاستمرى في
قراءة الفصل الخامس من سفر تثنية الاشرع
فنهضت الفتاة ، وتناولت الكتاب المقدس ، وفتحته في الموضع
الذي أشار اليه والدها وجعلت تقرأ :

واحفظ يوم السبت وقدسك كما امرك الرب إلهك . في ستة ايام تعمل
وتصنع جميع اعمالك . واليوم السابع سبت للرب إلهك . لا تعمل فيه
عملا انت وابنتك وابنتك وعبيدك وامتك وثورك وحمارك وسائر
بهائمك وتزيلك الذي في داخل ابوابك ، لكي يستريح عبدك وامتك
مثلك

و اذكر انك كنت عبداً في مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك
بيد قديرة وذراع مبسوطة. ولذلك امرك الرب بأن تحفظ يوم السبت.
اكرم أباك وامك كما امرك الرب إلهك لكي تطول ايامك وتصيب خيراً
في الارض التي يعطيك الرب . لا تقتل . لا تزني . لا تسرق .

فتح الباب فجأة وظهر فيه د الياهو ، خطيب استير مضطرباً
قلقاً . وما وقع نظره على حاييم حتى صاح به :

— أنت هنا يا عماء والاصوص في حانوتك ؟

صدم الحداد بهذه الكلمات صدمة عنيفة ، وظل ذاهلاً شاخص
البصر فاغراً فاه والعرق البارد يتصبب من جبينه . ثم رفع يده بيضاء
ومر بها على رأسه كأنه يحاول ان يدفع عنه كابوساً مزعجاً
وخشي الياهو عاقبة مفاجأته تلك ، فاقرب من الشيخ وجعل يعزبه
ويطيب خاطرهم قائلاً :

ما الداعي الى القنوط يا عماء ؟ فليحمل أولئك اللصوص

ما يجدونه في حانوتك من حدائد يعلوها الصدا . لا يحمل بك ان
تستسلم لليأس من اجل ذلك . ولو علمت ان النبا سيؤثر في نفسك الى
هذا الحد لما حملته اليك

ثم التفت الشاب الى استير وأوماً اليها فاقتربت من ايها وطوقت
عنقه بذراعها وقالت :

— صدق الياهو يا ابي . فما من داع الى اليأس

وقاطعها الشاب قائلاً :

— كنت ماراً على مقربة من الحانوت في طريقى اليكما ، فتنهت

الى حركة غريبة أمام باب الحانوت ، واقتربت فاذا بثلاثة رجال قد
خرجوا من الباب وابتعدوا مسرعين . فناديتهم ولكنهم اختفوا مهرولين
في الأزقة الضيقة تحت جناح الظلام . وأسرعت الى البيت أحمل الخبر
وهنا رفع حاتم رأسه متمتماً :

— الياهو ... الويل لي ! انني لشقي تعس ... النقود ... جميعها ...

نقودك ونقودي ... كل ثروتنا ... هناك ... في الحانوت ... لقد
سرقوها ...

فانتفض الياهو وقد داخله الخوف على أمواله ، وسأل الشيخ مستفهماً :

— ماذا تقول : النقود ؟ هل وضعتها هناك ؟

— كلها ... في حفرة ... الى يمين السندان ... تحت النافذة ...

ولم ينتظر الياهو أكثر من ذلك ، بل وثب الى الخارج وأخذ يعدو
كالجنون في الأزقة المظلمة ، راكضاً الى الحانوت الذي كان يظنه خالياً
خارياً الا من الحدائد الصدئة ، والذي كانت جدرانها تضم ثروته وثمره
أتعابه على غير علم منه !

عاد الشاب بعد حين ممتنع الوجه شاحب اللون ، ودموعه تسيل

غيطاً وكمداً

ولما دخل غرفة المنزل وراه حليم على هذه الحالة ، أدرك ان المصيبة قد وقعت ، وأن اللصوص قد اهدتوا الى الخبأ و عثروا على المال وفروا به غائبين سقط الشاب على الارض با كيا . لكن الحداد نهض واقترب منه ، وقال له باللهجة الأمر :

— انهض يا الياهو . كنت منذ ساعة تأخذ علي استسلامي لليأس والقنوط . فلا تقع في الضعف الذي كنت تؤنبني عليه . انهض ولنسرع إلى قائد المصريين ، نرفع اليه شكوانا . ونطلب اليه انصافنا واعادة اموالنا الينا

وخرج الاثنان الى منزل القائد ابراهيم بن محمد علي ، الذي كان يحتل البلاد بجيشه المظفر ، ويقيم في مدينة أورشليم عاصمة الاراضي المقدسة ، وقبله اليهود والنصارى والمسلمين

وصل الرجلان الى باب الامير فوقفهما الحراس . ولكنهما طلبا بالحاح المشول بين يدي القائد . وكان ابراهيم في ذلك الوقت لا يرد زائراً أو طالب حق عن يابه . فأمر بادخالها فدخلوا . وبعد التحية خاطب حليم القائد قائلاً :

— مولاي . ان شكواي لا تتطلب كلاماً كثيراً . فدعني أبسطها لك وأوجه اليك عتاباً
فابتسم الامير وأجاب :

— قل ما شئت ايها الشيخ فعمليك الامان !

— مولاي ، إنك تتغنى بالنظام . وتكثر من ذكر الشريعة . وتدعى انك مادحات هذه البلاد إلا لاقامة العدل والانصاف . وتطلب الينا ان ننام مطمئنين على ارواحنا واموالنا ، لانك انت ساهر على الجميع . فدعني اعانبك يا مولاي : لقد قضيت عشرين سنة في هذه البلاد

نحت حكم الاتراك ، الذين جثت تحاربهم ، دون أن يقع علي ضرر ، او
يعد احد يده بسوء ائى اموالى . اما الآن فقد تغيرت الاحوال
بالامس جئنا فاتحا مؤمنا . واليوم افتحم اللصوص حانوتي ، وسرقوا
ما فيه من نقود . فان كنت حامى حمانا كما تدعي ، فاقبض على السارق
واعد إلي مالى ؟ هذا ما جثت ارفعه اليك . فاعطنا برهاننا إما على قدرتك
وعدلك ، وإما على عجزك وظلمك

وذا انتهى الرجل من كلامه ، قال ابراهيم :

— عد الى بيتك ايها الشيخ . وغداً سنقبض على السارق ونرد

اليك مالك !

أفاق الناس فى صباح اليوم التالى على صوت المنادى يقول :

— يا اهل اورشليم وسكان القدس . بأمر القائد العام ، والامير

العظيم ، والغازي المظفر ابراهيم باشا المصرى ، ادعوكم الى الاجتماع

اليوم فى منتصف النهار ، فى سوق المدينة امام حانوت حاييم الحداد .

فان معجزة عظيمة ستظهر هناك . . . لا تتخلفوا عن الحضور . . .

يا اهل اورشليم وسكان القدس ، بأمر ابراهيم باشا . . .

وما انتصف النهار حتى كان سكان المدينة جميعهم قد توافدوا

زرافات ووحيداناً على السوق ، أمام حانوت الحداد حاييم ، لرؤية

المعجزة التى وعدهم بها المنادى . وبينها هم كذلك ، إذا بابراهيم باشا

تقدمه كوكبة من الفرسان الدروز الذين اتخدم حرساً خاصاً ، وتبعه

كوكبة أخرى من الفرسان الارناؤوط الذين ساروا معه من مصر ،

يخرج من داره ويحترق جموع المحتشدين فى السوق ويقف أمام حانوت

حاييم

وهناك التفت القائد الى الناس وقال

— يا قوم ، إن الشرائع تنص على إزال العقاب بكل من يقترف عملاً سيئاً ، أو يرتكب جريمة ، أو يقصر في أداء الواجب عليه ، سواء أكان المقصر في أداء الواجب إنساناً أم حيواناً أم أى شيء آخر غير ناطق أو عاقل . وقد جئت الآن لإزالة العقاب بهذا الباب الذى ترونه أمامكم ، باب حانوت الحداد حاتم ، الذى عجز بالأمس عن حماية أموال صاحبه . لقد اقتحم اللصوص هذا الحانوت وقصر الباب في أداء واجبه ، فليجلد مائة جلدة !

وظاف المنادى بعد ذلك ، وأعاد على مسامع القوم أقوال مولاه . ثم تقدم الجلاد وضرب الباب مائة جلدة ! ولما انتهى الجلاد من عمله ، وضع ابراهيم باشا أذنه على قفل الباب منصتاً ، والناس من حوله ، وأعناقهم متطاولة ، وأعينهم عملاقة ، وآذانهم مرهفة ؟

لكنه مالبث أن رفع رأسه وصاح غاضباً :
— لم أفهم شيئاً . . . فليجلد الباب مائة جلدة أخرى ! فتقدم الجلاد مرة ثانية ، ونفذ في الباب حكم سيده . ولما انتهى تقدم ابراهيم ووضع أذنه على القفل ثانية كما فعل من قبل ثم قال في وسط ذلك السكون العميق :

— فهمت الآن ، تقول إن اللص الذى اقتحم الحانوت واقف الآن بين هذه الجماهير ؟ وإن على رأسه خيط عنكبوت علق به أمس ؟ حسن حسن !

ولما أعاد المنادى كلام الأمير بصوته الجهوري ، رفع ثلاثة رجال أيديهم إلى رؤوسهم باحثين عن خيط العنكبوت ! وكان جنود ابراهيم قد انتشروا بين الناس ، وعم على علم بالحيلة التى عمد إليها قائدهم ، فقبضوا على الرجال الثلاثة ، واتضح أنهم اللصوص

الذين سطوا على حانوت حاييم الحداد ، وسرقوا منه المال المودع في الحفرة
وجيء بهم الى الامير ، فاعترفوا بذنبهم ، وحكم عليهم ابراهيم برد المال
الى صاحبه . ثم أمر بجلدهم كل واحد مائة جلدة ، امام باب الحانوت الذي
اقتحموه بالامس !

ولما رأى حاييم ذلك ، اقبل على الامير والتقى بنفسه على قدميه يقبلها
مرددًا :

— إنك يا مولاي حايي حمانا ، ومقيم الانصاف بيننا ، ورافع لواء
العدالة في ربوعنا !

فأخذه ابراهيم بيده وقال :

— لن يذكر التاريخ أن ابراهيم بن محمد علي ، عامل الاصدقاء معاملة
الاعداء ، أو نام على ضمير ، أو لم يستمع لشكوى ، أو ترك سيئة ترتكب دون
أن يقتص من فاعلها . فاذهب يا حاييم ، وعد الى حانوتك ، ونم في بيتك
مطمئنًا على نفسك وعلى أموالك . فان عيني ساهرة لانام . وليعلم الملا
اننا نشهر ميزان العدل متى أردنا ، ونجرد السيف متى شئنا ، واتنا لمنصفون
في الرعية ، ومنتصرون في الحروب الدموية !

كان ذلك اليوم يوم فرح وحبور في منزل حاييم الحداد . ولما قص
الرجل على ابنته ماجرى في السوق أمام الحانوت ، قالت الفتاة والدموع
تترقق في عينيها :

— كنت أضمر لأولئك المصريين شرًا ، وكنت أكرههم وأضرع
الى الله أن يتقدنا من أيديهم كما أتقد أجدادنا من الفراعنة أجدادهم .
أما اليوم ، فقد عدلت عن رأيي الاول ، وصرت اعتقد أنهم حكم منصفون .
— حسن جدًا يا ابنتي . انك لهي صواب في اعتقادك . وهل يحتمل بنا أن
نسيء الظن بعد اليوم في أولئك الفاتحين ، وأن نطالب منهم برهانًا على حسن

فإنهم وصدق طويتهم، أسطع وأجلى من الذى أدلى به إلنا ابراهم اليوم؟
وبعد سكوت قصير قال :

— علنا بالتوراة يا استير. واستمرى فى قراءة الفصل الخامس من
سفر تثنىة الاشرع ، فى الموضع الذى وقفك فىه عن القراءة دخول
الياهو حاملا إلنا ذلك النبأ المزعج

فتناولت الفتاة التوراة واستمرت فى قراءتها :

د . لا تقتل . لا تزنى . لا تسرق . لا تشهد على صاحبك شهادة زور .
لا تشته زوجة صاحبك ولا تشته بىته ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا
بوره ولا حمارة ولا شىئا مما لصاحبك . هذه الكلمات كلم الرب بها
جماعتكم كلها فى الجبل من وسط النار والغيام والدجن بصوت عظيم ولم
يزد . وكتبها على لوحى الحجر ودفعتها الى

وضم حاتم الشاب والفتاة الى صدره وقال :

— لقد عشنا معا يا بنى فى السراء والضراء . وأوشكنا أمس أن
نصبح فقيرين معدمين . فضع على جبين خطيبتك أستير قبلة المحبة
والاخلاص . وغداً سيعقد لك عليها ، وتبتسم لك الحياة عن ثغرها ،
فتستقبلان معا السعد والرغد والهناء !

زهرة المغرب

— اندمات أبي ، وماتت أمي ، ولم يبق لي في هذه البلدة من
أمت اليه بنسب . فخير ما أصنعه أن أرحل عنها !
هذا ما كان يقوله الشاب « أحمد الدباغ » ، لجاره في منزل
على شاطئ البحر ، في مدينة « غزة » السورية
فسأله الجار :

— وإلى أين تقصد يا أحمد ؟

— سألتحق بالجيش المصري متطوعاً . لعل حمى القتال وضوضاء
المعارك ورائحة البارود وصليل السيوف ... لعل كل ذلك ينسي في بعض
ما أنا فيه من حزن وكمد وأسى !

وفي اليوم التالي ، وضع الشاب فكرته موضع التنفيذ ، وحقق
رغبته في الالتحاق بجنود إبراهيم المظفرة

كان ذلك في شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٢ . فأرسل أحمد الدباغ
مع فريق من المتطوعين إلى طرابلس ، التي استولى عليها الغزاة ، وأقاموا
فيها حامية مؤلفة من ألف وخمسمائة جندي مصري بقيادة الميرالي
ادريس بك ، وألف فارس من دروز لبنان بقيادة أحد أنجال
الأمير بشير ، وخمسمائة من متطوعي نابلس وغيرها
وهاجم الأتراك المدينة بعد وصول الشاب بثلاثة أيام . فوج أحمد

للحرة الأولى نيران المعارك ، وذاق مع رفاقه الأشاوس لذة القتال
ونشوة النصر !

دافعت الحامية عن المدينة دفاعاً مجيداً . لكن القائد التركي عثمان
باشا اللبيب كان يهاجمها بجيش لجب ومعدات هائلة . وكان ابراهيم باشا
في ذلك الوقت يحاصر عكا المنيعه

رأى القائد المصري أن لا بد من وجوده في ميدان الشمال . فشنص
إلى طرابلس في اليوم الثاني من شهر ابريل (نيسان) ١٨٣٢ ، على رأس
قوة من رجال الحرس وفرسان الجيش والبادية . وما علم عثمان باشا
بقدومه حتى ولى وجيشه الأدبار ليلاً ، منهزماً بلا قتال ، نحو « حماة »
لكن ابراهيم باشا لم يغادر عكا لمشاهدة العدو هارباً خائب . بل
لاضافة انتصار جديد إلى الانتصارات السابقة . فتعقب الفارين بفرسانه ،
وظلت السيوف تعمل في أققيتهم ، والرماح في ظهورهم ، حتى تم له ما كان
ينشده من فوز مبین ، وتشتت ذلك الجيش في السهول والجبال ، واستولى
المصريون على آلاف الأسرى وأكداس مكدسة من الأسلحة والمؤن
تلك هي المعارك التي دونها التاريخ باسم « موقعة حمص » والتي
كان في استطاعة المصريين أن يجعلوا عواقبها أشد شؤماً على الأتراك
مما كانت ، لو لم تنقصهم ذخائر القتال !

كانت الأسلحة متوافرة لديهم ، لكن القذائف كانت غير كافية ،
فاضطر ابراهيم أن يتفقر إلى بعلبك حيث مخازن الجيش وذخائره

ظن العدو أن المصريين قد ارتدوا إلى الوراخ خوفاً وجزعاً .
فاستعاد عثمان باشا رشده ، وأعاد الكرة بفلول جيشه والفيالق التي
وافته من الشمال ، وهاجم ابراهيم اعتقاداً منه أنه سيأخذه على حين
غرة ، وذلك في الرابع عشر من ابريل سنة ١٨٣٢

كان عدد المصريين ستة آلاف جندي ، وعدد الأتراك أضعاف ذلك .
فعهد إبراهيم الى سليمان الفرنسي بالاشراف على القتال . وصمد ذلك
الدهية للعدو بجيشه الصغير في سهل « الزراعة » ، وما كاد ينتهي من
التأهب للمعركة ، حتى كان الأتراك قد أحاطوا به من الجهات الأربع
ظنوا أن الفوز حليفهم . واعتقد عثمان باشا أنه سيعود في مساء
ذلك اليوم ، سابقاً أمامه إبراهيم أسيراً ذليلاً . لكن أحلامه تبددت ،
وآماله تلاشت ، وما انقضت ساعات معدودات حتى كان ذلك القائد
يطلق ساقيه للريح ، طالباً مسترحماً من جنوده أن يعبروه جواداً يمتطيه ،
بعد أن قتل جواده نخته في حومة القتال

كانت هزيمة الأتراك في ذلك السهل شنيعة معينة . ولم يقف عثمان
باشا في فراره ، إلا بعد أن اطمأن على حياته في مدينة حماة
واشتدت عزائم الجنود بعد ذلك الفوز العظيم . وزالت الشكوك
من نفوس المترددين من أبناء البلاد . وتضاعفت بذلك قوى الجيش
الفاتح ، وازداد عدد أنصاره وحلفائه
عاد إبراهيم إلى بعلبك ، حيث وافاه عباس بن طوسون باشا بفرقتين
من المشاة والفرسان ، وهناك أقيم مهرجان نظم ، احتفالاً بالنصر ،
وابتهاجاً بانهزام الأعداء

ووزع إبراهيم على الجنود والمنطوعين أسلاب المعارك ، وكان يجد
أمام كل واحد من أبناء في القتال البلاء الحسن ، كلمة طيبة يقولها ،
وثناء مشجعاً ينعم به على أولئك الأبطال

كان المتطوع العربي « احمد الدباغ » في عداد الرجال الذين قاتلوا
قتالاً مجيداً ، واسترعدوا أنظار القواد والضباط ، فهنأه إبراهيم على
إقدامه ، وخصه في توزيع الهبات والعطايا بعنايته

واشترك الشاب بعد ذلك في جميع المواقع الحربية ، وكان في الهجوم على عكاه والاستيلاء عليها في طليعة الصفوف ثم مرت فترة هدوء وسكون . وانقضت أيام ذاق فيها الجند بعض الراحة ، على أثر ذلك العناء والارهاق لكن فريقاً منهم عصى أوامر القائد ، ولبي نداء النفس الامارة بالسوء ، فاندفع في أعمال السلب والنهب ، واعتدى على السكان العزل الآمنين

غضب ابراهيم وثار من أجل ذلك ثأره . فدعا اليه ضباط الجيش ، وطلب اليهم أن يحيلوا إلى التأديب كل من عصى الاوامر من الجنود ، وتعدى حدود النظام والقانون

وجلس القائد على منصة في إحدى ساحات المدينة ، ينظر الى الزبانية يضربون بسياطهم المذنبين من أفراد الجيش كانت الدماء تسيل غزيرة من ظهور المساكين وأرجلهم . فيرفعون أصواتهم طالبين « العفو والامان » مقسمين أنهم لن يعودوا الى المخالفة والعصيان

لكن ابراهيم باشا كان حازماً صارماً . وكان يعلم أن النصر لن يتم له ولجيشه ، إلا إذا عامل الجنود معاملة خشنة ، وأرغمهم على احترام القوانين إرغاماً

وجأة . أفلت أحد الجنود المذنبين من أيدي الجلادين ، وحاول أن يقترب من القائد . فأمسك به ضابط وأعادته الى مكانه . فقال ابراهيم :

— أي ذنب اقترف هذا الرجل ؟

— سطا على منزل أحد الموالين لنا ونهب ما وصلت اليه يده

— ما اسمه ؟

— احمد الدباغ . وهو من متطوعي غزة

فقطب ابراهيم جبينه وقال :

— انذكر هذا الاسم

وظن الشاب أن ماضيه سيشفع له . فقبل الارض بين يدي ابراهيم

وقال :

— نعم يا مولاي . لقد تفضلت وأبديت ارتياحك الى سلوكي

في الميادين

لكن القائد المصري كان يتبع في أحكامه منهجاً غير المناهج المألوفة .

فصاح بالرجل غاضباً :

— أيها الشقي التعس . لو كنت جباناً لوجدت لك في جيبك عذراً

يدفع عنك نفمتي ، ولأطلقت سراحك واكتفيت بطردك من الجيش .

لكنك شجاع ، وذنك يتضاعف بالنسبة الى شجاعتك . لان الشجاع يعد

مجرماً أثمياً عند ما يقدم على اعمال كالتي أقدمت عليها

ثم سأل الجلادين :

— بأية عقوبة حكمتم عليه ؟

فأجابوه :

— بعشرين جلدة !

صمت ابراهيم هنيئاً . ثم قال بهدوء وتؤدة :

— ليجلد أربعين جلدة . فخير أن يقال عن جنودي إنهم يفرون

من الميادين ويتجنبون القتال ، من أن يقال عنهم إنهم يسلبون المارة

وينهبون المنازل ويعتدون على العزل الضعفاء !

فجلد الرجل أربعين جلدة !

ثمانية أعوام مرت على ذلك الحادث

فر احمد الدباغ من الجيش المصري ، وهام على وجهه في الفيافي

والقفار ، يقطع المغاوير الشاسعة ، ويعيش كما يعيش الشريد الطريد
وفي سنة ١٨٤٠ كان الرجل في الجزائر ، حيث رفع الامير عبد
القادر بن محي الدين الهاشمي لواء الثورة ، مستنهضاً هم القبائل ، داعياً
أبناء قومه الى الجهاد في سبيل الدين والوطن
وكانت سبل العيش قد ضاقت في وجه الجندي الفار . فيئس من
الحياة ، وحدثه نفسه بأن ينضم الى صفوف العرب ، كما انضم من قبل
الى صفوف المصريين

فذهب الى عبد القادر . ولما مثل بين يديه قال :
— لست من أبناء قومك أيها الامير . لكنني من رجال البأس
الذين ألفوا الكر والفر في ساحات القتال . فأطلب منك سيفاً أو
رمحاً ، وأضع حياتي رهناً اشارتك
— أهلاً بك يا بني . لك ماتريد ، على شرط أن يكون الدم الذي
يجري في عروقك دماً عربياً أصيلاً
قص الرجل على الامير قصته ، فاصغى اليه عبد القادر . ولما انتهى
من حديثه ، قال البطل الجزائري :
— كفر اذن عن ذنبك الماضي ، وقاتل في صفوفنا قتال الابطال ،
وتجنب أعمال اللصوص

يوليه - تموز - سنة ١٨٤١
فاجأت كوكبة من الفرسان الفرنسيين قافلة عربية ، كانت تستقي
من ماء ساقية ، في إحدى الواحات المهجورة . فشتت رجالها في الصحراء ،
واستولت على ما كانت تحمله الجمال من أسلحة وأرزاق
وأصيبت الفتاة « زهرة بنت عبد الله » بجرح في كتفها ، فجرت
نفسها إلى ضفة الساقية حيث جعلت تغسل جرحها وتضمده

وهناك عثر عليها احمد الدباغ ، عندما وصل إلى ذلك المكان ، بعد
يومين ، مع فرسان عشيرة « ضهره »
أسرع الشاب إلى الفتاة ، وكانت تتن من الالم والجوع ، فأسغفها
ونقلها إلى مخبأ أمين . ولما عادت إليها قواها أخبرته بما حدث لها :
— لم يبق سواي في هذا المكان . فقد قتل من قتل وفر من فر .
كنت وزوجي مع القافلة ، فأصيب برصاصة في صدغه ، ألقته عن
جواده صريعاً

— ومن هو زوجك ؟

— الشيخ سالم الهاشمي . أما أنا فاسمي زهرة . والقوم يدعونني
« زهرة المغرب ! »

فنظر إليها أحمد الدباغ ، وقال في نفسه :

— والله لم يخطئوا في التسمية ، فليست الازهار أبدع جمالا
وأسطع بهاء منك .

لكنها زادت على ذلك قولها :

— مع اني لست من بنات المغرب ، ولم أر النور في الجزائر

— من أية بلاد أنت إذن ؟

— من عكاه

فانتفض الرجل ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة فرح وجور :

— من عكاه ! أنت إذن من بنات وطني !

— كيف ؟ أنت أيضاً . . .

— ولدت في مدينة غزة هاشم . وأنا يتيم الابوين . ولكن أنت ،

كيف جئت إلى هذه البلاد ؟

— وقع نظر الوالي عبدالله باشا علي ، فرغب في ، وألقى القبض على

أبي وزجه في ظلمات السجون . ثم اختطفني من خدري ، وتركني في

قصره سجنه مع عشرات النساء ، الاواتى كن يتعذبن في ذلك الجحيم .
لكن أمة مغربية رقت لحالي وساعدتني على الفرار . فالتجأت الى الشيخ
سالم الهاشمي المغربي ، وكان حينذاك في عكاه ، فانتقذني من الأسر ، وأحسن
الي الصنيع ، وطلب الي أن أصير زوجته فقبلت
- وبعد ؟

— عاد زوجي الى وطنه الجزائر فبعته . وها قد مضت عشر
سنوات على إقامتي في هذه البلاد ، أنتقل مع زوجي الذي يحارب
الفرنسيين من ميدان الى ميدان ، ومن واحة الى واحة

مثل أحمد الدباغ من جديد بين يدي الامير عبد القادر :
— مولاي ، جئت في المرة الاولى طالباً منك السماح لي بالانضمام
الى صفوف المقاتلين تحت لوائك . أما الآن ، فقد جئت راجياً أن
تخلفني من قسماً ، وأن تسمح لي بالعودة الى وطني مع هذه المرأة ؟
وأشار الى « زهرة » التي كانت وراءه في ثوب الرجال
— ومن تكون هذه المرأة ؟

— زهرة قطفتها يد غريبة ، وحملتها بعيداً عن منبتها ، فذبلت
وذهبت نضارتها
— افصح .!

— وردة نقلت من تحت سماءها البعيدة ، الى هذا الجو الذي تحرقها
حرارته . فمر يا مولاي باعادتها الى حدائق وطنها . إن « زهرة المغرب »
تحن الى سورية ، أرض آباؤها وأجدادها
— لقد أتيت يا بني من ضروب الشجاعة والفروسية ، ما يجعل
رفض رجائك نكراناً للجميل . فعد إلى بلادك واصطحب هذه المرأة

فكر أحمد طويلاً ، وخيل اليه أن خير ما يفعله هو أن يتوجه إلى

الساحل ، حيث يسهل عليه الانتقال والرحيل عن تلك الديار . فسار مع رفيقته ، ووصل الاثنان عند الظهيرة ، في يوم شديد الحر ، الى غابة كثيفة على مقربة من شاطئ البحر .

فأقرش كل منهما عباءته . وجلسا هناك في ظل شجرة وارفة ، على أن يقضيا بقية النهار والليل في تلك الغابة ، استعداداً لمتابعة السير في الغد .

صرخة مفزعة تمزق سكون الليل ...

نهض أحمد الدباغ مذعوراً ، ومد يده إلى سيفه ، ورأى الحسناء متصبية أمامه ، ماسكة عنقها بيديها

— زهرة ... مالك . ؟ . ماذا حدث . ؟ .

فتمتت الفتاة :

— هنا ... هنا ...

وإذا بقطرات دم تتساقط من خلال أصابعها :

— حية ... حية ... هنا ...

شعر أحمد بحركة بين الاعشاب وراه . فصاحت زهرة :

— لا لا ... لا تقرب ... ستلدغك الحية كما لدغتنى . دعنى لكي

أموت وحدي ... وعش انت ولا تكن ضحيتها

وسقطت على الارض جثة هامدة !

فوقف الشاب المسكين أمام « زهرة الغرب » والدموع تترقرق

في عينيه ، مستسلماً لحكم القدر

ثم احتفر حفرة في ظلال ارضة مغربية ، والقى فيها جثة المسكينة ، وواراها التراب مردداً :

— يا لقسوة القضاء . ! . يحل بنا الشقاء ونحن في طريق السعادة .

لا حول ولا قوة إلا بالله !

عاد أحمد الدباغ الى موطن آبائه وأجداده ، بعد عشرة أعوام من
رحيله عنه

لقد تبدلت أحوال باحوال ، وظروف بظروف ، ووجوه بوجوه
رحل المصريون عن البلاد ، فعادت اليها الفوضى ، وعمها
الاضطراب ، وانتابتها القلاقل

مطامع الزعماء تتلاطم كالامواج ، وأنصارهم يتطاحنون في كل جهة
وناحية ، وشبح البؤس والشقاء يبدو غميقاً هائلاً ، وقد انهزم أمامه ملك
السعادة والهناء

كان أحمد الدباغ يذهب كل يوم الى شاطئ البحر ، ويجلس على
صخوره ، وينظر الى الامواج تنتحب ، وتلفظ أنفاسها الاخيرة على
الرمال الناعمة ، فيخيل اليه أنها تسكى عهداً مضى وانقضى

لقد رحل منذ عشر سنوات عن وطنه ، حاملاً معه ذكرى مؤلمة .
لكنه كان يؤثر أن يعود اليه ، فيرى أعلام ابراهيم خفاقة في ربوعه ، على
أن يجدها خالية من تلك الاعلام ، ومن وقع سنابك الحيل وقعقة السلاح
فقضى البقية الباقية من حياته حزينا كئيبا ، يفكر في المعارك التي خاض
غمارها ، والاعداء الذين نكل بهم ، والمرأة الجميلة الفاتنة التي أحبها ،
والتي اختطفها ملك الموت من بين ذراعيه قبل أن يكشفها بذلك الحب ،
الذي خالج صدره ، وظل يحالجه الى آخر نسمة من حياته !

مات أحمد الدباغ في سنة ١٨٤٦ . ودفن على شاطئ البحر ، بجانب
صخرة من تلك الصخور التي كان يحبها ويقضي نهاره جالسا عليها
طوحت به الطوائح ، ولعبت به الاقدار ، وتقاذفته شرقا وغربا ،
لكن روحه فاضت حيث فاضت ارواح آبائه وأجداده من قبل :
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

السلطنة والدة

يونيه - حزيران - سنة ١٨٣٢

أصدر ابراهيم باشا أوامره إلى وحدات جيشه ، وفصائل المتطوعين من فرسان ومشاة ورماحة ورماة ، بأن يوافيه الجميع في بعلبك ، حيث تنظم الصفوف من جديد ، وتعين وجهة الزحف لكل فرقة من فرق الجيش الفاتح

وكان ذلك على أثر الانتصار الباهر الذي أحرزه المصريون وحلفائهم في سهل « الزراعة »

ترك ابراهيم في عكاه حامية صغيرة ، وأناب عنه في إدارة شؤون المدينة « منيب افندي » رئيس ديوانه . وعهد إلى « حنا بحري » بالاشراف على الأعمال التجارية والمدنية ، وراح يطلب من إله النصر المزيد ا

وقع اختيار القائد على بعلبك لجعلها قاعدة لحركاته الحربية ، ومركزاً عاماً لقيادة الجيش ، لأنها تشرف على طريق المواصلات المتشعبة المؤدية إلى حلب وطرابلس ودمشق وعكاه ، ولأن ملاصقتها لجبال لبنان تضاعف أهميتها من الواجهة العسكرية

أبى زعماء الجيش دعوة قائدهم ، ونفذوا أوامره ، فتوافد الجنود والمتطوعون من كل حدب وصوب إلى الموضع الذي عينه ابراهيم ،

وماجت سهول « البقاع العزيز » وهضبات بعلبك بكتائب المقاتلين
ومعدات الهلاك

وكان ابراهيم يقصد في النهار ، بصحبة سليمان الفرنساوى وعباس
باشا وغيرهما من أركان حربه وأخصائه ، إلى المضارب المنصوبة حول بقايا
الهياكل الرومانية واليونانية فيتلقى ما يرفع اليه من تقارير وما يحمله الرسل ،
من أخبار ومعلومات . ثم يطلب من الطبيب الفرنسي « غلياردو بك »
أن يشرح للناس بعض ما تقصه تلك الآثار القديمة والاطلال المجيدة ،
الرافعة نحو السماء أعمدتها ، من وقائع العصور الماضية ، وحوادث التاريخ
الرائمة

قال يوماً لضباط جيشه :

— لقد فعلنا اليوم ما فعله من قبلنا أولئك الغزاة ، الذين شيدوا في
هذه السهول وعلى هذه الربوات لأهنتهم الهياكل ولقادتهم القصور .
وجنودنا البواسل يضيفون اليوم صفحة جديدة ، إلى الصحائف التي
دونها في سجل التاريخ أولئك الذين سبقوم إلى هذه الاقطار ، منذ
أجيال عديدة . وكما أن قادة الرومان كانوا يفاخرون بأبطالهم ، فانه
يحق لنا أيضاً أن نكون نخورين بجنودنا . فقد اجتازوا الرمال المحرقة ،
وتعرضوا لهبوب السموم ، وتحملوا الجوع والعطش ، وأبادوا في
طريقهم كل معترض ، وذلوا الصعاب ، وأرغموا الأنوف الشائخة ، وأذلوا
الروس المتكبرة . ولو طلبنا منهم أن يحولوا مجرى النيل الى هذه
الأصقاع فيروبيها ، أو يمدوا منه الى هذه البلاد فروعاً ، لما كان ذلك على
همتهم عسيراً !

وصاح سليمان الفرنساوى وقد أخذته نشوة الحماسة :

— لو أردت يا مولاي لقطعنا الطريق الذي قطعه الاسكندر من
قبل ، ولأتمنا العمل الذي لقي ذلك الفاتح حتفه قبل انجازه !

فقال ابراهيم :

— علينا قبل كل شيء أيها الاخوان أن ندخل دمشق الغناء ،
فهي من الوجهتين الحربية والتجارية ذات أهمية عظمى ، فضلا عن أنها
باب الكعبة وملقى القوافل . فلا بد لنا من الاستيلاء عليها قبل أن
نخطو خطوة أخرى إلى الامام

وبينما القوم يتبادلون الآراء ، ويتناقشون فيها ، ويتباحثون في مختلف
الشؤون ، ادا بكوكبة من فرسان البادية مقبلة عليهم من بطن الوادي ،
تنهب خيولها الارض نهبا ، وقد انعقد الغبار حولها مثل السحاب
وصل الفرسان أمام مضرب ابراهيم ، فترجلوا وألقوا التحية على
القائد ، ودفعوا بين يديه رجلا غريبا ، منهوك القوى ، ممزق الثياب ،
شاحب اللون

سأل ابراهيم :

— من هذا ؟

فأجاب زعيم الفرسان :

— جندي من الاعداء ، عثرنا عليه ضالا في القفار ، على أثر انهزام
فرسانهم أمامنا ، فجئنا به اليك أسيرا ، عملا بما أمرتنا به من المحافظة
على حياة الاسرى

فابتسم ابراهيم وقال :

— أحسنتم !

ثم التفت الى الرجل . وبعد أن حدق فيه البصر قال :
— يحيل الي أنك لست من أبناء عمنا الارك . فمن تكون أيها الغريب ؟
رفع الاسير رأسه ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة مبعثها الكتابة

والاسى ، وقال بصوت ضعيف :

— أنا فرنسي أيها القائد !

فاقترب سليمان الفرنساوي ، وتقدم الطبيب غلياردو - وهو فرنسي
أيضاً - ونظرا إلى الأسير بدهشة مزوجة بكثير من العطف

ألا يقول المثل : «الدم يحن ؟»

سأله سليمان :

— ما اسمك أيها السيد ؟

— جيرار دي بوك

فردد سليمان وغلياردو معا هذا الاسم :

— جيرار دي بوك ؟

وساد الصمت في المجلس . وتبادل القائد والطبيب الفرنسيان نظرات

الاستفهام .

فلترك الأسير يأخذ بعض الراحة في ضيافة ابراهيم ورجاله . ولنعد
قليلًا إلى الورا ، ونقلب صحائف حياته ، إذ أن لأسرة ذلك الضابط
الفرنسي قصة أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقائق

٢٥ مارس - آذار - سنة ١٨١٦

وصلت إلى الآستانة قافلة من التجار الفرنسيين ، ونزلت في
« خان » على مقربة من القرن الذهبي ، واسرع رئيس الجماعة إلى قصر
السلطان محمود الثاني ، وطلب من رئيس الديوان إذنا بالمشول بين يدي
صاحب العرش ، قائلا إنه يحمل إليه كتاب توصية من الملك لويس الثامن
عشر ، ملك فرنسا في ذلك العهد

واستقبل السلطان رئيس التجار الفرنسيين ، وشمل الجماعة بعطفه ،
وأمر بان تمهد لهم سبل الطواف في البلاد ، وقضاء الاعمال التي جاءوا
من أجلها ، وطلب إلى رئيسهم أن يطلعه على أسماء رفاقه
فكتب الرجل الاسماء في ورقة . وعندما التقى السلطان نظره عليها ،

بدأت على وجهه دلائل الاهتمام ، وقال لمحدثه :

— إذا كنتم في حاجة إلى شيء أيها الغريب ، فأبواب القصر مفتوحة

أمامكم في كل ساعة

وفي اليوم التالي ، وصل عثمان آغا ، رئيس حجاب السلطان ، إلى الخان

الذي كان التجار نازلين فيه ، وطلب مقابلة أحدهم وهو يدعى « جيران

دي بوك »

أسرع صاحب الخان إلى التجار ، وأبلغهم رغبة رئيس الحجاب .

فتقدم شاب في العقد الثالث من عمره ، طويل القامة ، بهي الطلعة ،

وأجاب :

— أنا جيران دي بوك ا

نخاطبه عثمان آغا بلمهجة الأمر قائلاً :

— اتبعني ا

— إلى أين ؟

— إلى السراي

وبعد نصف ساعة ، كان الشاب مائلاً في حضرة « السلطانة والدة »

وقف الشاب حائراً ، يسائل نفسه ما الداعي إلى المجيء به إلى ذلك

المكان

أمكن السلطانة بددت مخاوفه ، وأعدت إلى نفسه الاطمئنان بانقسامه

لطيفة هادئة

هي امرأة في نهاية العقد الثالث من عمرها ، بارعة الجمال ، فاتنة

ساحرة

دعت الشاب إلى الجلوس وقالت :

— لا تخف . ما جئت بك إلى هنا لكي ألحق بك أذى

قالت ذلك ، ونظرت إليه نظرة ملؤها العطف والحنان . فاقترب

الشاب ، وتناول يداً مدت اليه ، وطبع عليها قبلة احترام واجلال
ثم أشارت السلطانة الى عثمان آغا بالانصراف ، فخلا لها ولانغريب
المكان

— ابن من أنت ؟

— أنا يتيم الابوين يا صاحبة الجلالة . تبناني فرنسوا دى بوك دى
ريفري ، وسمح لى بان أحمل اسمه . فعرفت منذ ذلك الوقت باسم «جيرار
دى بوك»

— وما جاء بك الى هنا ؟

تردد الشاب لحظة ، فقالت له :

— لا يدهشك سؤالي . قص على قصتك . وسوف أطلعك بعد
ذلك على أمر تجهله ، فتعلم ان المرأة التي تخاطبك الآن ليست غريبة عنك
بقدر ما تظن

فقال الشاب :

— ولدت في جزيرة مارتينيك ، الواقعة في البحر الامريكى ، والخاضعة
للحكم الفرنسي ، من أبوين فرنسيين . لكنني قضيت حياتي في باريس
حيث تلقيت العلوم الحربية ، فأنخرطت في سلك الجيش البحري ، ونلت
رتبة ملازم . ولكنني تركت الجيش بعد وفاة فرنسوا دى بوك ، وانصرفت
الى التجارة . وأنا قادم الآن الى هذه البلاد لا ابتغاء كمية من الاسلحة
الشرقية ، والاتجار بها في فرنسا

ثم سكت الشاب لحظة وقال :

— ولكن ، اية أهمية لهذه التفاصيل في نظرك يا صاحبة الجلالة ؟

— أهمية كبيرة

— لا أفهم

— سوف تفهم

— خيل للشاب أن « السلطانة والدة » سوف تطلعه على أمر رهيّب . فشخص إليها لاهثاً ، وتمتم قائلاً :

— لقد وعدتني . . .

فقاطعته السلطانة وقالت بصوت عذب :

— انك تنتظر مني أن أفضي اليك بما وعدتك به . فاصغ الي اذن : ان المرأة التي تخاطبك لم تر النور تحت سماء هذه البلاد ، ولا يجرى في عروقها دم تركي . بل هي فرنسية مثلك ، ولدت في جزيرة مارتينيك موطنك ، وهي تنتمي الى الدوحة التي شاء فرنسوا دي بوك أن تصبح غصناً من أغصانها

— الى أسرة دي بوك ؟

— أنا « ايميه دي بوك »

فانتفض الشاب وقال دهشاً :

— الرواية اذن صادقة ؟

— أجل . الرواية التي تناقلتها الالسنة صادقة لازيادة فيها ولا نقصان .

فاستمعها من جديد ، واحملها معك الى أهلك وذويك وأبناء قومك

— تكلمي ، ومزقي الحجاب عن ذلك السر ، الذي طالما ألقنا

وشغل بالنا وافكارنا

— عندما هاجم القرصان السفينة التي كانت تطلق من فرنسا الى

جزيرة مارتينيك ، مع خادمي الزنجي ، لم يتمكن أحد من كانوا في السفينة

من النجاة . فقد وقعنا جميعاً في قبضة القرصان ، الذين ساقونا مكبلين

بالحديد الى مدينة « الجزائر » . وهناك أخذني أحد تجار الرقيق ،

وقدمني هدية الى سيد المدينة ، بابا محمد ، وكان يناهز في ذلك

الوقت الثمانين من عمره ، وكنت أنا في الرابعة عشرة فقط

— وبعد ؟

— ضمنى بابا محمد الى فريق من النساء كان عازما على ارسالهن الى
عاصمة السلطنة العثمانية . وفي ذات يوم ، أقلت بنا سفينة كبيرة . وما
مضت علي أسابيع حتى وجدت نفسي في هذا القصر ، قصر السلاطين ،
وقيل لي إن بابا محمد قد اهدانى إلى سيده ومولاه السلطان سليم
الثالث

— وبعد ؟

— مكثت بضعة أيام في دائرة الحريم . ثم أرسل السلطان في طلبي ،
ولما مثلت بين يديه خاطبني قائلاً : ولقد دخلت هذا القصر يا ابنتي ،
وأود الآن ألا تخرجي منه . لن أحتفظ بك قوة وقسراً ، بل أريد
أن تقيى فيه عن رضى وقبول ، وأن تصبحي سيدة النساء والجوارى ،
وزهرة الحريم السلطاني العطرة . أريدك زوجة لاجارية ، وحررة لأمة .
فاذهبي الآن وفكري ، ونامي حتى تصبحي . وإذا ما راق لك ما أعرضه
عليك الآن ، فاغتسلي غداً ، وتطهري ، والبسي أفخر ما في القصر من
ثياب وتعالى !

— وبعد ؟

— فعلت في اليوم التالي ما طلبه مني السلطان ، وذهبت اليه !
تنهدت السلطانة ، ومسحت دموعه طفرت من عينيها ، واستطردت قائلة :
— وأصبحت منذ ذلك اليوم زوجة السلطان المحبوبة ، وأقرب نساءه
الى قلبه . وقد بقيت في كنفه الى اليوم الذي سقط فيه قتيلاً بدسيسة
من السلطان مصطفى الرابع ، الذي خلفه على العرش . ولكنه لم يجلس
عليه اكثر من سنة واحدة . فحل محله في سنة ١٨٠٩ السلطان محمود
الثاني ، ابن السلطان عبد الحميد الاول
— وهو الجالس على العرش الآن ؟

— نعم . ومحمود يحبني ويحترمني . وهو الذي أطلق على اسم «والدة

سلطان، أو «السلطانة والدة» لاني سهرت على طفولته، وأخذت يده وهو صغير يخطو في العالم خطواته الأولى

— إذن ، ليس السلطان محمود ابنك كما يقولون ؟

— كلا . فقد ولد السلطان محمود في عام ١٧٨٥ - أي قبل وقوعي

في أسر القرصان بخمسة أعوام . ولم اكن في يوم من الايام زوجة لأبيه عبد الحميد الأول ، الذي مات قبل مجيئي إلى الاستانة بسنة ، أي في عام ١٧٨٩ . ولكن السلطان محمود الثاني يحبني كأمه ، ويدعوني أيضاً «الوالدة» وهو يأخذ بنصائحي ، ولا يقدم على عمل إلا بعد أن أبدو له فيه رأيي . وهو يحب وطنك لانه وطني ، ويجيد لغة قومك لأنها لغة المرأة التي بعدها أمه

— ألا تحنين الى أرض ذلك الوطن ؟

— أحزن اليها . وهل ينسى الانسان وطنه ؟ لكن الأندار شاءت أن

تقصيني عن تلك البلاد المحبوبة . انى أشبه شىء بشجرة انتزعت من منبتها ، ونقلت الى ديار الغربة ، حيث زرعت تحت سماء غير سماها ، وفي تربة غير تربتها ، فغرست أصولها في بطن الارض ، ونما جذعها ، فكبرت ، وأينمت ، وطرحت ثماراً ، وقضى عليها أن تجف وتموت في منبتها الثاني ! عد اذن الى فرنسا ، وأعد على مسامع من بقي من أسرتنا ما سمعته مني الآن . قل لهم إن امي دي بوك سعيدة في مهجرها .

قل لهم إنها هنا تقيم ، وإنها ستظل في هذا القصر بجانب «ولدها» حتى يوافقها أجلها . والآن اذهب ، أسرع ، فهذا كل ما كنت أرغب في الافضاء به اليك . لقد هاجت في الشجون ، ولا أريد أن أدع للضعف سبيلاً الى !

— دعيني اذن أقبل هذه اليد المدمرة أخرى ، كما لو كنت أقبل يد أمي !

وسوف أوافقك من هناك بإخبار الأسرة

— لا... إياك أن تفعل هذا ! لقد دفنت نفسي في هذا القبر المذهب ،

وقطعت مع الخارج كل علاقة . إنني سعيدة هنا ، سعيدة إلى حد لا

أنتطلع معه إلى ما هو فوق سعادتني . ولربما حملت إلي رسائلك ورسائل
ذويك ما يحيي في ذكريات الماضي ، وينعص علي عيشي ، ويحملني على
ندامة لا أريدها . إذهب يا بني . أرجو لك ولمن بقي من أهلي في
فرنسا ، هناء كالذي أتمتع به الآن هنا !

فاكب الشاب على يدي قريبتة يقبلهما ، مدفوعاً بعامل النسب نحو
امرأة يجري في عروقها وعروقه دم واحد

تلك هي قصة ايميه دي بوك « السلطانة والدة » ، كما كانوا يسمونها،
والتي تنبأت لها عرافة في صباها بأنها ستضع على جبينها تاج الملك ،
فتحققت النبوءة

عاد جيرار دي بوك الى وطنه ، وأطلع أسرته على السر العظيم ، فهاج
القوم وماجوا ، وحاولوا أن يعيدوا بينهم وبين السلطانة « التركية »
علاقات أبت هي الا قطعها ، فذهبت جهودهم أدراج الرياح . ولما
أعييتهم الحيل ، ركب البعض منهم متن البحار ، وسافروا الى الآستانة
العملية ، وطلبوا الثول بين يدي تلك التي تحمل اسمهم ، والتي رفعتها
الأقدار الى عل

لكنهم فشلوا على ضفاف البوسفور ، كما فشلوا على ضفاف السين .
ولم تفتح أمامهم أبواب أرادت السلطانة أن تظل موصدة

فعادوا الى وطنهم خائبين ، ولم يعيدوا الكرة من جديد ، وأسدل
الستار دون أن يعلم أحد ماذا حدث وراءه

أرادت السلطانة التي كان السلطان محمود يدعوها « يا أمي » أن
ينجم النسيان على بقية أيامها ، فكان لها ما أرادت

وماتت ايميه دي بوك دي ريفري « السلطانة والدة » زوجة
السلطان سليم الثالث ، في سنة ١٨١٧ في الحادية والاربعين من العمر

أما جيرار دي بوك ، فقد دفعه ذلك السر الذي مزق عنه
الحجاب ، الى العودة الى الاستانة ، حيث دخل في خدمة السلطان ، متطوعاً
في جيشه ، محارباً في صفوف الاتراك . فشاءت الظروف والاحوال أن
يقع أسيراً في أيدي المصريين في سنة ١٨٣٢

ولما عرض عليه سليمان الفرنساوي والطبيب غلياردو أن ينضم اليهما
ويلتحق بالجيش المصري ، أجاب الشاب بأنفة وابهاء :

— لن أحارب الاتراك بعد الآن ، ولن أتواطأ مع أعدائهم ، بعد
أن علمت أن دم أسرتي قد سرى في عروق سلاطينهم !

وأمر ابراهيم باشا بإطلاق سراح الأسير ، وطلب من سليمان
الفرنساوي أن يعيد الرجل الى وطنه في إحدى السفن الفرنسية

obeykandl.com

الرفض بالنار

عقد أبناء الشيخ « فهد النعسان » مجلساً في كهف مظلم منعزل ،
في ذلك الوادي الموحش ، الموصل الى « العقبة » ووقف فيهم كبيرهم
خطيباً فقال :

— لن يقال يا أبناء الاب إننا نمانا على ضمير ، وإننا لم نثار للدم المسفوك !
لقد شنت المصريون شمال رجالنا ، وطاردوا في القفار فلول قبيلتنا ،
ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا الى أبعد منه ، فنكل جلادوهم بالأسرى من
أخواننا ، ولم ينعم قائدهم ابراهيم بالا إلا بعد أن ضرب بيده عنق والدنا
المسكين . ودماء ذلك الشهيد تطلب الثأر والانتقام . فهل انتم عن الواجب
مجمعون ؟

فصاحوا جميعاً بصوت واحد ، خرج من أعماق تلك الصدور كهدير
الامواج ، وردده الصدى في جوانب الكهف الكالحة : « كلا »
وصاح الاخ الأكبر :

— أقسموا إذن ألا تذوقوا راحة ، وألا يغمض لكم جفن ، وألا
تشاركوا الناس في الأفراح والاعياد ، ما لم يتم لكم الانتقام ، فترفعوا بين
الرموس الشاغرة رؤوسكم ، دون أن يكون وراءكم شرف مثلوم أو دم
مطلول !

فأجابوا جميعاً بنفس ذلك الصوت العميق المتهدج : « نعم ! »

ثم انتزع كل منهم عقاله ، ودفنه أمامه في التراب ، عملاً بالتقاليد البدوية والعادة المتبعة ، عند ما يعزم العربان على طلب الثأر لاهانة لحقت بهم أو قتل سفك دمه

وبسط أبناء فهد النعسان ايديهم ، وعقدوا الحناصر على قتل القاتل العين بالعين والسن بالسن !
ثم نهضوا من مجالسهم وقال كبيرهم :

— سنرى الآن على من تقع القرعة قبل أن نمضي في سبيلنا . ولما كانت الاناث فينا للذكور في النسب اخوات ، وفي السراء والضراء شريكات ، وفي معامع الوغى رفيقات باسلات ، فانتا لن نحرمهن شرف العمل معنا في هذا السبيل . سنقترع على من هنا جميعاً ، الرجال والنساء ، أن يباشر الثأر والانتقام !

واقترع الاخوان ، ورددوا قسمهم ، وتفرقوا في ذلك الوادي قاصدين الى الديار العامرة

٩ يونيو - حزيران - سنة ١٨٣٢

زحف ابراهيم باشا على دمشق ، على رأس جيش مؤلف من ثمانية عشر الف مقاتل ، بينهم تسعة آلاف من الجنود النظاميين ، وتسعة آلاف من البدو والفرسان الدروز ، ووراء ذلك الجيش ، الجمال تحمل الارزاق ، والبغال تجر من المدافع اربعة وعشرين

كان ابراهيم قد اوفد رسله الى عاصمة الامويين ، يطلب من واليها وعلو باشا ، التركي ، أن يسلم اليه المدينة بلا قتال ، ويدعو سكانها الى الطاعة والاقلاع عن التمرد والعصيان . لكنهم رفضوا الازعان والخضوع ، وقاموا بمظاهرات هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية ، هتف فيها الناس للانراك ، واهانوا رسل ابراهيم ، وحمّلوا على الاعناق ممثل السلطان ونائبه في حكم البلاد

فقرر ابراهيم مهاجمة المدينة، وعزم على الاستيلاء عليها
شخص اليها بذلك الجيش القوي . وعند ما أشرف عليها عقد
كعادته مجلساً حريباً من كبار القواد والانصار . وكان حليفه الامير
بشير الشهابي قد وافته الى ضواحي المدينة مع قوة كبيرة من رجاله
الاشداء

وفي الخامس عشر من شهر يونيه - حزيران - ١٨٣٢ أصدر القائد
العام اوامره بالاستعداد للهجوم على المدينة في صبيحة اليوم التالي
لكن خصمه لم يدعه ينفذ الخطة التي رسمها، بل بدأ الهجوم قبل ان
يحرك المصريون ساكننا ، فخرج « علو باشا » من المدينة مع رجاله ،
لقتال ابراهيم وردة على اعقابه

ودارت رحى المعركة في جهات عديدة، ولكنها لم تستغرق غير ساعات
معدودات . فانهزم القوم امام الجيش المدرب وانصاره البواسل ، وفر
علو باشا مع رجال حرسه الى « حمص » تاركاً وراءه عاصمة ولايته
غنيمة للفاتحين

دخل ابراهيم دمشق الغناء في السادس عشر من يونيه . وضرب
مضاربه في « الفايون » بينما كان حلفاؤه اللبنانيون يعسكرون في « المرجة »
وأوصى القائد جنوده بأن يسلكوا في المدينة سلوكاً حسناً
لا تشوبه شائبة . فكانوا لوصية قائدهم طائعين ، ولم يعتدوا على الارواح
والاموال ، بل كانوا يبتاعون بتقودهم ما يحتاجون اليه من طعام وشراب .
فاكتسبوا عطف السكان ، الذين لم ينزل بين ظهرانيهم من قبل جيش
يراعي جنوده مثل ذلك النظام ، ويدافع عن الضعيف بدل ان يهضمه
حقه ، ويحترم النساء بدل ان يعتدي على اعراضهن

وفي مساء اليوم الذي دخل فيه الجيش الفاتح عاصمة الامويين ،
توافد الزعماء على مضرب الامير، فذبحت الذبائح ، وأقيمت الافراح ابتهاجاً

بالنصر ، وطلب ابراهيم باشا الى ضيوفه إبداء رأيهم في الحالة التي وصلت اليها الحرب ، وفي الخطة المثلى التي يحسن اتباعها للوصول الى الغاية المنشودة

وبعد المباحثة ، قرأ رأي على أن يسير الجيش النظامي على السواحل ، وأن ينتشر الزعماء الجليليون برجالهم في الداخلية ، لصد الغارات التي يخشى أن تقوم بها القبائل العربية المعادية

واتفقوا جميعاً على أن يتحرك الجيش بعد أن يأخذ الرجال نصيباً وافراً من الراحة ، وتوضع أنظمة الادارة على أسس جديدة

وفي الليل ، أقيم مهرجان عظيم ، تبارى فيه القوم في ضروب الفروسية والشجاعة ، وعم الفرح المعسكر ، واندمت السنة النيران على قمم الجبال وبيننا ابراهيم باشا يجالس حلفاءه ويتجاذب معهم أطراف الحديث ،

دخل عليه حارس ، وأخبره أن فارساً فتياً وصل الى المعسكر ، وهو يلح في طلب مقابله دون سواه

أمر الأمير بادخاله فدخل

هو شاب في العشرين من العمر ، جميل الطلعة ، أمرد نحيل البنية ، يرتدى ثوباً عربياً فاخراً ، ويتقلد سيفاً مرصعاً بالجواهر

حنى الشاب رأسه ، ووضع يده على صدره ، فرد عليه ابراهيم الترحية وسأله :

— من أنت وما تريد أيها الاخ ؟

فأجابه الشاب :

— لا تسل عن اسمي أيها الامير ، فلن أبوح به الآن . جئتك طالباً الانضمام الى جيشك والسير بجانبك ، لا حباً بك وبقومك ، بل سعياً وراء انتقام أشده ، وثار أجد في طلبه . فدعني أرافقك في حملتك ، وأكن ملازماً لك . وسوف تعلم الغاية التي من أجلها جئت أتمس منك ذلك

فقطب الامير جبينه ناظراً إلى الفق . وبعد تفكير وجيز قال :
— أهلا بك يا أخا العرب . كن بعيتي منذ الآن

أقام الجيش الفاتح في دمشق ثمانية عشر يوماً
وصلى ابراهيم الجمعة في المسجد الجامع الاموي ، ورفع آيات الشكر
على ما أوليه من نصر مبین ، كما كان يفعل من قبل أبطال الدولة الاموية
وأقطاب المسلمين ، بعد كل فوز يعقد على ألويتهم
وفي أثناء الخطبة ، حار الخطيب في امره : أيدعو للسلطان — أمير
الؤمنين وسيد البلاد الشرعي — أم لمحمد علي باشا ، عزيز مصر الخارج
على طاعة مولاه ، المتمرد العاصي كما كان السلطان يسميه ؟
رفع الامر الى ابراهيم فقال :

— ليخطب الخطيب باسم محمود الثاني ، الجالس على عرش آل عثمان
وخليفة المسلمين . قائماً انا عبد السلطان . وليدع لأبي محمد علي باشا ،
المشرف على شؤون مصر باسم السلطان وبالنيابة عنه !
وهكذا كان !

ونظم ابراهيم ادارة المدينة ، فعين احمد بك اليوسف « متسلحاً »
عليها ، وألف « ديوان المشورة » من عشرين من الاعيان والوجهاء ،
بلا تمييز بين المذاهب والطوائف

وفي أول يولييه — تموز — ١٨٣٢ غادر المدينة متجهماً بحيشه الى
حمص . ولما وصل الى ضاحيتها ، اصدر أمره بالوقوف عن السير ،
لكي يستريح الجيش ويستعيد قواه
وكان ذلك في اليوم السابع من يولييه ، قبيل المعركة الفاصلة يوم
واحد

ظل الشاب العربي ملازماً للامير لا يفارقه ، ويتقضي الليل على باب

مضربه، بجانب الحراس ، دون أن يفهم أحد معنى لسلكه هذا
كان ابراهيم في تلك الليلة نائماً، فأيقظته حركة خفيفة
فتح عينيه ، ولكنه لم يتحرك ، فخيل اليه أن شخصاً يتقدم حذراً
في الظلام نحوه .

ظل جامداً في مرقده، فوصل الشبح اليه ، ورفع ذراعه ، فأخذت
عين الامير وميض نصل يلعب في الظلام

وثب ابراهيم على الرجل ، وقبض على ذراعه بيد من حديد ،
فالتوت الذراع ، وسقط الخنجر على الارض ، وأرسل الغريب صرخة
أم خفيفة ، وخر ساجداً على ركبة الامير وقال :
--- انك تقبض أيها الفائذ على ذراع امرأة !
--- امرأة !

--- نعم . فتاة بدوية ، أفلت منها الانتقام بعد أن كادت تقضى ليلاتها !
عرف ابراهيم صوت الشاب العربي ، فحار في أمره
--- كيف دخلت والحراس بالباب ؟

--- قتلتهم جميعاً .. الحراس الثلاثة .. وكان بودى أن الحقل بهم ،
وأغسل بدمك العار الذي ألصقته بي وبقومي !
--- ومن أنت !

--- نعامة ، ابنة الشيخ فهد النعسان ، الذي قتلته بيدك في صحراء
سبأ ، يوم غزت قبيلته فارتدت خاسرة ، وتمقبها رجالك فقبضوا على
أبي وساقوه اليك أسيراً ذليلاً . لقد بادرت بلطمة على خده ، فمد يده
يريد صفحك ، لسكنك جردت سيفك وضربت عنقه على مرأى من
قوادك وجنودك

فعلت ذلك عقاباً له ولا مثاله ، بمن تحدثهم نفوسهم بالوقوف عقبه

في سبيلي

— لكنك أهنت القبيلة ، والاهانة في عرفنا لا يغسلها غير الدم ،
ولا تمحوها الا اهانة مثلها !

— وجئت أنت للقيام بهذا العمل الشاق ؟

— أرسلتني القبيلة للانتقام منك . لقد خانتني عيني ! لكن غيري
سينجح حيث أخفقت أنا !

سكت الامير ونظر الى الفتاة نظرة إعجاب وإجلال . ثم نادى
قواده وقص عليهم ماجرى وقال :

— إني أعفوا عن هذه الفتاة اعترافا منى بشجاعتها !

ثم التفت اليها قائلا :

— اذهبي يا نعامه فأنت حرة . وأبلغني قومك خبر ما حدث :
قولي لهم إن ابراهيم يقابل الاساءة بالاساءة . لكنه يعرف كيف يعفو
عند اللزوم وعند ما يكون خصمه أضعف منه

فنظرت اليه الفتاة ، واغرورت عينها بالدموع ، وقالت :

— أقبل عفوك بالامتنان أيها الامير . وأقسم أن لا أسئء اليك
بعد الآن ، لاني مدينة لك بالحياة . لكنني أحذرك من أبناء عشيرتي .
فقد اندس البعض منهم بين رجالك لمراقبتي ، وللبادرتك بالطعنة القاضية
اذا فشلت أنا في مهمتي !

دسمبر - كانون الاول - سنة ١٨٣٢

مضت الايام وتلتها الاسابيع ...

وصل الجيش الغازي الى قونية ، حيث التقى بجيش الاتراك ، فكانت
موقعة هائلة اندحرت فيها الفيالق التركية ، وانهزمت شر هزيمة ،
وأمتت الاستانة في خطر دام !

فسكر ابراهيم بنشوة النصر ، وأصدر أمره بالسير الى البوسفور
توغل الجيش في سهول الاناضول وجباله ، ووصل ابراهيم الى قرية
السلمانية ، فأصيب بحمى شديدة ، اضطرتة الى ملازمة الفراش . فطلبت
نعامة أن يسمح لها بالاقامة على باب منزله مع الحراس ، فاجبت الى
طلبها

شفي الامير بعد أسبوع ، فأقام الجيش مهرجاناً عظيماً احتفاءً بذلك .
واحتشدت جموع العربان المتطوعين في الجيش ، وكلهم يمتطون جيادهم
المظهمة ، وجمعوا يعدون أمام الامير ، ويعبون بالسيوف والرماح ،
وينشدون الاناشيد والاهازيج
ثم خرج من صفوفهم فارس مقنع ، واطلق لجواده العنان ، ووجهته
ابراهيم وحاشيته

وتبعه فارس آخر شاهراً سيفه وهو يصيح :
— لن تفعل ذلك ما دمت أنا حية !
عرف الامير نعامة فارتاب في الامر
ولسار إلى حاشيته بالتصدي للفارس الاول
لسكن نعامة أدركته قبل أن يصل اليه رجال ابراهيم
أمسكت بعباءته ، فكبا به جواده وسقط على الارض ، وسقطت
فوقه نعامة

أسرع رجال الحرس اليهما ، فأدرك الفارس الخطر ، واستل خنجره
وأغمدته في صدر الفتاة
ثم نهض صائحاً :

— هذا جزاء من خان العهد وحث باليمين !
قبض على الرجل ، وأسلمت نعامة الروح قتيلة :

— وهبني ابراهيم الحياة فأعدت اليه الهبة ا

ولما استجوب الفارس العربي أجاب :

— هي أختي ! وقد قتلها لانها لم تبر بالقسم ولم تنتقم لوالدها .!

لقد عهدنا اليها بقتل ابراهيم فلم تفعل . وجئت أنا للقيام بما عجز دونه
جبنها ، فمنعتني . . لم أتمكن من غسل غار القبيلة بدم الامير ، فغسلته بدم

الخائنة ا

فأمر ابراهيم باطلاق سراحه ا

obeykandl.com

قبر العاتقين

دعا ابراهيم باشا قائد مدفعيته وفرسانه سليمان باشا الفرنساوي ،
في اليوم الاول من صفر ١٢٤٨ (٣٠ يونيو - حزيران - سنة
١٨٣٢) وقال :

— سنغادر دمشق غداً يا صاحبي ، زاحفين على حمص . وسندخلها
باذن الله فاتحين بعد ثمانية أيام . لقد وافقت على رأيك ، وقررت ابقاء
حامية مؤلفة من ثلاثة آلاف ومائتي رجل من الجند النظامي في هذه
المدينة ، خوفاً من انتفاض أهلها علينا ، لأنني لم آمن بعد عداؤهم ولم أثق
من خضوعهم . وقد أردت أيضاً أن أحاط بالغد ، فجمعت كما تعلم خمسة
وسبعين من اعيانهم ، وألقا من اتباع أولئك الاعيان ، وامرتهم بالسير مع
الجيش الزاحف الى الشمال ، كما انني رغبت الى حليفنا الامير بشير ان
يقوم معنا ايضاً هو وابنه وجميع انصاره ، على ان يترك وراءه قوة كافية
لاغاثة حامية دمشق اذا اقتضت الحال
فقال سليمان :

— احسنت صنعاً يا مولاي . وقد اعددت ومن جهتي للرحيل
عدته . وسوف ترى من أعمال الفرسان ورجال المدفعية في المعارك المقبلة
ما يرضيك ويسرك

صافح ابراهيم يد القائد المحنك ، وكرر له اعجابه به ، وارتباجه الى

آرائه وخططه العسكرية . ثم حول الحديث الى موضوع آخر فقال :

— جاءني اليوم رسول من لدن افندينا ، حاملا الي امر والدى

المطاع بأن أسمح لعبد الله السيوطي بالعودة الى مصر

— لكنه جريح

— نعم . وكنا عازمين على تركه في دمشق ، حتى يمن الله عليه
بالشفاء التام . اما وقد رأى افندينا ان عودته الى القاهرة خير واوفى ،

فاننى اخضع لرغبته واطلب اليك تنفيذها

— سمعا وطاعة !

كان عبد الله السيوطي من رجال الحرس المخلصين ، الذين وضع
محمد علي باشا فيهم ثقته ، واثمنهم على حياته ، وعهد اليهم بالسهر على
شخصه والسير بجانب مركبته

لكن الشاب كان يتوق الى الضرب والطمع ، ويحلم بوقائع حربية
يغوض غمارها ، ومعاقل حصينة يتساق اسوارها ، ومدن مكتسحة
يطوف شوارعها وأزقتها على متن جواده ، بين هتاف النصر واناشيد
الفرح

فطلب الشاب من مولاه السماح له بالسير مع الجيش الزاحف على
أرض الشام . فاجابه محمد علي باشا الى طلبه ، وأوصى به ابنه ابراهيم
خيلاً . فالتحق عبد الله السيوطي بفرقة الفرسان ، واطهر من ضروب
الشجاعة والاقدام ماجعل الالسنه تلهج بذكره والثناء عليه

— وكانت أخته جارية من جوارى القصر . فبلغتها اخباره الطيبة ،
وأفضى اليها مولاها محمد علي باشا بمحدث الرواة عن اعمال اخيها ،
فامتلا قلبها فرحاً ، وابتقت ان سلوك عبد الله المشكور يزيد لها حظوة
في عيني سيدها وولي نعمتها

لكن الشاب كان يهزأ بالاحطار ، ويسابق الشجعان إلى مواطن

الموت غير حاسب لشيء حساباً ، وقد أسكره النصر المستمر ، وزاده
جرأةً وتهوراً ، فاصيب في الهجوم على عكاه بجرح بليغ ، أقعده عن العمل
شهرًا كاملاً

لكنه انتقل مع الجيش إلى دمشق ، ووطد العزم على البقاء فيها إلى
أن يتم له الشفاء

وهناك أبلغه رئيسه سليمان باشا الفرنساوي أمر الفائد العام ، بالعودة
إلى مصر عملاً بمشيئة محمد طي باشا

فاضطر عبد الله إلى الاذعان مرغماً ، وغادر دمشق ومعه اثنان من
الفرسان الدروز ، عهد اليهم بشير الشهابي بمرافقة الجريح المصري إلى
درعا ، ثم إلى القدس فعكاه ، حيث يبحر إلى الاسكندرية على ظهر سفينة من
سفن الحرب ، التي كانت تروح وتجيء بين السواحل المصرية والسورية

وصل الرفاق الثلاثة الى واحة صغيرة ، على مقربة من سفح جبل
الشيخ ، فترجلوا وسرحوا خيولهم للراحة

كانت الشمس قد قربت من الغيب ، فعزموا على قضاء الليلة في ذلك
المكان ، حيث كانت مياه ينبوع تنساب بين الحصى ، وقد نبتت
الاعشاب بكثرة حولها ، وأرخت الصفصاف الباكي شعوره عليها

أوقد المسافرون ناراً ، وأخذوا مجالسهم ، وجعلوا يستعيدون
ذكرى المعارك والمواقع

وسأل عبد الله رفيقه حفاة :

— ترى ، هل وضع هذان الحجران ، المنتصبان هناك الواحد تجاه
الآخر ، عمداً وييد انسان ، أم أن الطبيعة هي التي شامت أن تلهو
وتمزح ، فأقامت هذين العمودين المتشابهين قياساً وشكلاً ؟

قال الشاب هذا ، وأشار الى ذينك الحجرين القائمين على بعد
خطوات من ينبوع

فأجاب رفيقاه :

— حقاً إنك تجهل أننا الآن في « واحة اللؤلؤ » وأنا سنقضي

ليلتنا بجانب « قبر العاشقين ! »

كان الجندي المصري يجهل ذلك . فسأل مستغهماً :

— قبر العاشقين ؟

— نعم . ولهذا القبر الذي تعرف به الواحة الآن قصة يتناقلها الرواة .

وسوف تظل الاحقاب تتناقلها الى ماشاء الله

فطلب الشاب من رفيقيه أن يقصا عليه حكاية ذلك القبر الهادي .

الذي يضم رفات العاشقين ، والذي نحنو عليه الطبيعة كالأم المرضع ،

وتتساقط على حجريه قطرات الندى ، كأنما الليالي تنتزع من مقلة السماء

دموعاً على قبر العاشقين

وبينما البدر يتجلى في كبد الفضاء ، ونسيم الصحراء يداعب الافئان

والاعشاب ، جعل أحد الرفيقين يقص على الشاب المتلهف قصة « عامر

وهيفاء . »

كان للشيخ « ناصر بن علي » ابنة جميلة تدعى « هيفاء » وكانت

الفتاة حقاً غادة هيفاء ، يفوق حسنها وجمالها كل وصف ، ويفاخر بها والدها

أمام رؤساء العشائر والقبائل ، الذين كانوا يتوافدون على مضرته ، طالبين

الزواج بابنته التي أطلقوا عليها اسم « حسناء البادية »

لكن ناصرًا كان يأبى إلا أن تختار ابنته الزوج الذي تريده .

وكانت هي تعرض عن طلابها الواحد بعد الآخر ، ولا يعلم أحد سبب

رفضها وتعنتها ، الى أن كشفت الايام سرها وفضحت أمرها

خرج ناصر يوماً الى الصيد وحده . وما كاد يبتعد عن الحي ، حتى

أبصر شخصين مخبئين وراء تل من الرمل . فارتاب في أمرها ، واتجه

نحوها حذراً ، وتربص على مقربة منهما منصتا ، وسمع حديثهما
قال أحدهما :

— ما العمل اذن ؟

فأجابه الآخر بصوت رقيق شجي حنون استدل منه ناصر أن
المتكلم امرأة :

— لم يبق أمامنا غير الهرب !

وتلا ذلك سكوت قصير . ثم زفرة يصعدها صدر مكلوم . ثم
سكوت آخر

ظل ناصر رابطاً في مكمنه ، الى أن قال الرجل :

— لنهرب اذن . وافنى في منتصف الليل الى دواحة اللؤلؤ، حيث
اكون في انتظارك . فتمتطي الهجين ونقطع الصحراء الى الحجاز ليلا
سكتت الفتاة ، ثم أجابته حزينه كئيبة :

— وأبى... كيف أتركه... ماتت أمي وأنا صغيرة ، فأبى اتخاذ
امرأة اخرى حباي . فأنا سلوته الوحيدة، وموضع حبه ، وبهجة حياته
فانتفض ناصر، وقد عرف صوت ابنته هيفاء، وم بالانقراض عليها
لكنه تمالك نفسه ، وأراد أن يعرف الحقيقة كلها ، ويعلم ذلك
السر الذي تكتمه عنه ابنته . فجعل ينصت من جديد

قالت الفتاة :

— لا يا عامر. لن أقدم على عمل كهذا، ولن أسبب لأبى كدرًا، حتى
ولو كان ذلك في سبيل من أحب . ان اصلك الوضيع يحول دون
زواجنا . فلترض بما قسم لنا . عد الى حراسة المواشي . وسأعود أنا الى
مضرب أبي . يجب أن ينسى كل منا الآخر !

— ننسى... كيف السبيل إلى ذلك وقد أضرمت نار الحب
في احشائي فكادت تحرقني . لن انساك يا هيفاء ما دمت حيا . واعلمى

اننى سأنتحر يوم يتخذ لك ابوك بعلا سواى

— كلا يا عامر . لن تنتحر . ستعود الى صوابك . . .

— بل انتحر . . . انتحر . . .

قل هذا ونهض غاضبا وابعد عنها ، وتوغل في الصحراء حتى غاب
عن الانظار . فالتت هيفاء بنمساها على الارض وبكت بكاء مرأ
تركها ناصر على هذه الحال ، وعاد الى الحي ، وقد ذهبت به مخيلته
كل مذهب ، فخاف عاقبة ما حدث ، وأخذ يفكر في اختيار زوج لابنته
دون أن يستشيرها

أما عامر حارس المواشي ، فقد ظل يتبع الفتاة ويتربص لها في
رواحها وعجيبها ، وراء أشجار الواحة حيث كانت تصطحب فتيات الحي ،
فيمتص نظره بمرآها ، ثم يعود الى مواشيه والحزن يملا فؤاده
لكن هيفاء انقطعت فجأة عن الذهاب الى الواحة . فمضى شهر كامل
ولم يتمكن عامر من رؤيتها . وشاع في الحي ان الشيخ ناصر سيزوج
ابنته لأمر كبير من امراء البادية ، وان الفتاة ستغادر الحي ولن تعود اليه
علم عامر بذلك . فعقد النية على ان يخاطبها ، وجعل يتحين الفرص
ويبحث عن حيلة للوصول الى حبيته والاجتماع بها

لكنه فشل في محاولته . فتضاعف همه وجنح الى اليأس

اذا كانت الفتاة لم تخرج الى موارد الماء مع بنات الحي شهراً كاملاً ،
فذلك لان الاشاعة صحيحة ، ولان الأب القاسي قد عزم على تنفيذ
رغبته ، وابعاد ابنته عن ربوع القبيلة

أهل عامر مواشيه ، وهام على وجهه في الصحراء ، يناجى طيف حبيته ،
وينشد أناشيد الغرام ، ويتغنى بأشعار جميل وقيس وعنترة . ولا يقترب
من أشجار الواحة الا في الوقت الذي يعلم فيه أن النساء يخرجن لاستقاء
الماء

وفي ذات يوم، عند غروب الشمس، والغزاة تودع الواحة بخيوطها
الذهبية قبل اختفائها وراء جبل الشيخ، أحس عامر بدافع خفي يدفعه الى
الاقتراب من نبع اللؤلؤ وخيل اليه أن صوتاً خفياً يهيب به صائحاً :
— اقرب . أسرع . ان حبيبتك الحسناء بين أولئك الحسان .
فودعها الوداع الاخير لانك لن تراها بعد اليوم !

ان القلب للقلب دليل !

أسرع عامر وتربص في الطريق . فرأى النساء قادمات الى ينبوع .
وأخذت عينه بينهن هيفاء بنت ناصر ، مرعجة الاعطاف ، مائة الفد ،
تهادى دلالاته وتستقبل بصدورها نفحات النسيم
هاجت أشجان المسكين ، وشعر بقلبه ينسل من بين الضلوع
انسلا ، فصاح متهللاً موالاً بدوياء حملته تلك النفحات في طياتها ،
وأودعته أذن الحبيبة

أنشد عامر :

علامش يالبنيه ماوردتين بشهر القيظ كلو ماوردتين
عيونى لك مناهل لواردتين وصدري روض ينبت لك عشابا
وقفت الفتاة ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وتذكرت تلك الساعات
التي قضتها بجانب حبيبتها . وأحاطت بها رفيفاتها
لكنها تمكنت من كبح جماح عواطفها ، ومسحت بطرف معطفها
دموعاً خانتها فأفشت لبنات الحى سرها ، وردت على موال الحبيب بموال
آخر ، أعادته اليه نفحات النسيم ، كما حملت من قبل زفراته إلى هيفاء :
لاصدرك راض ولاعشب نبت بوه ولا شقر الدوائب دلعت بوه
روح يامسكين ربك ما تعاتبوه غزالك راح ورداته صعابا
رن صوتها في أذنه ، ووقعت كلماتها عليه وقع الصاعقة . فأدرك أن لا
أمل ولا رجاء له بعد الآن . وداخله اليأس فاستل خنجره وأغمده في
صدره صائحاً :

— لقد أقسمت أن أنتحر وها أنا أبر بقسمي !
سقط عامر يتخبط في دمه . فأسرعت هيفاء وتبعها رفيقاتها .
فوجدن الراعي المسكين جثة هامدة
اكتبت الفتاة على تلك الجثة تغسلها بدموعها ، وتقبل ذلك الجبين
الذي علاه اصفرار الموت

ثم نهضت جفاة، وبيدها الحنجر الذي اخترق صدر حبيها، وبادرت
نفسها بطعنة نجلاء، فخرت صريعة الى جانب العاشق الذي قضى شهيد وفاته
ولما بلغ الشيخ ناصر خبر تلك الفاجعة ، أسرع الى المكان ، وأمر
بنقل الجثتين، وبدفنهما جنباً الى جنب تحت أشجار الواحة، ونصب فوق
ضريحهما حجرتين ، وأمر القبيلة برفع المضارب وتقويض الخيام
وما لاح ضوء الصبح الأبلج ، حتى كان القوم عن الحي بعيدين . ولم
يعلم أحد منذ ذلك الحين الى أين قصد ناصر بن علي بعشيرته
وأطلق العربان على « واحة اللؤلؤ » اسم « قبر العاشقين »
هذا ما يقصه عليك البدوي لوجهه مستعلماً
ثم يتركك ويتعمد منشداً :

علا مش يا لبنيه ماوردتين بشهر القيظ كلو ماوردتين...

في تلك الواحة قضى عبد الله السيوطي ورفيقاه ليبتهم
لكن نور الشمس لم يدرك غير واحد منهم في صبيحة اليوم التالي.
ذلك لان جماعة من لصوص البادية فاجأتهم ليلاً ، وذبحت منهم
اثنين ، وتمكن الثالث - وهو أحد الفارسين الدرزيين - من الهرب
والعودة الى دمشق

وبعد يومين ، عاد مع كوكبة من الفرسان الى واحة اللؤلؤ ، لدفن
جثتي الجندي المصري ورفيقه بأمر من قائد الحامية

كانت الجوارح والكواسر قد التهمتتهما، فلم يجد القوم غير هيكليين
من العظام، لم يتمكنوا من معرفتهما الا بما تبقى بجانبهما من ثياب ممزقة
وتحت الصفاف الباكي، بجانب « قبر العاشقين » يرقد عبد الله
السيوطي ورفيقه الدرزي رقادها الاخير

وفي شهر مايو (ايار) سنة ١٨٤٠ زار ابراهيم باشا المصري قبر
الجندي الشجاع ، الذي عجزت دون النيل منه في ساحات القتال معدات
الهلاك ، واغتالته يد لص أثيم وهو نائم في الصحراء !

obeykandl.com

أفراع وأتراج

أرسل قائد الحملة المصرية التي سيرها ابراهيم باشا لتأديب الحوارج من قبيلة « الرولة » في طلب اليوزباشي عمدة الطهطاوى ، ولما مثل بين يديه قال له :

— رغب إلى القائد العام أن أفضى إليه بنتيجة أعمالنا العسكرية بعد أسبوعين من رحيلنا عن عكاه . وها قد انقضى الأسبوعان . وما أرسلت في طلبك يا حضرة اليوزباشي ، الا لكي أعهد إليك دون سواك بالشخص الى دمشق ، واطلاع ابراهيم باشا على ما صنعناه بالاعداء . أرجو أن تبسط له تفاصيل المواقع التي جرت بيننا وبين العربان ، وتخبره بان مشايخ البادية يتوافدون علينا الآن لتقديم الطاعة والانضمام الى صفوفنا . وأن هذا الجزء الجنوبي من بادية الشام قد أصبح خاضعاً لنا . قل له كل هذا ، وأضف عليه اننى في هذا المكان مقيم ، على مقربة من حدود الجبل الدرزي ، في انتظار أوامره للعمل بها

١٢ يونيه - حزيران - ١٨٣٢

غادر محمد الطهطاوى مضارب الحملة المصرية ، على رأس كوكبة من الفرسان ، قاصداً الى دمشق حيث كان الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا يعد العدة للهجوم ويتحضر للاستيلاء على المدينة وما كادت الكوكبة تبتعد مسيرة ساعتين عن المضارب ، وتوغل

في البادية . حتى أخذت أعين رجالها عن بعد خياك شبوح يتحرك تحت
شجرة يابسة . تبدو أغصانها العارية في وسط الرمال والحصى ، كأنها
أذرع تبتهل الى الله أن يشفق على تلك البقعة المغضوب عليها ، فيمطرها
قطرات من الماء رحمة بالمسافرين

أمر محمد الطهطاوي رجاله بان يقصدوا إلى ذلك المكان ، لكي
يتفقدوا الخبر ، ويأخذوا بعض الراحة بجانب تلك الشجرة
وصلوا إلى المكان المقصود . ويلهول مارأوا !

وقعت أنظارهم على كومة من الجثث ، وقد تجمدت حولها الدماء ،
وبينها فتاة تروح وتجيء كأن بها مسأ من الجنون ، تلطم خديها
وتنتحب وتحاول طرد الغربان الجائعة ، التي حامت حول تلك المائدة
الفاخرة من اللحوم البشرية المشوهة

هال القوم منظر تلك المذبحة البشعة . وطافوا انحاء المكان محاولين
العشور على من بقى حياً بين اولئك الاموات . فلم يجدوا غير شيخ طاعن
في السن ، أصيب بطعنة في كتفه ، ظن القتل انها قاضية ، فتركوه دون
أن يجهزوا عليه

أسعف المصريون الفتاة والشيخ ، وضمّدوا جراحهما ، وهدأوا
روعهما ، وتعهدوا بحمايتهما والاقتصاص من الائمة المعتدين

قصت الفتاة على محمد الطهطاوي خبر ما حدث ، قالت :

— اننى ادعى «زمردة» وهذا الشيخ اسمه «حمد القاسم» وهو أبى .
نحن من الشيعيين المقيمين بوادى التيم بلبنان . كنا عائدین من جبل
الدروز مع قافلة تحمل كميات من البضائع لتجار دمشقيين . ولما وصلت
القافلة إلى هذا المكان ، حطت رحالها لقضاء الليل فيه . وما غربت
الشمس وراء الجبال ، حتى فاجأنا غزاة من العربان

فقال لها الضابط المصري سائلا :

— إلى أية قبيلة ينتمى المعتدون ؟

— انهم من عرب «الرولة» الذين يعيشون في هذه الارض فساداً ويقطعون على القوافل الطرق ويسلبون وينهبون . وقد ذبحوا رجال القافلة ذبح الانعام . ولو لم اندس تحت جثة أمى هذه التي ترونها هناك ، لما بقيت حية سليمة . وبعد ما فرغوا من مهمتهم الدموية ، واحتملوا المتاجر والارزاق ، ساقوا أمامهم الحيل والابل ، وتوغلوا في الصحراء سعياً وراء غنيمة أخرى

طيب الضابط خاطر الفتاة وقال :

— سنتقم لرجال القافلة من أولئك اللصوص ا

لكنها نظرت اليه نظرة تنم عن الشك وعدم الثقة. وأجابت بصوت تتخلله الزفرات :

— كيف السبيل إلى الانتقام منهم وهم قادرون في بيدهم أن يهزأوا بكم ويجيوشكم الجرارة . فالرمال حصون منيعة ، تحميهم منكم وترد عنهم بطشكم

ثم لمع في عينيها بريق الامل وقالت :

— طي أن الانتقام ممكن من باب آخر ، والثأر يدرك من طريق غير مباشر . إن أولئك العربان الذين يسطون على الناس ويناوشون عساكرهم ، ليسوا بخيرين بل هم في أعمالهم مسيرون . ان كل فريق منهم يقوده اثنان أو اكثر من الاغوات والضباط الاتراك ، وقد كان مع أولئك الذين هاجموا قافلتنا ثلاثة من زبانية الوالي «علو باشا» . أغظتة أنا يا أبى ؟

وجهت الفتاة السؤال الى الشيخ حمد القاسم ، فأجاب بأنها مصيبة في قولها ، وأن رجال الوالي التركي هم الذين كانوا يقودون العربان في هجومهم

نهضت الفتاة حينئذ ، وبسطت ذراعها مقسمة قائلة :
— اذا كنتم أيها الضباط قاصدين الى دمشق ، فاننا نسير معكم اليها .
وهناك آخذ نصيبى من القتال ، وأثار يدي لوالدتي ولدماء هؤلاء الشهداء
فصاح محمد الطهطاوي يد الفتاة الباسلة ، وعاهدها على العمل معها
في سبيل الثأر والانتقام

١٦ يونيه - حزيران - ١٨٣٢

واقعة دمشق... خروج الوالي من المدينة برجاله... اشتباك الجيشين
في معركة حامية... انتصار المصريين وانهزام أعدائهم... فرار القائد التركي
وهو لايلوي على شيء... دخول ابراهيم عاصمة الامويين : كل ذلك لم
يتطلب من الوقت والجهود كثيراً ، بل مر بسرعة الاحلام التي يتردد
العقل في تصديقها

واشركت « زمرد بنت حمد القاسم » في تلك الموقعة ، لكنها لم
تجد فيها ما يروى ظمأها الى النار
وعندما نفخ في الابواق وصدرت الى الجيش الفاتح أوامر القائد
بالزحف نحو الشمال ، فرحت الفتاة وهللت ، وعزمت على السير مع الفرزة
الى حيث يزحفون ، وأخذ نصيبها من المعركة المقبلة كما أخذت نصيبها من
المعركة السابقة

أما أبوها الشيخ فقد انضم الى رجال الامير بشير حيث وجد بينهم
أقارب وأصدقاء . لكن الفتاة ظلت في الكتيبة التي يقودها محمد
الطهطاوي ، بأمر خاص من القائد العام ، الذي سمح لها بان تحارب مع
بقية النساء المحاربات -- وكان في ذلك الوقت كثيرات
أما الحملة المصرية التي عهد اليها بتأديب العربان ، فان ابراهيم أوفد
اليها رسولا غير الطهطاوي ، لانه كان يعده من أمهر الضباط وأشجعهم ،

ويشعر بحاجته اليه والى أمثاله في المواقع القادمة

وصل الجيش الزاحف الى النيك . و صدر الى الامير بشير أمر بالاقامة في « دير عطية » بينما ابراهيم يجد في السير الى « النصير » ويضرب مضاربه على ضفاف نهر العاصي . ثم يقصد الى « قطينة » على مسافة ثلاثة أميال من « حمص »

وكانت الجيوش العثمانية القادمة من الشمال قد وصلت الى ضواحي المدينة حيث انضمت اليها فلول المهزمين من دمشق . ووقف الفريقان وجهاً لوجه في تلك السهول التاريخية ، التي طالما تطاحت فيها الجحافل وسالت الدماء ، ورأت أطرافها الاعلام المصرية خفاقة منتصرة من عهد الفراغنة الى الايوبيين والفاطميين ومن خلفهم في وادي النيل خمسة وعشرون الفا من الجنود الاتراك ، وقفوا في ذلك السهل ، يتقدم ثمانية باشاوات رصعت صدورهم بالاوزمة والنياشين ، وتدلت على أكتافهم شارات النيل وشرائط الفضة والذهب ، ووضعت تحت تصرفهم عشرات المدافع وأكداس مكدسة من الدخيرة والمؤن . ووقفت بعيدة عنهم صفوف متراصة من فرسان البادية المواليين انتظارك لاشارة الهجوم

كان ذلك الجمع الهائل أول جيش نظامي يلاقي في الميدان جيش ابراهيم النظامي . وكان يمتاز عن سواه من جيوش العالم بما امتازت به جيوش الاتراك في ذلك العهد من سوء النظام ! ولو تعمد قائد أن يبعث في رجاله روح الياس والتقنوط ، ويخالف عن قصد قوانين الحروب ، ويرتب جيشه بحيث يضمن له الفشل والهزيمة - لما استطاع أن يفعل ذلك كما فعله أولئك الباشاوات الثمانية ، ولما تمكن من تحقيق غرضه مثلما تمكنوا . . .

رتب الباشاوات جنودهم في صفين متراصين ، وفصلوا عنهما جناح الجيش الایمن ، فوضعوه في جزيرة يحيط بها النهر وماء ترعة من جميع نواحيها . ووزعوا مدافعهم بحيث لم يجمعوا بين اثنين منها في موضع واحد . وتأهبوا للقاء عدوهم والقضاء عليه

أما ابراهيم ، فقد وافام بعشرين الف مقاتل ، ربض جناحهم الایسر على ضفة النهر ، وجناحهم الایمن شطر البادية ، وتحفرت بقية الجيش للهجوم من الوسط ، بعد ان حجبت المدفعية عن الانظار وانتشر الفرسان في أطراف الميدان لمناوأة العدو ومطاردة فلوله

٨ يوليه - تموز - ١٨٣٢

يوم تاريخي يضاف الى الايام التاريخية الكثيرة التي دونتها العساكر المصرية في سجل التاريخ بأطراف الاسنة وشفار السيوف حصدت مدافع ابراهيم قلب العدو وميسرته حصداً ذريعاً . واستنجد الباشاوات بميمنتهم فلم تستطع انجادهم . وهجم الجيش المصري كالبحر المتلاطم بالامواج ، فاستحال الميدان الى آتون متأجج ، تلمع فيه البواتر وتقطر الدماء ، وتنفذ فوهات المدافع الحُم في وسطه وجوانبه

وما أسدل الظلام ستره على ذلك الجحيم ، حتى كان الباشاوات الثمانية قد أطلقوا لحيولهم الاعنة ، طالبين النجاة بالفرار ، ووراءهم البقية الباقية من جيشهم ، ووجهتهم مدينة حلب ، المعقل الاخير من معاقل سورية وفي ٩ يوليه ، أي في صبيحة اليوم التالي ، دخل ابراهيم باشا مدينة حمص ، فلاقاه أهلها بالاناشيد والاهازيج ، ونثرت نساؤها على رؤوس الفاعين أزهار الورد والياسمين

وغنم المصريون في تلك الموقعة ألفاً وخمسمائة من الأسرى ، وجميع المؤن والدخائر التي ملاء بها الجيش التركي مخازن المدينة وثكناتها ، وواحداً وعشرين من المدافع التي لم تثبت في المعركة وجودها

والتهمت الطيور في الميدان جثث الفين من القتلى
أما خسارة المصريين ، فقد بلغت في ذلك اليوم مائة واثنين من القتلى
ومائة وواحداً وستين جريحاً
وكان الباشاوات وجنودهم مسرعين في فرارهم الي حد تركوا معه في
طريقهم الي حلب ما تبقى لديهم من مدافع وأسلحة
واقطفى الفرسان أثر الهاريين ، ونكلوا بقلول الأتراك تنكيلا، ولم
يدعوا لهم سبيلا الي الراحة والاطمئنان ، الا بعد أن اقتربوا من حلب
واحتموا وراء معقلها وحصونها

١٤ يوليو سنة ١٨٣٢

دخل أحد أطباء الجيش على ابراهيم باشا ، وبعد أن بسط له حالة
الجرحى ، وأطلعه كالمعتاد على عدد الجنود الباقين في المستشفيات ، وعدد
الوفيات بينهم ، قال له :

— أما الجريح الذي أوصيتني بالعناية به يا مولاي ، فان حالته تنذر
بالخطر ، وأملى ضعيف في انقاذ حياته
فأجابه ابراهيم :

— أرجو منك أن تسهر عليه ، وأن تنقله إلى بيروت أو
عكاة عندما تسمح حالته بذلك ، لكي يبحر من هناك عائداً
الي مصر
فسال الطبيب :

— والفتاة التي جاءت تعودء اليوم ؟ أسمح لها مولاي بالاقامة
بجانبه ؟

— نعم . فاني أحلها من قسمها ، وأسمح لها بالسهر على محمد
الطهطاوي حتى يتم له الشفاء

كان الضابط قد أصيب بجرح خطير وهو يطارد الاعداء في الفلاة ،
وكانت زمرد بنت حمد القاسم ترافقه في تلك المطاردة ، فحملت الجرح
وعادت به مع بعض الفرسان الى حمص
وبقيت بجانبه ، تواسيه وتعزيه ، بينما الجيش يتابع الزحف شمالا
الى حلب

كان الجرح بليغا ، فلم يستطع الطهطاوي أن يحقق أمنيته كاملة ،
ويشترك في الحرب الى النهاية
وصلت اليه أخبار الانتصارات الجديدة التي أحرزها الجيش في
حلب وانطاكية وبيلان واسكندرونة ، وإشاعات الصلح التي انتشرت
في كل مكان

رأى الطبيب ان مريضه قد استعاد صحته إلى حد محدود ، وأن
نقله إلى عكاه خير وأوفى من بقائه في حمص
وسافرت زمرد مع الضابط ، وقد أقسمت أن تسهر على راحته بعد
أن أنقذ حياتها . ووافها والد الفتاة الى عكاه

ومرت الايام ومرت الاسابيع وتولدت بين الاثنين
تلك العاطفة التي لا بد أن يحدثها احتكاك قلبين ، كما يحدث قدح الزناد
تطير الشرر

كان الشاب يعطف على الفتاة . وكانت الفتاة تعطف على الشاب .
والعطف خطوة أولى في سبيل الحب !
فأحبها وأحبه !

ولم يتردد الوالد في إجابة الضابط إلى طلبه ، عندما رغب اليه في أن
يعطيه ابنته زوجة حليلة

أشار الاطباء على محمد الطهطاوي بالتزام الراحة والسكينة شهوراً
عديدة . ولم يسمحوا له بالعودة إلى ميدان القتال ، لان الجرح الذي

أصابه قد ترك في جسمه أثراً عميقاً ، وزعزع صحته ، وجعله غير قادر على حمل السلاح

ولما علم إبراهيم ذلك ، أوفد إلى ضابطه رسولا يحمل إليه سلام القائد ، ويحمله من العهد الذي قطعه على نفسه ، عندما أقسم أن يحارب إلى النهاية ، وألا يهجر الصفوف إلا إذا وافاه القدر وأضاف الرسول على ذلك قوله :

— ثم إن مولاي يهنئك على زواجك ، ويرجو لك السعادة مع الفتاة الباسلة التي وقع عليها اختيارك

وفي الخامس عشر من سبتمبر (ايلول) ١٨٣٢ ، شهدت عكاه مهرجاناً لم يسبق له مثيل فيها . فقد احتفل في ذلك اليوم بزواج محمد الطهطاوي وزمرد بنت حمد القاسم . وخرج الجرحى والمشوهون جميعاً إلى أسواق المدينة وطرقاتها ، حاملين المشاعل ، هاتفين منشدين . وشاركتهم الحامية في مهرجاناتهم ، فاطلقت البنادق ، وأنيرت المنازل ، وارتفعت في جو عكاه أصوات النساء تغاريدهن .

وهكذا تتجاوز الافراح والاتراح في الحروب !

ولم يكن ذلك الزواج الاول من نوعه ، كما انه لم يكن الاخير . بل كثيرون هم الضباط والجنود المصريون ، الذين ربطوا حياتهم بحياة نساء من بنات سورية ولبنان ، في ذلك العهد الذي مشى فيه أبناء البلاد جنباً إلى جنب مع جنود ابراهيم ، فامتزجت في الميادين دماؤهم ، وتشابهت في السياسة مقاصدهم ، وتمازقت في عالم السعادة أمنيتهم .

obeykandl.com

انتقام الرهارة

أصدر السلطان محمود الثاني ارادته السنية بتعيين حسين باشا قائداً عاماً للجيوش العثمانية في الاناضول ، وأنعم عليه بلقب «سردار أكرم» وزوده بالاورام والذخائر والمؤن ، وسيره على بركة الله للاقتصاص من المصريين العصاة ، ورد ابراهيم باشا وعساكره على أعقابهم !

وكان حسين باشا من رجال السلطان الاخضاء وأعوانه الامناء ، يشهد له الجميع بالذكاء والاقدام . وقد ساعدته الظروف على اثبات اخلاصه لمولاه في وقائع عديدة . وهو الذي تمكن السلطان بواسطته من القضاء على الانكشارية ، وقطع دابرهم من الآستانة

سار حسين باشا اذن على رأس جيشه اللجب ، قاصداً الى حمص ، لنجدة زميله محمد باشا . ولكنه قطع المراحل بين عاصمة السلطنة والحدود السورية ببطء وتناقل ، ظناً منه أن ابراهيم باشا المصري لن يجرؤ على مهاجمة المدينة ، وفاته أن قوة الجيش المصري المعنوية كانت تضعف عزائم الجنود ، وتجملهم - بعد انتصاراتهم المتتابعة - بهزأون باعدائهم وما يجرؤونه وراهم من معدات الهلاك

وصل «سردار أكرم» الى انطاكية . وبعد أن استراح قبيلاً من عناء السير ، واصل زحفه الى حمص . ولكنه ما وصل جسر الشغور حتى التقى بفلول الفارين من جنود زميله محمد باشا ، فقصوا عليه ما أوقعه بهم

المصريون من هزيمة ومذلة وهوان ، في معركة حمص الدموية . ورأى الرجل نفسه في اضطرار الى العودة على أعقابيه ، والاعتصام في حلب ، انتظاراً لقدم ابراهيم بجيشه اليها

لكن سكان المدينة أوصدوا أبوابها في وجهه ، ولم يدخلوا اليها غير الجرحى والمرضى والمصابين من الجنود ، قائلين للقائد العثماني : «لك أن تنازل المصريين خارج الاسوار . فإذا تغلبت عليهم فتحنا لك أبواب المدينة . أما اذا لذت بالفرار كمن سبقوك من القواد ، فاننا نستودعك الله من الآن ، ونرحب مهللين مكبرين ، بقدوم ابراهيم والمصريين ! »

وكان القائد المصري في اثناء ذلك يجد في مطاردة عدوه ، ولا يترك له فرصة لجمع جموعه من جديد . فلم ير حسين باشا بدأ من الانسحاب الى موقع يستطيع فيه الثبات أمام المنتصرين الزاحقين . فأسرع الى مضيق «بيلان» تاركاً خيامه عند أبواب حلب ، وكمية كبيرة من ذخائره ومؤنه ومدافعه

وفي الخامس عشر من شهر يولييه (تموز) ١٨٣٢ دخل ابراهيم باشا حلب الشهباء فاحتلها بلاقتال ، وأعد له السكان استقبالا حافلاً بمظاهر الفرح والمحاسنة . ودخلت المدينة في حظيرة الدولة المصرية ، أسوة باخواتها . وأعاد ابراهيم اليها ميزان العدل والانصاف والنظام ، الذي فقدته من زمن بعيد

وأراد القائد أن يأخذ جيشه الباسل قسطاً وافراً من الراحة ، استعداداً للمعارك المقبلة ، فأصدر بذلك بياناً الى جنوده ، قائلاً لهم إنه يطلق لهم حريتهم أياماً معدودة ، على شرط أن يحترموا الارواح والاعراض والاموال

واغتنم ابراهيم باشا الفرصة للنظر في أمر الجنود الذين خرجوا على النظام ، وارتكبوا أوزاراً يؤخذون عليها . فعقد مجلساً من كبار قواده

وزعماء المتطوعين من أبناء البلاد ، تبوأ فيه مقعد الرئاسة ، وطلب
إلى قواد الجيش وضباطه أن يبسطوا أمام المجلس مالديهم من
شؤون وشكايات

- ما اسم هذا الجندي ؟
- اسماعيل الجرجاوى
- والتهمة الموجهة إليه ؟
- القتل
- والفتيل ؟
- جندي مصرى من رجال المدفعية
- وتفصيل الحادث ؟ وأسباب الاعتداء ؟
- لا نعلم يا مولاي إلا شيئاً واحداً. وهو أن هذا الجندي قد انتفض
على زميله بعد معركة حمص ، وأمسك بعنقه ، وخنقه بأسرع من لمح البصر
- أهو من رجال المدفعية ؟
- كلا . بل من المشاة
- سكت ابراهيم بعد أن أفضى اليه الضابط الشاكي بهذه التفاصيل .
ونظر الى الجندي المتهم ، وقال له بلهجة المعاتب المؤنب :
- أليس من العار أن يقال عن جندي مصري إنه اغتال رفيقاً له
في النصر والجهاد ؟ دافع عن نفسك . فان هذا المجلس لم يصدر قبل الآن
حكماً على مذنب ، دون أن يصغى إلى دفاعه ويزن أقواله
- رفع الجندي رأسه ، ونظر الى ابراهيم ، فاذا بعينه تدمعان ، واذا
به شاحب اللون مختلج الشفتين
- وقال بصوت منبعث من أعماق صدره :
- نعم . انني قاتل يا مولاي . لكن فعلة القتل التي أقدمت عليها

ليست اثماً أستحق من أجله أن ينظر الي الناس نظوهم الي مجرم سفاح .
كلا . بل هي في عرف عشيرتي فضيلة وشارة شرف أفاخر بها
— واية عشيرة تلك التي يعتبر فيها القتل فضيلة ؟

— الهوارة يامولاي . فاسماعيل الجرجاوي ، المثلث في حضرتك الآن ،
ينتمي الي تلك القبائل العربية ، التي نزع أجدادها من الصحراء الي
الصعيد ، حيث طابت لهم الإقامة ، فخطوا رحلهم في وادي النيل . لكن
تقاليدهم الموروثة ظلت في نفوسهم حية مرعية محترمة . وقد غرسوها في
ذلك الصعيد كما غرسوا فيه أطناب الحيام

فأدرك ابراهيم أنه أمام رجل من أولئك العربان الذين لا ينامون
على ضيم ولا يسكتون عن دم مطون . فقد يثار الواحد منهم لقتيل بعد
أيام أو شهور أو اعوام . وهذه العادة قد امتزجت بدمائهم فلا سبيل
الي اثزاعها . والابناء يتوارثونها عن الآباء . والاحجام عن الأخذ بالثأر
يعد في نظرم عاراً لا عار بعده ، وجبناً يستحق من يصم نفسه به أن يوليه
القوم ظهورهم امتهاناً واحتقاراً
فقال ابراهيم :

— قص علي قصتك يا اسماعيل . وسوف نرى فيها رأينا
كان الرجل قد استعاد ثباته ومسح دموعاً خائنة نفرت من عينيه
بالرغم منه ، فشبك ذراعيه على صدره وقال :

— قتل أبي منذ ثمانية أعوام يامولاي ، وكنت حينذاك في الثالثة
عشرة من عمري ، ضعيف البنية ، مريضاً ، لا أدرك للأخذ بالثأر معنى ،
ولا أقيم للتقاليد الموروثة وزناً . وبقيت بعد قتل أبي وحيد أحمى ، التي لم
يكن لها في القرية معين ولا نصير . فجعلت تبث في روحى الانتقام ،
وترعى صحق بعنايتها ، ولسهر على راحق ونشأتي . فترعرت في كنفها ،
وكان الله عز وجل قد أراد أن يستجيب دعاء تلك الوالدة الشكلى ،

ويجعل مني أداة للانتقام من القاتل الاثيم ، فكنت أستعيد قواي شيئاً
فشيئاً ، وأشعر مع الايام بأن واجباً عظيماً قد فرض علي القيام به .
وأدركت بعد حين أن أبناء العشيرة ينظرون الينا - والدتي وأنا -
نظرم إلى من ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وخيم عليهم العار ، وطبهم
الجبن بطابعه . ولما بلغت العشرين من العمر ، خاطبتني أمي قائلة : « لقد
حان الوقت وأذنت الساعة الرهية يابني . إنني أعرف القاتل الذي سفك
دماء أهلك ، وجعلنا سخرية بين الناس وهدفاً لاذدرائهم . ان القاتل يرح
الآن حراً طليقاً ، بينما جثة أهلك المسكين ترقد تحت الرمل ، هناك ، طعمة
للحشرات ، دون ان يقوم على القبر « شاهد » أو تذبح عليه ذبيحة !
ولن نستطيع أن نفعل ذلك ، إلا إذا انتقمنا لايبك من قتله ، وثارت له
ناراً دموياً ، يحو العار الذي يكتنفا ، ويمكننا من النظر إلى الناس وجهاً
لوجه بلا خوف ولا وجل ! اذهب يابني ولا تعد الا ويديك نخضة بدم
ذلك القاتل الجبان ! أما اذا لقيت حتفك ، فاني أقضى بقية أيامي هنا ،
في البكاء والنحيب ! » هذا ما قالته لي أمي يامولاي . فأقسمت لها اني
سأثأر لابي . وأسرعت في طلب الغريم ، فعلمت أنه جندي في المدفعية ،
وأن فرقته مع الجيش الزاحف بقيادتك . قات في نفسي : « لو أحجمت
عن اللحاق به ، لافلت مني الثأر وضاع علي الانتقام . ومنذ ذلك الوقت ،
صحت عريق على التطوع في الجيش ، لاحقاً بالحرب فقط ، حيث أجد
السلوى التي اتوق اليها ، بل أيضاً سعياً وراء الثأر الذي انشده ،
والترضية التي ارغب فيها . لقد حاربت يامولاي واستبسلت في القتال .
سل ضباط جيشك عن فعالى في الميادين ، وعمما اذا كنت قد تنجيت يوماً
عن مواطن الخطر ، أو وليت مديراً في الاوقات العصيبة . لقد قت
بواجبي كجندي . وعندما حان الوقت للقيام بواجبي كابن بار بابيه ، لم
أحجم عن ذلك ، بل انتهزت الفرصة ، وقتلت قاتل أبي ، وأرويت ظمئي

من دمه . بحثت عنه طويلاً حتى اهتديت اليه . ولم أشأ أن الحق به
أدى في مهتل المعركة، بل انتظرت الى نهايتها، وتركته يقوم بواجبه بين
رفاقه رجال المدفعية . وبعد ما انتهى كل شيء ، وانهمزم العدو أمامنا ،
ودخلنا مدينة حمص منتصرين، وثبتت به ، وقبضت على عنقه ، وانتزعت
روحه انتزاعاً . هذه قصتي يامولاي ، لازيادة فيها ولا نقصان . فخياني
الآن بين يديك . ولك ان تصنع بها ما تشاء، فأنت السيد الأمر المطاع !

تساور ابراهيم مع قواده وانصاره . ثم اصدر حكمه على الجندي
القاتل المنتقم :

— ان القتل في عرفنا يا اسماعيل جريمة لا تغتفر، ايا كان الداعي اليها،
وايا كانت الظروف المحيطة بها . والقاتل يقتل . امستعد أنت للقاء
العقاب ؟

— نعم يامولاي

— وارايتك الاخيرة ؟

— لم تقم اى مأمناً بعد مصرع ابي . فكل ما ارجوه الآن ان
تبعث اليها خبري، فتعلم اني قد رحلت عن هذا العالم بعد ان ثارت لاني
من قاتله، وتقيم في البيت مأمناً، وتضع على قبر الميت شاهداً، وتذبح عليه
الذبيحة الاولى ، وتحضب الشاهد بدم تلك الذبيحة !

— سأفعل ذلك يا اسماعيل . اما تنفيذ الحكم فيك ، فاني اعهد به
اليك، لاني لا اريد ان تموت ميتة المجرمين السفاكين، وان كنت في نظري
مجرماً سفاكاً . بعد ايام سنلاقي العدو من جديد في الميدان . ينبغي ان
تلج القتال، وتخوض غمار المعركة بما اعهد فيك من شجاعة واقدام ، والا
تعود من الميدان حياً ! هكذا ارغب اليك ان تكفر عن ذنبك، وتمحو
سيفتك . اتعدني بذلك ؟

— اقسام لك يامولاي اننى سأستشهد في الميدان ، وسيكون رفاقى
على ذلك شهوداً !

٢ ربيع الاول ١٢٤٨ - ٢٩ يوليو ١٨٣٢

بيلان . . . مضيق موحش ، تسلكه القوافل بين الاسكندرونة
وحلب . وهو معقل منيع وحصن حصين ، وممر الغزاة الفاتحين على كر
الاجيال . رأت هضابه السماء جحافلهم ، وسمعت صخوره السماء وقع
حوافر خيولهم ، منذ أن عرف التاريخ الى الآن . ففى ذلك المضيق مر
الأشوريون والبابليون والفرّاعة والفرس والاسكندر والصليبيون
وابراهيم يسلك الطريق الذي سلكه هؤلاء
ستون الفا من الأتراك ربضوا في ذلك المعقل الحصين ، ومعهم مائة
وستون مدفعا ، في انتظار ابراهيم وجيشه
لكن نظامهم مختل ، وادارة جيشهم رديئة ، والقوة المعنوية معدومة
من نفوس الجنود

وصل ابراهيم قبالة المضيق ، بجيش اقل عدداً وعدة من جيش
خصمه حسين باشا ، لكنه يفوقه نظاما وادارة وقوة معنوية
اهل القائد التركي احتلال بعض المرتفعات المشرفة على السهل ، فاستفاد
القائد المصرى من ذلك الاهمال

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر ، دون ان يترك ابراهيم لجيشه الوقت
الكافي للراحة ، اصدر امره بالهجوم
كان حسين باشا قد حشد قواه جميعها في القلب ، وترك جناحيه في
حالة ضعف بين ، اعتقاداً منه ان عدوه سيهاجم القلب دون الجناحين .
وهذا ما تظاهر به ابراهيم

لكنه شطر جيشه شطرين ، فقام أحدهما بهجوم عنيف على قلب

الجيش التركي ، بينما كان الآخر يلتف حول ذلك الجيش ، فأحاطه بدائرة من حديد ونار ، وقطع عليه خط الرجعة من جهة الاناضول وبعد ساعتين فقط ، تضعع الجيش التركي واضطربت صفوفه ، فضاغف المصريون نيرانهم . وما اقبلت الشمس على المغيب ، حتى كان جنود «السرदार أكرم» يولون وجوههم شطر الساحل ، ويفرون من الميدان زرافات ووحداً ، على أمل ان يصلوا الى الاسكندرونة ، ويحتموا بالاسطول القادم اليها من الاستانة

وخسروا في تلك الموقعة الهائلة خسارة جسيمة ، وتركوا بين ايدي المصريين اكداساً مكدسة من الاسلاب والغنائم وفر حسين باشا كغيره من الضباط والجنود . ومنذ ذلك الوقت لم يقف له احد على اثر . ويقال ان جنوده قد فتكوا به في الطريق ، طمعاً في الاستيلاء على ما كان يحمله معه من اموال طائلة اما الجيش المنهزم ، فقد تفرق في وهاد الاناضول وبطاحه . وفي ٣٠ يولييه (تموز) ١٨٣٢ دخل المصريون ثغر الاسكندرونة ، واستولوا على المراكب السبعة التي ارسلها السلطان لاجدة سرداره ! وسير ابراهيم فريقاً من جيشه الى يياس ، حيث فاز بمن التجأ هناك من الاعداء ، وتم له القضاء على الجيش العثماني قضاء كاملاً

دخل الضابط على ابراهيم وقال :

— مولاي . امرتني أن آتيك بنجر اسماعيل الجرجاوي ، بعد معركة بيلان ، وأن أفضي اليك بتفاصيل سلوكه في الميدان . لقد حارب ذلك الجندي ببسالة لم أعهد لها من قبل في جندي سواء . وعندما أصدرت اليها أمر كبحهاجمة المدفعية التركية ، رأيت ذلك الشاب الشجاع يفتح الصفوف والمعازل ، والسيف يقطر بيده دماً . وقد سقط صريعاً في

الميدان وهو في طليعة المهاجرين . إن اسماعيل الجرجاوى يامولاي عاش
شجاعاً ومات شجاعاً !

فأمر ابراهيم بإرسال الخبر إلى أمه في جرجا ...

فبكت المسكينة ابنها بعدما بكت زوجها . لسكنها أسرعت إلى قبر
القتيل في مدفن القرية ، ونصبت عليه شاهداً ، وذبحت ذبيحة اعترفت
من دمايتها وخضبت بها الشاهد ، ثم أقامت حول القبر مأتماً اشترك فيه
أبناء العشيرة كبيرهم وصغيرهم

وكانت المرأة تتقبل منهم التعزية ، رافعة الرأس ، فخوراً بابنها ،
الذى مات ولم يترك وراءه ثأراً مهملاً ، وشرفاً مثلوماً ، وعاراً مقبها !

obeykandl.com

فراء البادية

سأل ابراهيم باشا المصرى صديقه الامير بشيراً الشهابي :

— أتعرف هذا الشيخ العربى يا بشير ؟

فأجاب الامير اللبناني :

— أعرفه منذ أكثر من عشر سنوات . فهو الذى مدنى بالرجال ،

ومهد لى سبيل الخلاص من أيدي الاعداء ، عندما كنت طريداً ،

يضمرك لى الاتراك الشر ، ويحاول عبد الله باشا ، حاكم عكا ، القضاء على .

انه شهم شجاع مخلص أمين . ثم ان ما حدث بينه وبين الاتراك منذ سنتين

من شأنه أن يجعلنا نعتمد عليه اعتمادنا على أنفسنا

— وما ذا حدث له ؟

— حدث عزن أيها الامير ، أفضل أن يقصه عليك بنفسه

— على به إذن !

دخل الشيخ « عزام الفايز » على ابراهيم باشا في مضر به ، وحياه

تحية الند للند ، ثم أشار الى اتباعه القادمين وراهه بالانتظار ، فوقفوا خارج

الباب وأنظارهم شاخصة الى زعيمهم

هو شيخ في الثمانين من العمر ، تحيط بوجهه لحية كثيفة ناصعة

البياض ، وينفرج ثوبه عن صدر تما فيه الشعر نمو الاعشاب في واحات

البادية ، ولعلت تحت جبينه القطب عينان براقتان كالبحر الاحمر ، يتقلد سيفه ، وفي عنقه عقد مصنوع من أنياب الضباع
رد عليه ابراهيم التحية وقال :

— أهلا بك يا أخا العرب . لقد حدثني عنك صديقي أمير لبنان .
وما يقوله هذا الخليف الوفي لاشك في صدقه . قيل لي أنك هبطت
بعليك مع خمسين من فرسانك ، ورغبت في الانصواء تحت لوائنا ، والسير
مع جيشنا المظفر الى الامام ، لمحاربة الأتراك واجلائهم عن هذه الديار .
لكناك وضعت لذلك شرطاً يبدو لنا غريباً أول وهلة . فان جميع
الزعماء الذين انضموا الينا ، قد تعهدوا بالتبقييد الاوامر التي تصدر اليهم
من مركز القيادة العامة ، فأني داع حملك على سلوك مسلك آخر ،
والامتناع عن اعطاء العهد الذي اعطاه الآخرون ؟

حذق الشيخ البصر في محذره ، وقال بصوت لا يزال محتفظاً بنبيرات
الفتوة والشباب :

— ان « عزام القايز » يا ابراهيم لم يخدفي حياته عن جادة الصدق
والصواب . فاصغ الي . ثم احكم بيني وبينك بالعدل والانصاف . وبشير
هذا - صديقي وصديقك - يشهد علينا ؟
— تكلم !

— كان « بنوفايز » يؤلفون عشيرة قوية من عشائر « عنزة »
الضاربة في بادية الشام . وكنت اذا ما ناديت قومي بان يمتطوا الجياد
الى غزوعدو ، او يشدوا الرحال الى ارض غير التي يضربون فيها اطنابهم ،
أرى حولي حلقات متواصلة من الفرسان والهوادج والاطفال ، فأفاخر
بالمشيرة مفاخرة آباءى بها ، وتزداد تقتي بالايام المقبلة ، مادام « بنوفايز »
في استطاعتهم ان يدفعوا الى ساحات الوغى ثلاثة آلاف من المقاتلين
المدججين بالسلاح . وقد شهد جنودك المصريون اعمال رجالى في الميادين ،

عندما كانت رحى الحرب دائرة بينكم وبين الوهابيين . وكنت في ذلك الوقت حليفاً لكم . لكن ذاكرتك ضعيفة أيها الأمير ، فقد نسيت ذلك أو تناسيته !

فانتفض ابراهيم ، لكنه قالك نفسه أمام هذه الصراحة التي لم يعهد لها في كثير من الناس ، وقال :

— ومن قال لك اننا نسيناك أيها الشيخ الشجاع ؟ أتم حديثك أولاً ، فإني مشتاق إلى معرفة ما حدث بعد ذلك

— حدث أن نشب خلاف بيننا وبين الدولة . فقد أرادوا ان يجمعوا منا الاموال والارزاق والنوق والجياد ، فرفضنا اجابتهم إلى طلبهم ، معتصمين بالتقاليد ، واثقين من انفسنا ، ونحن في الصحراء بعيدين عن مواطن الجند ومراكز الحكم . لكننا اخطأنا في التقدير . وفي ذات يوم ، فاجأنا في ربوعنا جيش عظيم ، يعاونه في الهجوم خصوم لنا من ابناء البادية . فدارت بيننا وبينهم معركة حامية ، كان فيها الواحد منا يحارب خمسة منهم . وقد استبسلت نساؤنا في القتال استبسال الرجال فيه . ودافعنا جميعاً عن ارواحنا واموالنا وأرزاقنا ومواشينا ، دفاعاً تشهد به ارض الحى إلى الآن . فبحث القنلى لانزال هياكلها مبعثرة في البيداء ، يلبس بها اطفالنا ويلهون ، لاننا تلقنهم منذ نعومة اظفارهم طاب الثأر الذي لا بد لهم من السعى اليه ، والانتقام لابناء عشيرتهم ، لآبائهم وأمهاتهم وأعمامهم وأخوالهم ، الذين استشهدوا في ذلك اليوم العصيب المشعوم . لقد دارت الدائرة علينا ، لان شجاعتنا لم تحمنا نفعاً امام نفوق المهاجمين بالعدد والعدد . لم يبق منا أيها الامير غير خمسين بين رجال ونساء . لقد قتلوا جميعاً ، لكن البقية الباقية منهم لم ترحل عن الحى . بل ظللنا فيه مقيمين ، بعد أن ابتعد العدو حاملاً معه الخيام وسائقاً أمامه النواشى . وكنت ساعة رحيل الغتصيين مصاباً بحرج بليغ ، رحت على أثره في غيبوبة

طويلة . وعندما عادت الي قواي ، وتمكنت من النهوض ، وجدت
نفسى محاطا بمن يقى من أبناء قومي وهم يبكون وينتحبون
خيل لابراهيم أن الشيخ يتألم لتلك الذكرى . فقال له باطف ورفق :
— كفى كفى يا عزام !

لكن البدوي أبى إلا الاستمرار في الحديث :
— دعنى أتم قصتى أيها الامير . انك لم تطلع بعد على ماهو أشد هولاً
من هذا كله . قلت لك إن خمسين من أبناء العشيرة ظلموا على قيد الحياة .
لكن لم أقل لك إن العدو كان قد مثل بهم تمثيلاً شنيعاً : فهذا الرجل
جدع أنفه ، وذلك الطفل قطعت ذراعه ، وهذه المرأة جرت شعورها ،
وتلك الفتاة اقتلع لسانها . . . نعم . لست مبالغاً أيها الامير ، فقد اقتلع
الاعداء لسان ابنتى زينب من حلقها ، فأطلقنا عليها منذ ذلك الوقت
اسم « خرساء البادية » . هذا ما حدث ، بل هذا بعض ما حدث . وقد
اقسمنا جميعاً أن نعد للثأر عدته . ومازلنا منذ ذلك اليوم نعمل في
هذا السبيل . لقد أحنيت الايام ظهري ، وأثرت النوائب في أعصابى ،
وألغيت مقاليد العشيرة بين يدي « خرساء البادية » ابنتى المحبوبة المعذبة .
إنها تفوق في شجاعتها أفرس فرسان العرب . ولو كانت جميع نسايتنا مثلها
لفضلت فينا النساء على الرجال !

— وأين هي ؟

— خارج المضرب أيها الامير ، مع العشيرة كلها . فقد قوضنا خيامنا ،
وشخصنا اليك جميعاً ، الذكور والاناث والاطفال . لا نبغى منك
غير شيء واحد ، وهو أن تزودنا بالاسلح والذخيرة ، وتتركنا نحارب
الأتراك كما نشاء وأين نشاء وحين نشاء . لا تربطنا بشروط وقوانين
وأنظمة وأوامر . دعنا وشأننا . إنني اعاهدك بان يقاتل أولئك المشوهون

لأقطع منهم والاعرج، الاعمى منهم والآخرس، قتالاً لم تهده في أحد من التطوعين والانصار. اقسم لك برفات شهدائنا، وبالنار الذي تسعى اليه، ان اكون لك مخلصاً وفياً، اذ ان السبيل الوحيد الى الانتقام هو الانصواء تحت لوائك. انى اصارحك القول ايها الامير بأن حقدى هو الدافع الوحيد الذي يدفعنى الى القتال. ان الذي تراه امامك، يخطب ودك لانه يحبك، وأمرك لا يهمله، بل لانك تحارب عدوه، وهو يسعى الى الانتقام من ذلك العدو. فاستغل حقدى هذا ايها الامير. لقد كان العربان يدعوننى وصياد الضباع، لاننى كنت اقتنصها اقتناصاً، وهاجمها في مغاورها، واخنتها بهاتين اليدين، ثم انتزع انيابها وأصوغها عقداً احلى به الآن عنقى كما ترى. فدع الشيخ عزام الفايز يستحيل اليوم صياداً للسكاة في الميادين، وعندما اقضى لباتى، واغسل العار بالدم، سوف اعود الى البادية، وانتظر حلول الاجل فرحاً مرتاحاً!

فاجاب ابراهيم طلبه، وحقق امنيته

كانت اخبار عزام وخرساء البادية تنقل الى القائد المصرى كل يوم، وكان ابراهيم يبدي ارتياحه الى اعمال « فرقة الحسين » وبلائها في القتال. فان أولئك الابالسة المشوهين، كانوا في المارك خير عون للجيش النظامى، بما يلحقونه بالعدو من اذى، في مناوشاتهم ومطارداتهم وغزواتهم، ومهاجمة القوافل الحاملة الى الاتراك المؤونة والارزاق والمياه. فقد اشتركت خرساء البادية وعصابتها في معارك الزراعة ودمشق وحمص وحلب وأنطاكية وبيلان وبياس، ولم تفقد من رجالها غير أربعة قتلوا في مضيق بيلان، حيث سقطت صخرة عليهم وهم يتسلقون الجبل، فمحققتهم كما تسحق الرحى حبوب الحنطة!

وبعد الانتصار الباهر الذي أحرزه المصريون في تلك المعركة

المشهوره ، واصل ابراهيم السير الى طرسوس . وفي السابع والعشرين من يولييه (تموز) سنة ١٨٣٢ دخل مدينة « أدنه » فاتحاً

وكان الجيش في حاجة الى الراحة بعد ذلك العناء الشديد . وكانت تلك المدينة الحد الاقصى الذي وضعه محمد علي باشا نصب عينيه

كان يريد أخشاباً لمشروعاته الواسعة ، فتم له الاستيلاء على مناطق الغابات جميعها . وكان يريد أرضاً غنية بالمعادن فتم له ما أراد . أما الجيش التركي ، فقد تمزق شر ممزق ، وتشتتت فلوله في القفار والجبال ، واختفت آثار قائده العام ، ولم يبق أمام ابراهيم ما يحول دون مواصلة الزحف والاستيلاء على الاناضول

لكنه جعل التريث رائده ، وأرسل يوزف البشري الى أبيه عزيز مصر ، طالباً منه أن يزوده باوامره

واتخذ أدنه مركزاً للقيادة العامة ، وحشد جيشه في السهول والبطاح الممتدة حولها ، وأرسل كتائب من الفرسان لاحتلال المواقع الحصينة في داخلية البلاد ، فاستولت بلا قتال على « اورفاه » و « مرعش » و « اركلي » وغيرها من المدن والقرى الممتازة من الوجهة الحربية

حل الشتاء . وكان الجيش المصري قد استراح واستعاد جنوده قوام النهوكة . وصدرت الى ابراهيم إرادة أبيه بملاقاة الاعداء والزحف على الآستانة ، ما دام السلطان لم يخضع بعد لمشيئة تابعه محمد علي ، وما دام الباب العالي لم يعترف بالأمر الواقع ، بل يحشد جيشاً لاعادة الكرة ، ومحاولة إخراج المصريين من سورية واطراف الاناضول

وبعد مناقشات ذات أهمية محدودة ، واحتلال مواقع رأى القائد المصري وجوب احتلالها ، عقد ابراهيم مجلساً حريباً ، قر الرأي فيه على العمل ، بطريقة تجعل الجيش التركي القادم من قلب الاناضول ، يلتقي

بجيش ابراهيم في قونية ، حيث يتم القضاء عليه
وهكذا كان

فبعد أن هزم المصريون عساكر الدولة الذين حاولوا الوقوف في
طريقهم ، بقيادة عثمان باشا ورؤوف باشا وكريديلي أوغلو محمد باشا ، قام
ابراهيم بحركات ومناورات جعلت القائد العام التركي - الصدر الاعظم
رشيد باشا - يختار سهول قونية ميداناً للمعركة المقبلة الفاصلة
كان عدد الجيش المصرى لايزيد عن ثلاثين ألف جندي بين
فارس وراجل ، وكانت المدفعية لايزيد عن ستة وثلاثين من مدافع
الميدان

وحول الجيش كانت تحوم فرق الفرسان المتطوعين ، من
البدو وابناء الجبال ، وبينهم خرساء البادية ورفاقها ورفيقاتها
وأقبل الصدر الاعظم بستين ألف مقاتل ومدافع لا تحصى

٢٩ رجب ١٢٤٨ - ٢١ ديسمبر (كانون الاول) ١٨٣٢
كان الضباب كثيفاً ، فاستفاد ابراهيم من ذلك ، واتخذ من الضباب ستراً
يحجب جيشه عن انظار العدو المقبل عليه ، ولبت ينتظر الصدر
الاعظم وجحافلهم

زحف رشيد باشا طبقاً لخطة كان القواد الاتراك لا يحيدون عنها
بالرغم من انكساراتهم المتوالية . فقد رتب الصدر الأعظم جيشه في
قونية ، كما رتب سلفاؤه جيوشهم في الزراعة وحمص وبيلان
وجعلت مدافع الاتراك تقذف نيرانها على المصريين . لسكن ابراهيم
باشا لم يحرك ساكناً ، فغر هذا السكوت قائد العدو ، وأمر فرقتين من
جيشه بالقيام بحركة التفاف حول الجيش المصرى
وترك ذلك ثغرة بين المشاة والخيالة . فاعتنم ابراهيم الفرصة ، وأطلق

جنوده في تلك الثغرة ، بينما كانت مدافعه تصب دفعة واحدة حمم
براكينها على الأتراك

واشتبك الجيشان في قتال عام ، وتلبدت السماء بالغيوم والدخان ،
وامر ابراهيم جنوده بالقضاء على العدو قضاء تاماً لا قيام بعده
ولم يخنه النصر ، بل خضع له صاغراً كما خضع له من قبل . وبعد
ساعات معدودة من بدء الهجوم ، تضعف الجيش التركي ، وبدأت عليه
بوادر الانسحاب

وجأة ، علت في أرجاء الميدان صيحة هائلة ، صيحة دونها صراخ
المحاربين ودوى المدافع ، واخذت الابصار فرساناً يعدون مسرعين
هائنين مهملين مكبرين ، قاصدين الى الربوة التي كان ابراهيم يشرف
من فوقها على سير القتال

وطرقت اذنه هذه الكلمات ، متقطعة بين الصياح والتهليل :

— خرساء البادية ... فايز ... العربان ... الباشا !

وبعد دقائق كانت « فرقة الحسين » - وقد فتكت النيران بها

فلم يبق فيها غير ثلاثين من الأبطال - أمام ابراهيم !

وصاح الشيخ عزام الفايز :

— البك الاسير أيها الامير فافعل به ماتشاء !

نظر ابراهيم إلى الاسير ، فاستولت عليه دهشة عظيمة !

ذلك الاسير الذي يقوده العربان اليه صاغراً ذليلاً ، هو قائد الجيش

التركي العام ، هو الصدر الاعظم رشيد باشا نفسه !

أراد أن ينتقل من ناحية إلى اخرى ، في وسط المعركة ، فضل الطريق

ووقع في كمين اقامه الشيخ عزام وابنته وعصابتها ، وهم لا يدرون مقام

الاسير ، ولا يعلمون غير انه قائد من قواد الأعداء ، ساقه سوء ظالعه

اليهم فقبضوا عليه

وانتشر الخبر بين الاتراك فولوا من الميدان مدبرين !
وأصدر ابراهيم أمره بمطاردة فلولهم ، فانطلق فرسانه يعملون
السيوف والرماح في أفقية الفارين
وكان ذلك الانتصار أعظم انتصار أحرزه ابراهيم في تلك الحروب
الطاحنة ، فقد قتل فيه من الاتراك ثلاثة آلاف ، ووقع منهم في الأسر
عشرة آلاف ، واستولى المصريون على كميات هائلة من الذخائر والمؤن ،
واثنين وتسعين من المدافع
أما الجرحى ، فلم يحصرم عدد لكثرتهم
وبلغت خسائر المصريين مائتين واثنين وستين قتيلًا ، وخمسمائة
وثلاثين جريحًا

ولو أراد ابراهيم ، بعد ذلك النصر المبين ، أن يهدم عرش آل عثمان
لاستطاع ذلك . ولو رام الوصول إلى الآستانة لبلغها في بضعة أيام ، دون
أن يقف في سبيله حائل !

لكن السياسة شاءت غير ذلك ، وللسياسة أحكام قاسية ، توقف
زحف الجيوش بلا قتال ، وتعيد السيوف إلى الأعمدة بلا انضال !

وبعد انتهاء المعركة ، دعا ابراهيم باشا اليه الشيخ العربي وابنته
ومن بقي معهما ، واثنى على ما أبدوه جميعًا من شجاعة واقدام . فقال
عزام :

— لا إخالك تنكر أيها الأمير ، اتنا كنا في الميادين ، من بعابك إلى
هنا ، أشبه بالابالسة وقد انطلقت من جحيمها ، تبغي الفتك بالناس
والقبض على الأرواح . ولا إخالك تنكر أيضًا اني بررت بالقسم ،
وأن أبنائي هؤلاء كانوا عند حسن ظنك بهم ، وانهم خدموك
في الوقت الذي سعوا فيه إلى ثأركم وأدركوه . لقد ذبحنا من الأعداء

مئات، ومثلنا بهم كما مثل اخوانهم من قبل رجالنا ونسائنا. لكننا فقدنا
عشرين من خيار أبنائنا، سوف نيكيمهم ونقيم لهم مأتماً في الصحراء
فقال ابراهيم :

— أفر بذلك كله يا أخا العرب . وأقر أيضاً بأنني شاهدت النساء
في هذه البلاد يحاربن مع الرجال جنباً إلى جنب . لكنني لم أرفي
واحدة منهن مارأيته في ابنتك «خرساء البادية» من قوة العزيمة وثبات
الجأش والاستهتار بالموت . فيحق لك أن تفاخر بها ، ويحق لابناء الجزيرة
ان يلقبوها بعد الآن بفارسة البادية !
فأجابه الشيخ :

— لاشيء يجعل الشجاع فخوراً بنفسه مثل اعتراف الابطال له
بالشجاعة . وقرارك اليوم ايها الامير، انما هو شعار شرف ونبل ، يجعلني
أستير بين الاقران رافع الجبهة شامخ الرأس
— وماذا تطلب الان ايها الشيخ، برهاناً مني على احترامي وتقديري
وإجلالي ؟

— أن تجعلني في حل من عهدي . فقد تبعتك لغرض قضيتته ، ولغاية
وصلت اليها . فدعني الآن أرجع مع هذه البقية الباقية من أبطال
«بفوايز» الى الحى الذي تركناه قفراً ، والخيام التي طمرناها في رمال
الصحراء

فمد ابراهيم يده الى الشيخ ، فصافحها عزام ، ثم طبع عليها قبلة حارة
وقال :

— لقد ساعدتني على الانتقام من أعدائي ، فليرعك الله دائماً بعين
عنايته ، ويبدد أمامك الجيوش ، ويجعل سبيلك إلى النصر والعلو ممهداً
دائماً أبداً

وقبل أن يغادر البدوي مضرب الامير ، قال ابراهيم :

— أريد ان اودع ابنتك الوداع الاخير

فنادى عزام الفايز « خرساء البادية ، وبقية الرفاق والرفيقات .
فدخلوا جميعاً على ابراهيم ، وأطال القائد المصري العظيم نظره في أولئك
الابطال ، الذين لم يكن فيهم واحد غير مشوه ، والذين ألقوا الرعب في
قلوب الاعداء والذعر في نفوسهم

ثم اقترب من الفتاة الشجاعة ، وضم رأسها بين يديه ، وقبلها بين
عينها ، قبله تم على ما كان قلب ذلك القائد المحنك ، والجندي المغوار ،
يكنه الابطال من محبة وإجلال

وعاد القوم الى حبيهم ، وضربوا فيه أطنابهم من جديد ، وحلت
عندهم منذ ذلك الوقت ، الافراح محل الآراح !

obeykandl.com

الشيخ والراهب

دهش الضابط المصري ، سليم بك ، عندما جاءه الجندي الحارس ، وقال له إن شيخاً مسلماً وراهباً مسيحياً يطلبان بالحاح المشول بين يديه ، وانهما قادمان من بعيد لهذا الغرض

كان ابراهيم باشا المصري قد عهد الى سليم بك بقيادة الحامية المصرية الباقية في وانطاكية ، وحذره كثيراً من الجواسيس الاتراك وانصارهم من أبناء البلاد. فكانت أول فكرة تبادرت الى ذهن الضابط ، انه أمام اثنين من أولئك الجواسيس ، متكررين في زى رجال الدين

لكنه امر باحضارهما ، فدخلا عليه

هما رجلان في العقد الثامن من العمر . احدهما معمم والثاني حاسر الرأس ، كثيف الشعر ، تتدلى على كتفيه جدائل بيضاء ، وتنسبط على صدره لحية طويلة تزيد هيبته ووقاراً. اما الشيخ المعمم ، فاجيته صغيرة لكنها كاختها ناصعة البياض . والاثنان يرتديان ثوبين متشابهين ، يميل لونهما الى لون الصخور البركانية القائمة ، التي تتكون منها المرتفعات المحيطة بالمدينة — من انما وماذا تريدان ؟

التقى الضابط على الرجلين هذا السؤال ، رغبة منه في معرفة الداعي الى تلك الزيارة الغريبة . لكن الشيخين لم يردا على سؤاله ، بل تبادلوا نظرة ، وقال احدهما للآخر :

— لا أرى في هذه الحجرة غير مقعد واحد . فأجلس عليه يا لويس .
انك تعب أكثر مني !
فأجابه الآخر :

-- لا . بل اجلس انت يا اسماعيل . انك أكبر مني سنًا ، ولم يسبق
لي ان جلست في مكان وتركتك امامي واقفاً . اجلس
ظن سليم بك انه امام اثنين من المجانين ، وانه سيرى مشهداً مضحكاً .
فأشار اليهما قائلاً :

— اني اترك لكما هذا « الديوان » الذي اجلس عليه ، وهو
يكفي لجلوس شخصين
فاتجه الشيخ والراهب إلى الديوان وتربعا عليه . ثم التفت احدهما الى
الضابط وقال :

— اجلس الآن ايها الضابط . واصغ الينا
اطاع سليم بك وهو يتسم ، وسأل الزائرين :
-- هل لكما الآن ، وقد اعتبرتما نفسيكما السيدين الأمرين هنا ،
ان تتكما وتفضيا الي بما جاء بكما الى هنا ؟

فقال الشيخ لرفيقه :

— تتكلم انت يا لويس

وأجابه الراهب :

— كلا . لم أسمح لنفسي منذ ثلاثين سنة ان أخطب أحداً في
حضرتك يا اسماعيل . انك أكبر مني سنًا ، وللسن علينا جميعاً واجب
الاحترام

فقال اسماعيل للضابط :

— اعلم يا بني أننا لم نتجشم متاعب السير على اقدامنا ساعات
طويلة ، لكي نحظى برؤيتك أنت فحسب ! كلا . انما جئنا اليك لشأن

آخر ، وهو ان نطلب منك القيام بمهمة يتعذر علينا القيام بها . فقد علمنا
أن الامير ابراهيم بن محمد على باشا المصرى ، دحر جيوش الاتراك في
« قونية » وأن السلطان عرض عليه صلحا رضى به عزيز مصر .
فابراهيم اذن سيعود ادراجه ، ويعر بهذه المدينة في طريقه الى دمشق
ولبنان . فريد أن نراه ، لاننا نرغب في أن نفضى اليه بسر لانستطيع
اطلاع أحد سواه عليه . فهل تتعهد لنا بحمل رغبتنا هذه اليه ؟

— لكنني لا أعرفكما ، ولا أعلم من أمركما شيئاً

— اسمع يا بني . إننى أدعى اسماعيل . وهذا الراهب يدعى لويس .
هو فرنسى وأنا مصرى . لقد اجتزنا الثمانين من العمر ، ونشعر باننا
نقترب من اللحد يوماً بعد يوم . إننا نقيم في صومعة في « الجبل الاقرع »
على مسافة قصيرة من « أنطاكية » هذه ، منذ أكثر من ثلاثين سنة .
هذا ما نطلعك عليه اليوم . وإذا أردت معرفة شئ آخر ، فسيكون لك
ذلك عند ما ترشدنا إلى ابراهيم باشا ، وتهد لنا سبيل الاجتماع به . عم مساء
يا بني !

وانصرف الشيخان ، وتركوا الضابط المصرى حائراً ، متسائلاً :
« أياكون هذان الشخصان جاسوسين ، أم معتوهين ، أم صديقين عاقلين ؟ »

كان الجيش المصرى في ذلك الوقت يطارد فلول الاتراك في الاناضول ،
بعد موقعة « قونية » الفاصلة . وكان سكان المدن يفتحون لابراهيم
الابواب والصدور ، لانهم كانوا ناقلين على السلطان وحكامه ، منتظرين
قدوم الفاتحين

وبينا ابراهيم باشا ييسط سلطان ابيه على تلك الربوع ، في انتظار
اوامر جديدة ، كانت الدول الاوربية تتشاور وتتداول ، وكان رجالها
يعتمدون المؤتمرات ، وقد بعثت انتصارات ابراهيم الرهبة والخوف في
نفوسهم

رأت روسيا ان قيام دولة فنية قوية على ضفاف البوسفور ، يقضي على الحلم اللذيذ الذي كان القياصرة يعملون انفسهم به ، وهو ان يرثوا السلطان وملكه ، بعد موت السلطان واضمحلال ملكه !

ورأت انجلترا أن فوز المصريين واحتلالهم الآستانة ، يؤديان إلى تدخل روسيا ومزاحمتها في ذلك الميراث المنتظر، ويقوم من جهة أخرى عقبة في « طريق الهند ! »

وللمرة الأولى في التاريخ ، عقدت معاهدة بين دولتين لاسبيل للتوفيق بين مصالحهما

وللمرة الأولى، كانت العداوة والمزاحمة سبباً لاتفاق خصمين عنيدين ، يطعمان في فريسة واحدة - على خصم ثالث يتحفر للوثوب على تلك الفريسة !

ودارت المحاربات والمفاوضات والمساومات ، بين أقطاب السياسة الانجليزية والروس والفرنسيين والأتراك والمصريين . وصدر أمر محمد علي إلى ابنه ابراهيم بانتظار النتيجة، ووقف رحي القتال، والامتناع عن السير إلى الآستانة

وربض الاسد في « كوتاهية » يرقب مايجيء به الغد !

٢٤ ذو الحجة سنة ١٢٤٨ — ١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣
عهد السلطان محمود الثاني إلى سفير فرنسا ، البارون روسان ،
بتوقيع المعاهدة باسمه

وعهد محمد علي باشا إلى ابيه ابراهيم بما عهد به السلطان إلى السفير
ووقعت معاهدة « كوتاهية » التي سجلت لمصر انتصارها ،
وأعطت ابراهيم ثمرة ذلك الانتصار

تنازل السلطان محمد علي باشا عن مصر وسورية وأدنه وجزيرة

كريت ، ولابراهيم عن ولاية جدة وعن لقب « شيخ الحرم المكي »
وأصدر محمد علي لابنه براءة بتعيينه حاكماً على الاقطار التي انتزعتها
من السلطان محمد السيف ، مع احتفاظه بقيادة الجيش العامة
وبعد أن أمن الفاتح حدود الامارة الجديدة ، أمر بانسحاب الجنود
وعودتهم إلى المدن السورية والجبال اللبنانية . فتولت هيئة أركان
الحرب توزيع ذلك الجيش المؤلف من خمسة وثمانين الف مقاتل في
أشغال تلك البلاد

وقرر ابراهيم اتخاذ « انطاكية » مقراً للقيادة العامة . وجعل يفكر
في الشؤون الادارية ، بعد أن كمل النجاح أعماله في الشؤون الحربية

صدر الامر الى سليم بك بالانتقال الى طرابلس ، لتسلم قيادة
الحامية المصرية في ذلك الميناء الهام ، بعد أن أصبحت « انطاكية »
مركزاً للقائد العام وأركان حربه . فاستعد للرحيل ، ورفع الى رئيسه
تقريراً عن أعماله ، وعن الحوادث التي وقعت في المدة التي كان مشرفاً فيها
على شؤون المدينة

وتذكر زيارة الشيخ والراهب ، والرغبة التي أفضيا بها اليه ،
وتعمده بأن يرفع أمرهما الى ابراهيم باشا بعد عودته من الاناضول
كان لكل حادث - جليل أوتافه - أهمية نسبية في نظر ابراهيم .
وكان ذلك القائد المقدم والاداري الحازم والسياسي الماهر ، يعالج نفسه
جميع الامور ، كبيرها وصغيرها . فأثارت فيه قصة الشيخين رغبة
شديدة في الوقوف على سرهما ، وأوفد في الحال كوكبة من الفرسان ،
بقيادة سليم بك ، إلى « الجبل الاقرع » للبحث عن الصومعة ، والمشور على
الغريبين ، والحجيين بهما الى انطاكية
ذهب سليم بك مع فرسانه قبل الفجر ، وعاد الى المدينة في المساء ،
وأطلع القائد العام على نتيجة رحلته

رفض الشيخان الخروج من الصومعة ، وطلبوا اليه بالحاح أن يجيء .
ابراهيم بنفسه اليهما ، لانهما لا يقويان على السير على اقدامهما :
— لقد تبين لي يا مولاي انهما صادقان ، وخيل الي أن ملك الموت
يرفرف عليهما ، وأنهما لن يظلا على قيد الحياة أسبوعا كاملا
زاد ذلك في رغبة ابراهيم وضاعف دهشته ، فأسرع في صبيحة
اليوم التالي شاخصا الى الجبل

كان الشيخان يقيمان في مغارة كسها أيديهما بالاعشاب ، وسدت
منافذها بالاغصان ، وقد استلقى الاثنان في ناحية منها ، على فراش من
أوراق الشجر اليابسة

بادرهما ابراهيم بالسلام ، فردا عليه التحية بأحسن منها . وحاولا
النهوض لكنهما لم يقويا على ذلك . جلس ابراهيم على الارض بجانبهما ،
وجعل يلاطفهما بالحديث ، ويطلب منهما أن يعيظا اللثام عن سر
وجودهما في ذلك المسكن

نخاطبه الشيخ اسماعيل بصوت ضعيف ، كان يصعده صدر نخرت
الايام ضلوعه ، وقطعت أوصاله ، وجففت عروقه ، قال :

— انني احبي فيك أيها الأمير ، رافع اللواء المصري خفاقا في ميادين
القتال ، وابن المنقذ الذي أعاد الامن والسلام إلى ربوع وطني ، محمد علي
باشا

فقاطعه ابراهيم سائلا :

— أمصري أنت ؟

— نعم . أنا اسماعيل الدمياطي ، ابن الشيخ عمر الدمياطي ، من
العلاء الدين حلت بهم نعمة الممالك . لقد زج أبي في غياهب السجون ،
ثم قتل بأمر من « مراد بك » لذنب لم يقترفه ، فخفت على حياتي ،
ورحلت عن دمياط مسقط رأسي ، وأقمت في الصحراء وحيدا

— وهذا الراهب ؟

— هو الاب «لويس دى ماسينيون» من رجال الدين الفرنسيين .
ان حياته سر من الاسرار الرهيبة . فقد هجر وطنه ، وجاء مصر مع
جنود «بونابرت» ، لكنه ترك الجيش وشأنه ، وراح يطلب الطمأنينة
في الصحراء مثلى . وهناك التقينا ، في مكان طابت لنا الإقامة فيه ، بعيدين
عن الناس وشرورم . وكانت الاخبار تصل الينا من المسافرين ، فعلمنا أن
الجيش الفرنسي قد دحر المماليك واستولى على البلاد . ثم علمنا ان
الفرنسيين قد رحلوا عن مصر . وبلغتنا انباء أميك واستفحال العداوة
بينه وبين الولاة الأتراك . وفي ذات يوم ، اردنا ان نشاهد النيل في مجراه ،
فخرجنا من عزلتنا وتوغلنا في الحقول

« كانت جنود اميك في ذلك الوقت مرابطة في طريق الاسكندرية ،
للفتك بمدوب السلطان ، الوالى «على الجزائلى باشا»

— لقد فتكوا به قبل وصوله الى القاهرة

— نعم . وذبحوا حاشيته ورجاله ذبح الانعام ، وقادوه أسيراً الى
المحروسة ، واستولوا على ما كان يحمله من تحف وأموال . لكن ضابطاً
من أخصائه تمكن من الهرب ، ومعه كنز ثمين لا يقدر بمال
— أى كنز هذا ؟

— صندوق صغير فيه من الجواهر والحجارة الكريمة ما يهر
الابصار . وقد مات ذلك الجندى في طريقه ، متأثراً بجراحه ، وترك
بجانبه ذلك الصندوق الثمين ، الذى وقع بين أيدينا دون أن نسمى الى
الحصول عليه . فأخذناه وعدنا الى عزلتنا . لكننا عزمنا على الرحيل عن
مصر ، لاننا مللنا البقاء في بلاد يتكالب الحكام على الاستئثار بالسلطة
فيها . نعم . رحلنا عن مصر لاننا كنا نبتغى الراحة ومصر لراحة فيها .
وعولنا على الإقامة في بلاد لا حرب فيها ولا قتال ولا دماء . كان في

استطاعتنا أن نصبح أغنياء وأن نشيد القصور . لكننا كنا نبحت عن شيء آخر غير المال والغنى وفاخر الرياش . كنا نبحت عن الراحة فقط ، عن الراحة دون سواها ، عن الراحة التي كانت نفسها متمطشة اليها . فرحلنا ، وقطعنا المسافات الشاسعة ، واجتازنا صحراء التيه فخرجنا منها سالمين . وظللنا نظوي البيد والقفار ، ونصعد جبلا ونهبط وهددة ، حتى وصلنا الى هذا المكان الذي كان النساك والرهبان يتخذونه من قبل مئراً لهم . فكنا فيه ، ومازلنا في هذه الصومعة منذ ثلاثين سنة . جئنا في سن الكهولة ، وها قد أدركتنا الشيخوخة كما ترى . أما الكنز الذي قدفته الاقدار بين أيدينا ، فقد حملناه معنا ، واحتفظنا به ، وأقسمنا أن نعيده الى الرجل الذي ينقذ مصر من برائن القوضى وويلات الحروب الاهلية -- وهل وجدتم ذلك المنقذ ؟

-- نعم . لقد فعل أبوك محمد علي باشا ما لم يفعله سواه من الطامعين بمصر . وأحييت أنت في الازهان ذكرى الفاتحين من أبناء مصر في العصور الغابرة . فاذا كانت بلادى اليوم تستقبل عهداً جديداً ، عهد راحة ومجد وسؤدد ، فاليك يعود الفضل كل الفضل في ذلك . ومن أحق منكما اذن بالاستيلاء على الكنز الذي احتفظنا به الى اليوم ؟ نخذه يامولاي . إنه لك . أما نحن فانا نحس بالموت يتمشى رويداً رويداً في عروقنا . وقد طلبنا من الله ، الذي قضينا ثلاثين سنة نتهل اليه هنا بأن ينقذ مصر من الفساد ، أن يجعلنا نرحل عن هذا العالم معاً ، وفي يوم واحد ، كما رحلنا عن مصر معاً وفي يوم واحد . وانه يستجيب دعاءنا

سكت الشيخ لحظة ، فرفع الراهب رأسه ، وقال متمماً :

-- نعم . بعد ساعة ستنتلق النفس من غلافها الجسدي ، وتصعد

الى الخالق القدير !

وأشار الشيخ الى ناحية من المغارة وقال :

— ارفع يامولاي هذه الصخرة ، وادفعها الى اليمين ، وخذ ما تجده وراءها

فنهض ابراهيم إلى الصخرة التي أشار اليها الشيخ ، ودفعها بيده ، فوجد وراءها صندوقاً حديدياً علاه الصداً
قال الشيخ :

— لانفتح هذا الصندوق هنا يا مولاي . خذ معك إلى مقرك في المدينة ، واصنع به هناك ما تشاء

فتح ابراهيم الصندوق ، فوجد فيه من اللآلئ والجواهر والحلي ما لا يقدر بثمن . وكان جماعة من التجار اليهود يجوبون البلاد في ذلك الوقت ، وراء صفقة رابحة أو مساومة مفيدة ، فأرسل ابراهيم في طلبهم ، ودفع اليهم ذلك الكنز الغالي ، مقابل مبلغ طائل من المال ، أنفقه على الجرحى والمشوهين والمعوزين من أهل الجنود القتلى

أما الشيخ اسماعيل والراهب لويس ، فقد قضيا نحبهما في تلك الصومعة المنعزلة ، ودفنا على شاطئ « بحيرة انطاكية » تنفيذاً لارادتهما
الاخيرة

هناك يرقد الناسكان ، اللذان عاشا مدة ثلاثين سنة في زهد وتقشف ، بجانب ثروة طائلة لم تعتمد اليها أيديهما ، عملاً بالعهد الذي قطعاه على نفسيهما

obeykandl.com

الادب والادب

ألقى النصر قياده لبراهيم في «بيلان» فسكرجنوده بنشوة الفوز ،
وتقدم اليه الضباط طالبين بالحاح استئناف الزحف إلى الأمام ، للقضاء
نهائياً على فلوك الجيوش العثمانية المترضة ، والوثوب على المضائق ، ورفع
العلم المصري على قلاع البوسفور

لكن ابراهيم الحكيم الخنك ، أثنى الاذعان لرغبة مساعديه ، وقال
إن التريث أفضل من التسرع في الحروب والغزوات

فتحت الاسكندرونة أبوابها على أثر معركة «بيلان» فدخلها
المصريون ، واحتلوا بعدها انطاكية واللاذقية والسويدية . ودخلوا
طرسوس فادنة في ٢٧ يولييه (تموز) سنة ١٨٣٢ . وأرسل ابراهيم إلى
السلطان يقول إن أباه محمد على باشا يرغب في وضع حد للقتال ، وعقد
صلح يجاب فيه المصريون وحلفاؤهم إلى شروطهم ومطالبهم

لكن السلطان رفض الدخول في مفاوضة ، وأبى إلا ان يهزم ذلك
التابع الذي هزم جيوشه في الميادين !

فسير ابراهيم طلائع جيشه إلى الامام ، للقاء طلائع العثمانيين من
جديد ، ووقعت مناوشات كان الفوز فيها حليف المصريين ، ووضع
ابراهيم نصب عينيه الاستيلاء على «قونية» التي علم ان الاتراك أخذوها ،
استعداداً لمعركة جديدة ، أعدوا لها العدة على مقربة من المدينة ، في
السهول المحيطة بها

وكانت الجحافل المصرية تجرد في السير نحو « قونية » للاقاء الجيش التركي، الذي جرده السلطان وسيره بقيادة وزيره الأكبر رشيد باشا، لصد « العصاة » وتأديب « الثائرين » وطرده ابراهيم من الاقطار التي فتحها بحد السيف، وانقاذ عاصمة العثمانيين من الغزاة المنتصرين وما كان ابراهيم باشا ليعبأ بذلك الجيش، لانه كان واثقاً من فوزه في الغد وثوقه من فوزه بالأمس

ظل سائراً، يحدوه الامل، مندفعاً نحو المجد اندفاع النهر نحو مصبه . وحواله القواد والزعماء، يتبادل معهم الرأي والمشورة في الخطة المثلى للقضاء على العدو، ومهاجمة المضائق والبواغيز، والاستيلاء على الآستانة، وإقامة عرش جديد فيها بعد ما أقام أبوه محمد على باشا عرشاً جديداً في القاهرة

وقف الجيش على مقربة من المدينة التاريخية، لكي يأخذ الجند قسطاً من الراحة . ودعا ابراهيم قواده ورؤساء العشائر المنضمين اليه وزعماء المتطوعين الذين التحقوا به من سورية ولبنان وبلاد عكار وبادية الشام، وحدد لهم موعداً للاجتماع في مضر به، في ساعة معينة من الليل

١٨ ديسمبر (كانون الاول) ١٨٣٢

حضروا جميعاً في الموعد المحدد . وجعل كل منهم يدلي برأيه، فيصفي اليه ابراهيم ويدون أقوال الواحد بعد الآخر ثم جاء دور الامير في الكلام، فكاشفهم بالخطة التي رسمها، والتعديلات التي يرى وجوب إدخالها عليها، بعد سماع أقوال أنصاره ومريديه . وأبلغهم خبراً حملاً اليه الكشافة قبل غروب الشمس، وهو أن طلائع الأتراك قد بدت مقبلة على قونية، وأن الموقعة الفاصلة ستضرم نيرانها بعد أيام

وانصرف الجميع والأمل يعلو أفئدتهم ، والثقة بالنصر تضعف

عزائمهم

وجعل كل منهم يعد عدته للقتال

كان بينهم شيخ عربي يدعى نصار الاحدب ، جاء من أطراف البادية على رأس كوكبة من الفرسان الاشائوس ، للاعراب عما يخالج صدره من حب للقائد المصري ، ومن رغبة في شد أزره والسير معه جنباً إلى جنب ، في طريق المجد والفخار

فقبل ابراهيم في ذلك الوقت ما عرضه عليه نصار ، وأجابه إلى رغبته. فالتحق الرجل وفرسانه بالجيش الزاحف ، وأبدى من ضروب الفروسية والشجاعة ما أدهش الامير وأثار إعجابه . فصار يعده من أنصاره الاخضاء ، ويستشيريه ويعمل برأيه في كثير من الأمور المتعلقة بزحف الجيش في السهول ومطاردة العدو في الصحراء بواسطة العربان الذين كثر عددهم بين الجنود المصريين

وكان نصار مخلصاً للامير ، أميناً له ، محبوباً من الجميع ، معززاً مكرماً من الضباط والجنود على السواء

لكنه كان يحمل بين جنبيه سرّاً مؤلماً لم يسبح به لأحد كان ابنه الاكبر مصطفى من أنصار الاتراك وصنائعهم ، وضع نفسه تحت تصرفهم ورهن اشارتهم ، لا عن عقيدة بل بدافع المنفعة ، ونصب نفسه جاسوساً لهم على أعدائهم ، لا عملاً بوحى الضمير بل حباً بالدرم وسعياً وراء المال

وهكذا خالف الشاب إرادة أبيه وخرج على عشيرته . فكان الواحد يحارب الآخر : الأب في صفوف المصريين وحلفائهم ، والابن في صفوف الاتراك . والحروب حافلة بامثال تلك المواقف الشاذة المؤلمة

١٩ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٣٢

نادى ابراهيم قواده وزعماء جيشه مرة أخرى ، ودعاهم للاجتماع في مضر به . ولما اكتمل عقدهم خاطبهم قائلاً :

— جاءني الحراس أمس بشاب غريب عن الجيش ، كان يطوف في المعسكر ، وجميع الظواهر تدل على أنه جاسوس للاعداء . لكنني لست واثقاً من ذلك . وقد دعوتكم لاخذ رأيكم في الامر قبل الفصل فيه . قال هذا ونادى الحارس وأمره باحضار الشاب ، فجىء به مكبلاً بالحديد

وقع عليه نظر نصار فعرفه

هو ابنه مصطفى ، ابنه الجاسوس الحائث ، الخارج على الاسرة والعشيرة . ابنه الذي باع ضميره ببيع السلع ، وآثر الدرهم على الواجب عرف الأب ابنه . لكنه ظل صامتاً لا يبدي حراكاً . ولم يدع شعور الغضب والاشمئزاز الذي كان يخالج صدره يظهر على وجهه ، فيخونه ويمزق النقاب عن حقيقة أمره

ألقي الأمير على الشاب أسئلة عديدة ، لم يتمكن من الاجابة عليها بوضوح وجلاء ، بل اضطرب وتلعثم ، وجعل ينظر حواليه قلقاً حائراً كالذئب اكتنفه الصيادون من كل صوب

وبالرغم من ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن يثبت على الشاب تهمة معينة . فاعتقد الجميع أنه غريب عن تلك الديار . دفعه حب الاستطلاع فقط إلى تعدي خطوط الجيش ، وأن ارتباكه وحيرته إنما مبعضهما الخوف من عاقبة عمله ، لا الدعر من اكتشاف ذنبه ، لانهم لم يثبتوا عليه ذنباً

ثم إن الشاب كان اكثر منهم دهاء ومكرراً ، فتظاهر بالغباوة والبله ، وذلك ما جعل اعتقاد القوم ببراءته يرسخ في أذهانهم . فهض أحدهم وخاطب الأمير قائلاً :

— مولاي . لأظن هذا الشاب أهلاً لاهتمامنا . ويلوح لي أنه مصاب
بضعف في قواه العقلية . فلندعه ينصرف ويذهب إلى حيث يشاء .
ولا أعتقد أن عمل جاسوس حقير — إذا فرضنا أن هذا الرجل جاسوس —
يؤثر فينا أو يحول بين جيشنا وبين النصر !

فاستصوب الحاضرون هذا القول ووافقوا عليه . وكاد إبراهيم
يأمر بإطلاق سراح المتهم ، وإذا بجندي يقف بالباب مستأذناً بالدخول
أذن له الأمير قدخل . وسأله إبراهيم :
— ما وراءك ؟

اعتدل الجندي في وقفته . وأدى التحية العسكرية وأجاب :
— مولاي . عثرنا على جثة حارس من حراس الليل مطروحة وراء
صخرة في أطراف المعسكر . وقد مات الجندي بضربة خنجر في ظهره .
فانتفض إبراهيم وصاح :
— والقاتل ؟

— لم نعرف عنه شيئاً ولم نعثر على دليل يدلنا عليه . فقد ذهب تعبنا
في البحث سدى

سكت إبراهيم . وعم الصمت المسكان ، وأطرق الأمير مفكراً
ثم التفت إلى الجندي وقال :
— انصرف . وضاعفوا الحراس في جميع الجهات . سأنظر في هذا
الأمر بنفسي

خرج الجندي من حضرة القائد . وبعد سكوت قصير ، خاطب إبراهيم
الحاضرين سائلاً :

— لقد كثرت حوادث الاعتناء على الحراس في الأيام الأخيرة .
فما رأيكم في ذلك ؟ وهل نطلق سراح هذا الشاب بعد ما وقع ؟
تبادل القوم النظرات . ولم يدركوا مراد الأمير من هذا القول .

ثم نهض أحدهم - وهو الذي أشار من قبل بالافراج عن الشاب المتهم -
واستأذن بالكلام :

— عفواً يا مولاي. أية علاقة بين الحادث الذي رواه ذلك الجندي ،
وبين هذا الشاب والتهمة التي وجهت اليه والشكوى التي حامت حو اليه؟
انتي ما زلت على رأي الأول ، وهو أن نطلق سراح هذا المسكين الابله
الذي ليس في مقدوره أن يمينا بأذى

فاستصوب الجميع هذا الكلام مرة أخرى ووافقوا عليه

لكن نصاراً نهض من مجلسه واستأذن وقال :

— مولاي . ظلت صامتا لأبدي رأيا ولا أفوه بكلمة . لكنني
أرى أنكم تركبون متن الخطأ ، وتقدمون على عمل سوف تهضون غداً
اصابعكم ندما عليه. لا تطلقوا سراح هذا الشاب فانه مجرم يستحق
العقاب !

دهش القوم لهذا الكلام. واستولى على مصطفى اضطراب شديد .
لانه عرف أباه وأيقن انه هالك لا محالة
قال ابراهيم :

— افسح يا نصار ، انك تتهم رجلا لا تعرفه ، ولم نستطع ان نثبت تهمة
عليه. فاذا كنت مطلعاً على دخائل أمره ، وتعرف ما نجعل ، ينبغي أن تمزق
النقاب عن هذا السر وتفضي الينا بما تعلم

فأجاب نصار بصوت متهدج ولهجة ثابتة بالرغم من ذلك :

— أعرف هذا الشاب يا مولاي ، وهو يعرفني ، ومن أجدر مني
بمعرفة وهو ابني !

نظر اليه الحاضرون ذاهلين باهتين ، وصاح به ابراهيم :

— ماذا تقول يا نصار

فمسح الأب المسكين بطرف كفه دموعه نفرت من جفنه بالرغم منه ،
وأجاب :

— أقول يا مولاي إن هذا الشاب المائل أمامكم هو ولدي مصطفى،
الذي يحارب في صفوف الاعداء، والذي يحترف الآن مهنة خسيصة دينية.
لقد هجر قبيلته، وباع ضميره وتقاضى ثمنه فضة وذهباً. انني اتهمه أمامكم
بالحسة والنذالة والجبن. وأرغب اليكم أن تنزلوا به العقاب الذي
يستحقه، والذي تنص عليه قوانين الحرب. فهو جاسوس الاعداء علينا.
والجاسوس الذي يقبض عليه يعدم في الحال. هذا ما يقضي علي الواجب
بقوله. وقد قلته يا مولاي!

فسكت ابراهيم وقد هاله هذا الموقف. ثم التفت إلى الشاب وقال:

— ألا تدافع عن نفسك يا مصطفى؟

فأجابه الجاسوس:

— لا أدافع عن نفسي لان أبي يتهمني وهو المدعى علي، والابن
لا يقف أمام أبيه مدافعاً عن نفسه. أفعلوا بي ما شئتم. ولا يداخلنكم
ريب في أمري. لقد صدق أبي: نعم، تجسست عليكم، ولو قدر لي
الفرار من بين أيديكم، لما ترددت لحظة في العودة إلى من أرسلني، لاطلعه
علي ما وقعت عليه في رحلتي. أقتلوني اذا أردتم. ان الموت بيد الجلاد
أقل شرفاً من السقوط في الميدان. لسكني اتقبل الموت فرحاً، فقد قدمت
بواجبي في ميدان العمل الذي اخترته لنفسي، فقوموا أتم بواجبكم
كما تحتمه عليكم قوانينكم العسكرية!

حار ابراهيم في أمره. ورأى نفسه في موقف حرج بين الابن
والأب، وكل منهما يطلب العقاب. فالتفت الى نصار وقال:

— أرغب اليك يا أخي أن تكون شفوفاً رحيماً. وأن تبقى علي
حياة ولدك. فقد عفوت عنه. ولا أطلب منه الا شيئاً واحداً، وهو أن
يظل أسيراً في معسكرنا الى ما بعد انتهاء المعارك، فنطلق سراحه حينذاك،
ويعود الى قبيلته حراً طليقاً. أما اذا أردتم أن تعاقبوه، فليكن ذلك في

مضارب قبيلتكم وبقرار من رؤساء عشائركم
فنهض نصار والشرر يتطار من عينيه ، ووضع يده على قبضة سيفه
وصاح :

— عفوك مولاي . ان من يخاطبك الآن ليس الزعيم المرموس ،
بل أمير قبيلة عربية ، لم تقدم قط على عمل معيب ، ولم تحمق قيد شعرة عن
قواعد الشرف والتقاليد الموروثة ، ورب أسرة بدوية لم يبلطخ أحد من
أفرادها سمة ذويه بنقيصة أو خيانة . أتطلب مني يا مولاي ان أسكت على
فعلة شماء كهذه ؟ إن المائل أمامكم الآن جاسوس أرسله العدو للايقاع
بكم . فاذا كنتم جميعاً تشفقون عليه اكراماً لي ، فشفقتكم في غير محلها ،
واكرامكم اهانة . دعوني على الاقل أقتص منه بيدي ، وأنزل به العقاب
الذي ترددون في الحكم به عليه ، اذا كنت يا مولاي ترباً بسيفك أن
يقطع رأس هذا الجبان لانه ابن قائد من قوادك ، فدعني اذن أقم
مقام ذلك السيف ، وأقطع بيدي رأس هذا الابن العاق ، الذي لم يمد
أهلاً للدخول في حظيرة أسرته ، والتربع في مضارب عشيرته !

واستل نصار سيفه وهم بالانقضاض على ابنه . فوققه ابراهيم بإشارة
منه ، وهو مضطرب قلق ، لا يدري أي قرار يتخذ . ثم التفت الى مصطفى
قائلاً :

— وفر علينا يا مصطفى مؤونة هذا المشهد الهائل . لا تدع أبالك
يرتكب على مرأي منا فعلة فظيعة كهذه . انزل بنفسك العقاب بيدك ان
كنت رجلاً !

فساد المجلس سكوت رهيب ، واكتفه سكون أشبه بسكون القبور !
ولجأة ، وضع مصطفى يده على قبضة خنجره ، واستله بسرعة ،
وأغمده دفعة واحدة في صدره ، فخر على الارض صريعاً يتخبط بدمه
وأعاد نصار سيفه إلى غمده ، وألقى بنفسه على جثة ولده يغسله

بدموعه . ويقبل ذلك الوجه الذي كان منذ لحظة لايجرؤ على النظر اليه
ثم نهض والدمع ينهمر من عينيه وقال :
— مولاي . علمتنا الشجاعة والحنكة في القتال . وعلمتنا الحكمة
وأصالة الراى بعيداً عن ساحة الحرب . فدع الآن هذا الأب الحزين
المسكين يقبل يدك شاكراً !

بسط له ابراهيم يده فغمرها بالقبلات . ووضع الأمير على جبين
ذلك الأب النبيل قبلة حارة وقال :
— لقد ألقيت علينا جميعاً يا نصار درساً في الشهامة والشرف والتمسك
بأهداب الفضيلة . وليت الآباء جميعاً يسرون في الطريق الذي سرت
فيه ، وينسجون على منوالك ، واضعين الواجب فوق العاطفة !

obeykandi.com

كوتاهية

في شهر مايو سنة ١٨٣٣ حطت قافلة كبيرة رحالها في تدمر ، بين الحرائب والآثار ، الناطقة بعظمة عهد مجيد مضى وانقضى . وبعد أن رفع العربان عن جماهم الاحمال والاثقال ، وضربوا في ذلك المكان أطناب الخيام ، تفرق الجميع طلباً للراحة من عناء السير مدة خمسة أيام بلياليها

وفي مضر برفيع العماد، منبسط في وسط الخيام الأخر ، في كنف قوس النصر المتهدم ، جلست عشرون امرأة وفتاة من بنات الاعراب ، حول غادة هيفاء ، قمحية اللون ، حادة النظر ، قوية العضلات ، توسطت حلقتهن وخاطبتهن قائلة :

— لقد قطعنا الآن يا اخواتي العزيزات المرحلة الأخيرة من سفرنا الشاق . وغداً ، بعد أن نأخذ نصيبنا من الراحة ، سنفترق وتعود كل جماعة منا إلى حبيها ومضارب عشيرتها . ولا شك عندي في انكن تحملن بين جوانحكُن ، كما أحمل أنا ، أحسن أثر لتلك الاعمال المجيدة التي قمنا بها ، في صفوف الغازي المظفر !

فوافقت النساء والفتيات جميعاً على قولها ، وانفرط عقدهن ، وذهبت كل منهن إلى خيمتها

وفي اليوم التالي ، شدت القوافل الرحال من جديد ، واتجهت كل

منها إلى ناحية ، في تلك الصحراء المترامية الاطراف ،
أما الغادة الهيفاء ، القمحية اللون ، الحادة النظر ، القوية العضلات ،
فقد امتطت صهوة جواد عربي أصيل ، وأطلقت له العنان ومعها خمسة
فرسان يمتطون مثلها الجياد المظهمة ، وانطلق الجميع ينهبون الارض نهباً
إلى دمشق الفيحاء ، المتربعة هناك ، وسط غوطتها ، الخضراء ،
وينابيعها العذبة ، وأزهارها العطرة

من هن أولئك النسوة ، ومن هي تلك الفتاة الحسنة ؟
لنعد قليلاً إلى الوراء ، إلى اثني عشر شهراً مضت ، إلى مايو سنة
١٨٣٢ ، عندما كان الجيش المصري بقيادة ابراهيم بن محمد علي باشا يثب
إلى الامام وثبة بعد وثبة ، ويضرب جيوش الاتراك في سورية ضربة بعد
ضربة ، ويدون بالحديد والنار ، في سجل التاريخ ، معركة بعد معركة
ونصراً بعد نصر .

في مايو سنة ١٨٣٢ ، أعدم الاتراك ضرباً بالسيوف خمسة من
زعماء القبائل العربية ، كانوا قد انضموا برجالهم إلى المصريين ، وجعلوا
يهاجمون الحاميات التركية ويطاردون رجالها ، إلى أن خاتمهم الحظ في
احدى المعارك ، فوقعوا في كمين اقامه الاتراك في صحراء تدمر ، وكان
نصيبهم التعذيب فالوت

لكن رجال القبائل لم يلقوا السلاح بعد مصرع زعمائهم ، بل ظلوا
يقاتلون إلى النهاية . واستعرت في صدورهم نار الحقد ، فراحوا يطالبون
بالثأر ويسعون اليه بحد السيف وطرف السنان

وبلغ النساء في مضارب القبائل خبر مقتل الزعماء . ففضبت
احداهن ، وهي «ماء السماء» بنت حمدان الزغبى ، من عربان بني صخر ،
ورفعت عقيرتها داعية نساء العرب وبناتهم إلى السلاح ، لمشاركة الرجال
في طلب الثأر والانتقام للدم المسفوك

فلبت النساء والبنات الندوة الى القتال . وسارت ماء السماء بنت
حمدان الزغبى على رأس كتيبة من ثلاثين امرأة وفتاة ، يطلبن الطمن
والنزال في الميادين

واشتركت تلك الكتيبة في المعارك التي دارت رحاها بين المصريين
والأتراك ، في سنتي ١٨٣٢ و١٨٣٣ ، في دمشق وحمص وحلب وبيلان
وقونية وغيرها . وقتل من أولئك « الفارسات » الباسلات عشر نساء
وفتاة ، وعادمنهن الى احياء العربان عشرون فقط
ولم يحملن على العودة الى الصحراء خور النفس و ضعف القلب ،
بل حملن على ذلك وقوف رحي القتال ورجوع المصريين الى الورا ،
بعد أن عقد السلطان مع محمد على باشا معاهدة وضعت حداً للحرب
والكفاح

بعد أن طحن ابراهيم الجيش التركي طحناً في معركة قونية الدموية ،
ظل الفاتح مقياً في تلك المدينة بضعة أسابيع . ثم نهض بجيشه الى الامام ،
واحتل مدينة « كوتاهية » بلا مقاومة ، ولبت ينتظر فيها أوامره
وكانت السياسة في اثناء ذلك تلعب دورها . وتدخلت روسيا وانجلترا
وفرنا لحسم النزاع بين العدوين المتحارين . وسافر الجنرال مورافيف
الروسي الى الاسكندرية لمفاوضة محمد على باشا ، بعد أن طلب الى ابراهيم
باشا أن لا يتقدم بجيشه نحو البوسفور ، انتظاراً لنتيجة تلك المفاوضات
وفي ١٣ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٣٣ وصل الجنرال
مورافيف الى الاسكندرية ، ووصل اليها أيضاً رسول السلطان محمود
الثاني . ودارت بين الثلاثة محادثات ودية ، ما عتمت أن تحوات الى
مناقشات حادة ، قال في خلالها القائد الروسي إن حكومته لن تسمح
لابراهيم بان يتخطى حدوده ويستولى على الاستانة

واشترك في المفاوضات مندوبون آخرون ، يمثلون تركيا وفرنسا
وإنجلترا ، ووافق محمد علي باشا على الامتناع عن التقدم الى الأمام ، لكنه
تمسك بمطالبه ، ورفض اجابة الدول الى الشروط القاسية التي أرادت
أن تملئها عليه ، وقال إنه سيحتفظ بالقوة بالولايات التي انتزعتها من
السلطان بالقوة !

اعتصم محمد علي باشا بالحزم . واعتصمت روسيا بالحزم أيضا .
ورأت فرنسا وإنجلترا أن استمرار الحرب بين مصر وتركيا سوف يؤدي
إلى تدخل روسيا تدخلا عسكريا ، فراعهما ذلك ، لاجبا بمحمد علي
وبمصر ، بل خوفا على مصالحهما ، خملتا السلطان على الخضوع ، وطلبتا
منه أن يعقد مع عدوه المنتصر صلحا يضمن حقوق الطرفين

وفي ٦ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ — الموافق ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٤٨ —
صدر الحط الشريف بتأييد حكم محمد علي باشا على مصر وجزيرة كريت ،
والتنازل له عن الحكم في سورية ولبنان وادنه ، وتجديد ولاية ابراهيم باشا
على جدة ، ومنحه لقب شيخ الحرم المكي

وفي ١٤ مايو سنة ١٨٣٣ — الموافق ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٤٨
عقدت معاهدة كوتاهيه بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا ، ووقع
عليها مندوبا الفريقين ، أي البارون روسان سفير فرنسا في تركيا بالنيابة
عن السلطان محمود ، و ابراهيم باشا بالنيابة عن أبيه

وبعد التوقيع على هذه المعاهدة ، وضعت الحرب أوزارها في
الاناضول ، وعاد ابراهيم باشا أدراجه بجيشه المظفر ، الى ما وراء
الحدود التي عينتها نصوص معاهدة كوتاهيه

وعاد المتطوعون الى أوطانهم ، فرحل العربان الى الصحراء ،
ورجع اللبنانيون الى جبالهم ، ودخل الفتح المصري في طور جديد ،
طور الإدارة واصلاح ما افسدته الانظمة السابقة ، وظروف الحرب
ومقتضياتها

وتعد معاهدة كوتاهية خاتمة المرحلة الأولى من عهد الحكم المصري في سورية ولبنان والناضول . فبعد أن أظهر ابراهيم باشا مواهبه النادرة كقائد وجندي ، بقى عليه أن يظهر مقدرته كحاكم واداري

وقد عادت المتطوعات العربيات ، بقيادة ماء السماء بنت حمدان ازغبي ، مع من عاد الى المضارب والاحياء من متطوعي البادية . وجعلت كل منهن تقص على الذين تخلفوا في الديار ، أخبار المعارك التي خاضت المتطوعات غمارها ، وجنين ثمارها ، انتصاراً للمصريين وانتقاماً من اعدائهم ، وطلباً لثأر الزعماء الذين اعدموا بحد السيف !

obeykandl.com

صلبة الوهاية

بعد أن تم التوقيع على معاهدة « كوتاهية » بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا ، تراجع ابراهيم بجيشه ، وانسحب من المناطق التي لم تعترف بالمعاهدة بسلطة أبيه عليها ، الى ما وراء الحدود التي تقرر أن تكون فاصلة بين سورية الخاضعة لمصر ، والاناضول الخاضع لتركيا . وانصرف ابراهيم باشا الى تنظيم الادارة ، واقامة حاميات عسكرية في البلاد ، لجعلها في مأمن من هجوم جديد . وكان جيش ابراهيم باشا يبلغ في ذلك الوقت سبعين الف مقاتل . فشد معظم تلك القوة في الشمال . ووقع اختياره على انطاكية فجعلها مقراً له ، ومركزاً عاماً للقيادة ، نظراً الى موقعها الحربي

أما من الناحية الادارية ، فان ابراهيم باشا أدخل تعديلات كثيرة على النظام الذي كان متبعاً من قبل ، فاصبحت القاهرة مرجعاً أعلى لادارة الاقطار السورية . وأصدر محمد علي باشا مرسوماً بتعيين ابنه ابراهيم حاكماً عاماً على البلاد ، وقائداً للجيش المصري فيها . واختار ابراهيم أشد أعوانه اخلاصاً له ، فعينهم حكاماً على الولايات التي انشئت في سورية من جنوبها الى شمالها ، فأصبح شريف باشا حاكماً على فلسطين والشام ، وحاملاً لقب « حاكم دار عربستان » وسليمان باشا الفرنسي حاكماً على صيدا ، واسماعيل بك حاكماً على حلب ، وأحمد منيكلي باشا حاكماً

على اذنة ، وغيرهم من القواد حكاما على مختلف الولايات والمقاطعات
والقيت مقاليد الامور في جبل لبنان ، إلى حليف المصريين في حروبهم ،
الأمير بشير الشهابي الكبير ، اعترافا من ابراهيم بخدماته واخلاصه

عزم ابراهيم ذات يوم على القيام برحلة في انحاء البلاد ، للوقوف
بنفسه على مبلغ العناية بتنفيذ أوامره ، وقيام الحكام والمتسلمين والباشيرين
بواجبات مناصبهم ووظائفهم ، فغادر انطاكية في موكب عظيم ، وبدأ
طوافه من الشمال

وصل إلى حلب ، فقبول من السكان بالترحيب والتهنئة ، ونزل في
قلعة المدينة التاريخية ، تلك القلعة التي اُمت في تاريخ مصر وتركيا دوراً
عظيماً ، والتي بنى فيها السلطان « قانصوه الغوري » السور الحظ برجا
هائلا ، وضاعف حصونها وأسوارها ، على أمل أن يعتصم فيها ويصد
جحافل الاتراك عن ملكه . ولكنه أصيب بالفشل ، ولحق حتفه في معركة
« مرج دابق » المشهورة

أقام ابراهيم في القلعة ، وطاف المنادى في المدينة طالبا ممن عنده
مظلمة أو أمنية أن يرفعها إلى القائد الحاكم
وفي اليوم التالي ، وصلت إلى القلعة كوكبة من الفرسان العرب ،
فترجل أحدهم عن جواده ، وتقدم إلى قائد القلعة طالبا منه السماح بمقابلة
ابراهيم :

— قل للامير إن ابن « غالية الوهاية » يرغب في الشول بين يديه
وما سمع ابراهيم هذا الاسم ، حتى نهض من مكانه وعلى شفثيه
ابتسامة الرضى ، وقال :

— ليدخل . وليدخل معه رفاقه إذا كان قادما مع فرسانه الاشاوس .
ولما تخطى الشاب العربي عتبة الباب ، أسرع إلى ابراهيم وتناول
يده وطبع عليها قبلة وقال :

— جئت لتحية الأمير مع أبناء عشيرتي ، بعد أن شفيت من الجرح الذي أصابني في قونية

— أهلا بك يا سرحان . إنني أحفظ لك الجميل على ما صنعته في قضيتنا المشتركة . فبارك الله فيك وفي اخوانك ليوث الصحراء !

من هو سرحان ؟ ومن هي امه غالية ؟

إن لتلك المرأة قصة ، كان ابراهيم يذكرها في كل مجلس :
لبي محمد علي باشا نداء السلطان ، وأعد عدته لتجريد حملة عسكرية على الحجاز ، وانتزاع المدن المقدسة من الوهابيين ، الذين كانوا قد احتلوا مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبسطوا سلطانهم على شطر من جزيرة العرب ، ومنعوا المسلمين من القيام بفريضة الحج ، ودعوا العالم الاسلامي بأسره ، الى اعتناق تعاليم الامام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي النجدي

خرجت الحملة المصرية في سنة ١٨١٢ بقيادة الامير طوسون ، نجل محمد علي باشا . وكان في ذلك الوقت شابا يناهز الثامنة عشرة من العمر . فاصطدم المصريون بمجموع الوهابيين في « بدر » وأحرزوا عليهم فوزاً ميبيناً

لكن الوهابيين نظموا صفوفهم من جديد ، وجمعوا ثملهم ، وحملوا على الجيش المصري حملة شديدة ، اضطرت طوسون إلى التقهقر والعودة إلى « ينبع » على ساحل البحر الأحمر

وأرسل محمد علي باشا إلى ابنه النجدات ومعدات القتال . فاستأنف طوسون باشا الزحف الى الامام ، واستولى على المدينة ثم اخرج الوهابيين من مكة واحتل الطائف

— ولكن القبائل الوهابية لم تترك إلى الهدوء ولم تياس من النصر ، بل أعادت الكرة وقاتلت الغزاة قتالاً عنيفاً . وتمكن الامير سعود

من كسر الجيوش المصرية في موقعة « تربة » كسرة شنيعة . فأرسل طوسون باشا يستغيث بأبيه ، ورأى محمد علي باشا ان خير وسيلة لانقاذ الموقف ، أن يشخص بنفسه إلى الحجاز على رأس جيشه

وفي سنة ١٨١٣ لحق محمد علي باشا بابنه إلى أرض الحجاز ، ووقعت بين المصريين والوهابيين معارك دموية ، استبسل فيها الفريقان وسالت فيها السماء ، فارتوت بها رمال الصحراء المحرقة

أربع سنوات رأت فيها الجزيرة العربية ما لم تر مثله من قبل ، منذ أن خرجت منها كتائب المسلمين في عهد النبي العربي الكريم والخلفاء الراشدين ، لفتح الاقطار وإخضاع الامصار : رأت قبائل تسير إلى القتال وفيها الشيوخ والكهول والاطفال والنساء والفتيات

رأت جنوداً مدربين ، في ازياج لم تعهدها من قبل ، يحرون وراءهم معدات الهلاك والدمار ، وعتاداً لم تألفه الصحراء في سابق الايام

رأت الجحافل تشتبك في معارك تلمع فيها السيوف والرماح ، وتقذف فيها النيران من أفواه حديدية ، بين صهيل الخيول وصيحات المقاتلين : ويتسابق فيها الفريقان إلى النصر ، وقد صح في هؤلاء وأولئك قول النابغة الذبياني :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصاب طير تهتدي بعصاب ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب !

وظل المصريون والوهابيون بين أخذ ورد ، وكر وفر ، وهجوم ودفاع ، إلى أن استولى محمد علي باشا على معاقل خصومه واحداً فواحداً ، ولم يبق أمامه غير بلدة « الدرعية » وهي التي انبعثت منها دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب ، قبل ذلك الوقت بمائة سنة

واستدعت أحوال مصر عودة محمد علي باشا إلى القاهرة ، فوصل إليها في الشهر السادس من سنة ١٨١٥ ، تاركاً ابنه طوسون باشا في

الحجاز ، حيث احتل الدرعية وعقد الصلح مع الأمير عبد الله الوهابي
ولكنه اضطر الى اللحاق بأبيه الى مصر ، حيث وافته منيته في

سنة ١٨١٦

وقد حدث لمحمد علي باشا ، في حروبه مع الوهابيين ، حادث ظل
ذلك الرجل العظيم يذكره طول أيام حياته ، ويقصه على سامعيه في
المجالس والولائم

كان ذلك في سنة ١٨١٤ ، قبيل معركة «تربة» الثانية ، التي انتصر
فيها المصريون على الوهابيين ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، وأرغموا القبائل
الحجازية بعدها على التخلي عن الأمير عبد الله خليفة الأمير سعود ،
والانضمام اليهم ومساعدة الجيش المصري بالموثون والذخائر

كانت بعض القبائل العربية ، من شمر وعنزة والحويطات وغيرها ،
محافظة على تقاليد موروثه في البادية جيلا عن جيل ، وبين تلك
التقاليد عادة متبعة عند تلك القبائل ، في الحروب والغزوات

كانت للمرأة عند القوم منزلة خاصة . وكان للجمال عندم احترام
واجلال . وكانت كل قبيلة تباهي وتفخر بالفيد الحسان اللواتي تأوين
مضارب القبيلة ، ويتسابق فرسانها لارضائهن والفوز بهن

وإذا ما غزت إحدى القبائل قبيلة أخرى ، كان كل من الفريقين
يخرج من الخيام عادة حسانا ، ترتدى أفر ما عندها من ثياب ، وتضع
في معصمها الأساور وفي كعبها الخلاخيل ، وتجلس في هودجها على ظهر
ناقة ، فيلثم حولها الشيب والشبان ، ويستمتت الفرسان في الدفاع عن
هودج الحسان ، ومنع الأعداء من الدنومنه ، بينما صاحبة الهودج تنشد
الشعر وتبعث الحماسة في نفوس المحاربين ، فتساقط جثثهم حولها
كأوراق الشجر في الحريف !

وكان فريق من عرب شمر يحارب في ذلك الوقت مع الوهابيين ،
وان لم تكن قبائل نجد والحجاز وبادية الشام قد اعتنقت جميعها مذهب
محمد بن عبد الوهاب

وحدث قبيل معركة تربة الثانية ، ان هاجم فريق من الجيش
المصري قبيلة معادية ، فشنت شملها ، وأسر زعماءها ، وبينهم امرأة
تدعى « حليلة » جيء بها إلى محمد علي باشا في مضر به
كان عزيز مصر قد سمع بأمرها من قبل ، وعلم أن امرأة تقود قبيلة
عربية نجدية ، وتحارب في صفوف الوهابيين منذ اليوم الذي هبط فيه
المصريون أرض الحجاز ، وانها ابلت في المعارك بلاء حسنا ، وأن جنوده
يخافونها ويحسبون لها الف حساب
ولما جيء بها اليه ، خاطبها قائلا :

— لقد بلغتني أخبارك يا حليلة . وقيل لي انك تقودين الفرسان
في الميادين . ولا يسعى الا أن اجل فيك الشجاعة والاقدام
والاباء . وساعفوك عنك وأطلق سراحك ، إذا كنت تعدينني بالاقلاع
عن الحرب ، والاخلاد إلى السكينة . فهل تعدينني بذلك ؟
فأجابته حليلة :

— كلا . لا اعدك بذلك يا باشا . وإذا خرجت من هنا ، فاني
سألحق بقومي وأعود إلى الحروب والقتال !
— إذن ستظلين أسيرة عندنا !

وأمر محمد علي باشا باعتقالها ومعاملتها بالحسنى . فارسلت حليلة
النجدية الى المكان الذي أعد لاقامة الاسرى
وبعد أيام ، وقعت معركة تربة الثانية ، وكان محمد علي باشا يقود
الجيش المصري فيها بنفسه
وفي اثناء القتال ، جاءه احد ضباطه ، وقال له إن جموعا غفيرة من

العرب تتقدم من الميسرة . فانتقل محمد على باشا إلى مكان الخطر ، وأصدر أوامره حسباً تقتضيه الحالة ، وبات ينتظر نتيجة القتال وتغلب المصريون على الوهابيين في تلك المعركة ، وأجلوم عن مراكزهم ، فانطلقوا بجيادهم النجدية يطلبون النجاة في الصحراء ، يطاردهم فرسان الجيش ويتعقبون آثارهم . وكان لذلك الانتصار أثر عظيم في إستقرار الحال ، وبسط نفوذ محمد على باشا على الاماكن المقدسة

وانتقل عزيز مصر بعد المعركة إلى محلة الاسرى ، وجعل يعرضهم ويتفقد الجرحى من المصريين والوهابيين ، وإذا به يقف مبهوراً أمام منظر لم يكن في الحسبان

رأى محمد على باشا بين الجرحى امرأتين !

وعرف إحداهما ، فخاطبها قائلاً :

— كيف اجدك في ميدان القتال يا حليلة ، وعهدى بك بين الاسرى بعيدة عن هذا المكان ؟

فرفعت حليلة رأسها ، وقالت بصوت خافت متهدج :

— لقد فررت من بين الاسرى وعدت إلى القتال اوانني استشهد اليوم وأموت سعيدة . فقد قتل أخى ، وقتل زوجي ، وقتل ولدي في هذه المعركة ! وأراد الله أن يكون النصر حليفك اليوم . وسيكون حليفنا غداً !

والتفت حليلة إلى رفيقتها ، وقالت :

— أستودعك الله يا غالية . وأرجو ان يكون حظك من الجهاد أوفر من حظي !

وقاضت روحها على مرأى من محمد على ورجال حاشيته . فأمر بأن تدفن مع زوجها وأخيها وابنها ، إذا استطاع الجنود أن يعثروا على جثثهم بين أشلاء القتلى

أما «غالية» رفيقة حليلة ، فقد أخلى محمد علي باشا سبيلها ، وأمر أطباء جيشه بان يسمفوها بالعلاج

وإذا كانت حليلة النجدية الوهاية ، قد ماتت في الميدان والسيف بيدها ، فإن رفيقتها غالية ، النجدية الوهاية مثلها ، ظلت تذكر عفو محمد علي عنها ، وعطفه عليها ، فلم تعد إلى الحرب بعد أن شفيت من جراحها وظل محمد علي باشا يذكر المرأتين المربيتين الشجاعتين ، كلما دار في مجلسه حديث عن حروب الوهايين

وعندما زحف ابراهيم على سورية بجيشه الفاتح، وانضم إليه فريق من العربان الضاربين في بادية الشام وشمال الحجاز ونجد ، نادى «غالية الوهاية» ابنها «سرحان» وقالت له:

- أمي بني ! اني الآن على فراش الموت . وبعد أيام معدودة ، سوف أفارقك ، على أن نجتمع من جديد في جنة الخلد . ووصيتي اليك يا بني أن تكون دائماً أبداً سابقاً الى ميادين القتال . ان الحرب القائمة الآن بين المصريين والأتراك ، تفتح أمامك ابواب الخلود . فسر الى القتال كما سارت اليه أمك من قبل ، وتقدم الى ابراهيم بن محمد علي ، وقل له إن أمي غالية، رفيقة حليلة الوهاية في جهادها ، أرسلتني اليك لكي أخوض المعارك مع رجالك جنباً الى جنب ا

وقاضت روح غالية في الوقت الذي كان فيه ابراهيم يضرب الحصار على عكاه . فغادر سرحان احياء قومه وخف الى الميادين

واشترك في المعارك من عكاه الى دمشق والزراعة وحمص ونصيبين وقونية ، حيث أصيب بجرح في صدره ، شفى منه بفضل عناية الاطباء المصريين به . فجاء الى حلب يستأذن من القائد العام بالعودة الى بلاده فأذن له ابراهيم وقال :

— ثق يا سرحان ان ذكرى غالية وحليمة ستظل حية في صدورنا ما بقينا نحن احياء !

صباغ

أقام ابراهيم باشا في قلعة حلب مدة من الزمن ، صرفها في تنظيم الادارة وتوزيع المناصب والوظائف على أعوانه . فعين اسماعيل بك حاكما على المدينة وملحقاتها . وأقام الحاميات على الحدود . وأرسل في طلب زعماء العشائر ومشايخ العرب ، الذين حاربوا معه وخاضوا المعارك مع جيشه ، فعهد اليهم بالسهر على الأمن كل في منطقته

وكان ابراهيم يحفظ الجليل لأولئك العربان ، الذين شدوا أزره في الميادين وكانوا له عوناً على الأتراك . فقد وجد فيهم الأدلاء الأمناء ، والخلفاء المخلصين ، والاصدقاء الأوفياء . وعزم على الاحتفاظ بصدقاتهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، لكي يساعدوه في المحافظة على الامن كما ساعدوه من قبل في احراز النصر

وكان يعجب على الخصوص بالنساء العربيات البدويات ، اللواتي كن يرافقن الرجال في الحروب ، ويقدن الكتائب أحياناً في ساحات الوغى . وكان يقول لجلسائه دائماً :

— ما دامت نساء العرب مخلصات لجيشي ، فاني لا أخشى هزيمة في

الميادين !

وكان يحرص كل الحرص على استرضاء أولئك النساء المحاربات ولا يرفض لمن طلباً . واذا كانت القبائل العربية التي عاونته في حروبه

قد أخلصت له الود ومشت معه الى النهاية ، فالفضل كل الفضل في ذلك
عائد بلاشك الى استبسال النساء ، وحثهن الرجال على الانضمام الى الغزاة
الفاحين

علم ابراهيم ، وهو مقيم في حلب ، أن عشيرة من البدو ضربت خيامها
في سهل « مرج دابق » وأن تلك العشيرة تخضع لامرأة ، يدعى
الرجال لارادتها وينفذون أوامرها بلا تردد ولا جدال ، وأن المرأة
تطلب من القيادة المصرية السماح لها بالبقاء حيث حطت عشيرتها
الرجال ، أي في مرج دابق ، على أن تبقى العشيرة تحت السلاح متأهبة
دائماً للقتال

أرسل ابراهيم في طلبها ، فجاءت وحولها كوكبة من الفرسان ،
وعلم منها ابراهيم ان العشيرة تنتمي الى عرب « عنزة » وانها تحافظ
على تقاليد موروثه من قديم الزمان ، وتسير دائماً الى الحروب بقيادة
امرأة

ومعظم النساء اللواتي قدن العشيرة من قبل الى الغزوات يحمن
اسم « صباح » عملاً ايضاً بتلك التقاليد التي تحافظ عليها العشيرة
فكيف نشأت تلك التقاليد ؟ ومن هي « صباح » ؟
لترك ابراهيم في قلعة حلب ، يصغى الى العربان وم يقصون عليه
قصة عشيرتهم ، ولنتصفح نحن تلك الصفحة التي دونتها نساء العشيرة
بدمائهن ، فأهملها التاريخ ولم يحتفظ بها في سجلاته

في أوائل القرن العاشر للهجرة ، الموافق للقرن السادس عشر للميلاد ،
كانت مصر خاضعة لحكم السلاطين الشراكسة ، وكان أولئك السلاطين
قد بسطوا نفوذهم أيضاً على الاقطار الشامية ، فامتد ملكهم من صفاق
النيل إلى جبال طوروس

وفي سنة ١٥٠٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٠٧ للهجرة ، سقط طومان باى الأول تحت خناجر المماليك ، الذين بايعوا قانصوه الرابع ، فجلس على العرش ، ولقب بالملك الأشرف قانصوه الغورى وهو الذى شيد الجامع المعروف بجامع الغورى ، وأطلق اسمه على أحد أحياء القاهرة المعروف بالغورية

وكان بين القواد الذين أولام السلطان الغورى ثفته ، وعلق عليهم آماله في صد الغزاة عن حدود مملكته الشاسعة ، رجل عربي يدعى « هانىء » جاء من بادية الشام الى مصر ، وأقسم بيمين الطاعة للسلطان ، فولاه قيادة كوكبة من الفرسان ، فكان ذلك العربي الوحيد بين القواد الذي لا يمت الى المماليك بنسب ، والذى لم يخرج من البيئة التى خرجوا منها

وكانت تعيش في قصر السلطان في ذلك الوقت ، بين السراري والجوارى ، امرأة ساحرة العينين ، وضاححة الجبين ، ممتلئة الجسم ، أرسلها « خير بك » نائب حلب هدية الى مولاه . وكانت تلك المرأة تتألم من الاسر ، وتحن الى الصحارى والقفار ، لأنها عربية قادهها رجال خير بك سبية ذليلة في احدى الغزوات ، فلم تطق صبراً على حياتها الجديدة ، وظلت تتحين الفرص للهرب من قصر السلطان ، والعودة اذا استطاعت الى باديته ورجالها وعشيرتها

وكان هانىء العربي أحد رجال القصر الذين تمكنت تلك المرأة - واممها صباح - من الاتصال بهم لتمهيد سبيل الفرار لها . وقد سطت على الشاب العربي بسحر عينها ، وأثارت في صدره النعرة القومية ، فغلت مراحل الدم البدوى في عروقه ، وجعل يعد العدة لانقاذ المرأة من أسرها ، ورحيلها الى بلادها ، دون أن يشعر سيده ومليكه بأنه يخون الأمانة ويستغل الثقة

ونجح هانىء ، في تنفيذ الخطة التى رسمها لانقاذ « صباح » .
وفي سنة ١٥١٤ ، كانت المرأة بعيدة عن القاهرة ، فى طريقها الى صحراء
سيناء وجبال لبنان وسهول حمص وحماه - وبادية الشام مفرق قبيلتها
ولكن منقذها ندم على ما صنعت يدها ، وجاءت ندامته بعد فوات
وقتها : ندم على ترحيل المرأة عن مصر ، لأنه شعر بعد رحيلها بمأظفة لم
يكن قد أدرك معناها ومداهما من قبل ا

شعر هانىء بأنه يحب المرأة ، وأن حبه ليس وليد ساعة بل ريب
شهور ، ولكنه لم يفتن اليه الا بعد أن أصبحت الحبيبة بعيدة عن
ديار يقيم الحبيب فيها ا
فما العمل ؟

لم يبق أمام العاشق الا أن يلحق بتلك التى أثارت فى صدره غرامه
العميق ، والتى أغضب فرارها الملك الأشرف فانتقم من العبيد والحرس
الابرياء ، وقتل منهم أربعة بتهمة الاشتراك فى اخراج المرأة العربية من
قصره

ولم يدر قط فى خلد السلطان الغوري ان لهانىء يداً فى فرار صباح ،
فمهد اليه بالبحث عنها ، وطلب منه أن يلحق بها إلى أرض الشام ، على
أمل أن يعثر عليها فى الطريق ، ويعيدها ذليلة خاضعة الى القصر ،
حيث ينزل بها السلطان الشيخ عقاباً استحقته وعذاباً أرادته لنفسها

كان قانسوه الغوري فى ذلك الوقت قد بلغ الثامنة والسبعين من عمره .
ولكنه أبى الاذعان لصوت العقل ، ولم يعترف للطبيعة بحقها على البشر
رجالاً ونساء ، وبأن امرأة فى مستقبل العمر ، جميلة قوية تجرى فى
عروقها دماء نقية فنية ، تأنف البقاء فى كنف رجل أحنت السنون
ظهره ، وأخذت الشيخوخة بريق عينيه ، ودب الفتور الى جسمه
المشرف على الفناء

أصدر السلطان المنألم في كبريائه أمره الى القائد العربي ، وزوده
بالمال والرجال ، وأطلقه في أثر المرأة الهاربة
وهذا ما كان هانىء يرغب فيه ويتوق اليه !

* * *

سنة ١٥١٦ للميلاد — الموافقة لسنة ٩٢٣ للهجرة

سنة دونت في صفحة التاريخ بأرقام من حديد ودم ونار، وأقامت
فاصلا بين عهد وعهد ، وبين عصر وعصر ، وبين ماض ومستقبل ا
زحفت جيوش العثمانيين ، بقيادة السلطان سليم الاول ، على تخوم
الشام . ووقفت في السهول والجبال ، ترقب الفرصة السانحة للانقضاض على
الممالك والامارات الخاضعة لسلاطين مصر . ودارت مفاوضات بين
السلطان العثماني الفاتح . والسلطان الاشرف قانصوه الغورى ، ظهر من
مقدماتها أن الحرب واقعة لاجالة بين الفريقين ، وأن الميدان لا يتسع
لمطامع الحصنين ، وأن لا بد من خضوع أحدهما للآخر

وجعل الامراء والاقبال يتباحثون ويتشاورون ، وكل واحد منهم
ينظر الى مصلحته ، ويفكر في الالتحاق بهذا أو بذاك من الجيشين
فأين كان هانىء البدوى : بينما كانت السيوف تشحذ للحرب ،
والخيل تخرج للهجوم ، والكتائب تعبأ للزحف ؟

كان هانىء في ذلك الوقت ينشد أنشودة الغرام في بادية الشام . فقد
اهتدى إلى مقر المرأة التي أحبها ، وعاد الى عشيرته ، وزفت اليه صباح ،
وتحالفت العشيرتان على السراء والضراء

وعندما ارتفع في سهول الشام صهيل الخيول ، ولمع في فضاءها بريق
الصوارم والرماح ، عقد شيوخ العشيرتين مجلسهم ، وتشاوروا فيما بينهم ،
وكان رأي الاغلبية أن يلتحق القادرون على الحرب بجيش السلطان
العثماني الغازى ، وأن يفتكوا بانصار المالك في المعازل والحصون التي
يعتصمون فيها

فعارضهم هانىء في هذا الرأي ، والتمس منهم مهلة معينة ، للذهاب
إلى السلطان الغورى ، والوقوف على مبلغ قوته ، والاتفاق معه على
شروط قد يكون فيها الخير للعشيرتين ، والضمان لابناء الصحراء في
مستقبل الأيام

وغادر هانىء مراتج الحى على أن يعود عندما يتم القمر دورته

شهر اغسطس (آب) سنة ١٥١٦

دار القمر دورته الاولى . . .

ثم دار دورته الثانية ، وهانىء لم يرجع الى الحى تنفيذاً لوعده
عقد الشيوخ مجلسهم مرة أخرى ، ووقفت بينهم صباح ، وقد حلت
شعرها وغفرت وجهها بالتراب ، وصاحت قائلة :

— لقد بطش الملك الاشرف قانصوه الغورى بهانىء ابنتكم وزوج
ابنتكم . لقد غدر ذلك الثعلب الهرم بليث البيداء . فاغسلوا الدم بالدم
ان كنتم رجالا ! اسرعوا الى ملاقاته أولئك المماليك ، وسأنطلق في
مقدمتكم ساعة الى الثأر والانتقام !

وفي اليوم التالي ، كان فرسان العشيرتين ينهبون بخيولهم الارض
نهباً ، في طريقهم الى حلب

أما هانىء فانه كان منطلقاً من جهته الى حلب أيضاً ، ولسكن في
صفوف المماليك

فقد التقى بسيدته ومولاه ، وأعجب بشجاعة ذلك الشيخ الوقور ،
الذى لم يتردد في السير أمام جيشه ، حاملاً على منكبيه عبء ثمانين عاماً ،
مكلاً بشعوره البيضاء ، ويده سيف مسلول أعده لفارعة الابطال في
الميادين ، دفاعاً عن ملكه وذوداً عن حياضه

وقع نظر الملك الاشرف قانصوه الغورى على القائد العربي ، فحياه
قائلاً ، قبل أن يفوه هانىء بكلمة :

— مرحى ، مرحى ! كنت واثقاً انك لن تتخلف عن المحجىء
يا هانىء . خذ مكانك بين الاوفياء من رجالى ، واطربنا بصليل سيفك
في حومات الوغى !

فسار هانىء الى القتال مع السائرين اليه . ونسى أن هناك زوجة
يطير فؤادها شعاعاً عالياً ، ورجالا ينتظرون عودته لتقرير خطتهم في
ذلك العراك الخطير

٢٤ اغسطس (آب) ١٥١٦

مرج دابق !

سهل شامت الاقداران يحفر اسمه بأطراف الاسنة على جبهة الدهر!
في ذلك السهل التقى الجيشان . وفي ذلك السهل التحم الابطال !
وفي ذلك السهل لعبت الخيانة دورها ، فغدر اثنان من الامراء بالملك
الاشرف ، وهما خير بك والغزالي ، وانضموا برجالهما إلى جيش سليم في
ميدان الحرب . وكانت حياتهما هذه نذيراً بانكسار المهاليك ، ورجعت
بسببها كفة السلطان العثماني

واستمات رجال قانصوه في الدفاع عن أنفسهم . وعندما أدرك
السلطان الشيخ أن الدائرة ستدور عليه ، همز جواده ، وصاح في حاشيته
صيحة دوت كهزيم الرعد ، واحترق الصفوف ضارباً بسيفه يمينا ويساراً ،
مجندياً من الفرسان عشرات وعشرات . . .

ولم يعد الى رجاله . . .

ولم يقع عليه النظر بعد تلك الساعة الرهيبه . . .

ولم يعثر احد على جثته في الميدان !

فان الملك الاشرف قانصوه الغوري ، قدم مات موت الابطال الأباة ،

في ساحة الشرف !

— علي به ! علي به ! الخائن يقتل !

صيحات ارسلتها حناجر العربان ، عند ما جرى اليهم بالقائد هانيء
العربي ، موثق اليدين ، والدم يسيل من جرح في كتفه
فقد رآه بنو قومه بين صفوف المماليك ، يتقدم الفرسان ويستحسبهم
على القتال . فاعتقد أولئك العربان ان الرجل خانهم ، وانه ابى الا
ان يحاربهم ويقاثلهم

وعند ما اصيب الفارس الشجاع بجرح في كتفه ، وسقط عن
جواده ، احاط به أبناء عشيرته ، وأوثقوه وقادوه الى شيوخهم
وكانت «صباح» بين أولئك الشيوخ . وما وقع نظرها على زوجها
حق صاحت به قائلة :

— لقد خنت السلطان بالامس من اجلى . وختفي اليوم من اجل
السلطان . ووقعت في قبضة رجالنا اسير حرب وأنت تقاتل في صفوف
الاعداء ، بعد ان خنت القبيلة واخفيت عنها اغراضك ومراميك . فليقل
فيك الشيوخ كلمتهم يا هانيء !

وعبثا حاول الرجل ان يدافع عن نفسه . فان الشيوخ اصدروا
حكمهم عليه ونفذوه فيه

وكان الحكم يقضى باعدام «الخائن !»

قام حب هانيء على اساس الخيانة ، وغرق في تهمة الحياة !
وراح ذلك الفارس العربي شهيد خيانة أولى لم يعلم بها السلطان ،
وشهيد خيانة ثانية لم يرتكبها !

عاد العربان الى باديتهم المترامية الاطراف . وتركوا الجيوش الفاتحة
تنوغل في السواحل ، وتجتاح الاقطار العامرة ، وتقيم حكما جديداً على
انقاض حكم بائد

وظلت «صباح» منذ ذلك الوقت مشرفة على شئون عشيرتها.
ومرت الاعوام فاذا برجال العشيرة ينظرون الى نساءهم نظرة اكرام
واجلال ، ويرون ان خير ما يصنعونه في الحروب ، ان يسلموا قيادهم
لاحدى أولئك النساء الباسلات ، وان يتسجوا في ذلك على منوال
سوام من ابناء البادية

وبعد موت «صباح» الاولى ، عقد كبار رجال العشيرة مجلساً ،
وتشاوروا فيما بينهم ، فوقع اختيارهم على المرأة التي تحل محلها ،
واطلقوا عليها اسم «صباح» تيمناً . وهكذا حملت كثيرات من النساء
اللواتي تتابعن في قيادة العشيرة ذلك الاسم الميمون

ولكن شاءت الاقدار أن تكون «صباح» التي قادت فرسان
العشيرة في حروب ابراهيم باشا في سورية والأناضول ، آخر امرأة تحمل
ذلك الاسم . بل شاءت تلك الأقدار القاسية أن يكون فناء العشيرة
على يدها

فقد أراد اسماعيل بك ، حاكم حلب المصرى ، أن يجمع من
العربان أموالاً اميرية باهظة ، وأن يرهق الرجال بأعمال «السخرة»
التي لم يعهدها البدو الاحرار من قبل . فوقفت «صباح» في وجه الحاكم
العاشم ، وأرادت ان تمنع عن قومها الظلم والحيث . فقابل الحاكم عصيانها
بالعناد ، وسير عليها الجنود لاختضاعها . وعبتا حاولت المرأة ان ترفع
شكايتها إلى ابراهيم ، فان القائد المصرى الكبير كان قد غادر الشمال إلى
لبنان ، حيث كان عماله قد أساءوا التصرف ، واغضبوا الناس ، وحولوا
عن المصريين القلوب

ووقعت معركة بين العشيرة والجنود المصرى ، فحصدت المدافع خيام
العرب ومن فيها ، وتركت مكانها أكواماً من الجثث والانقاض
وهكذا قضى اسماعيل بك ، الحاكم الظالم ، على «صباح» أخت

الرجال وسيدة الفرسان ، وعلى رفاقها الأماناء ، فماتوا جميعا قتلا يقابل
المصريين ، بعد أن كانوا للمصريين عوناً على أعدائهم
وكان إبراهيم في شأغل عنهم ، يواجه الصعاب والمشاكل التي أثارها
أعدائه في أنحاء البلاد ، فكانت نذير شؤم عليه وعلى حكمه في سورية
ولبنان

الضريح الخاوي

ان حادثة والضريح الخاوي ، من الحوادث التي شغلت بال ابراهيم باشا في لبنان ، فهي جديرة بان نفتح لها مكانا هنا ، بين ما نورده من وقائع الحروب والثورات ، وندونه من أقاصيص وذكريات ، عن تلك الحفبة من التاريخ وما تبعها من حوادث

رأينا أن محمد علي باشا كتب إلى الأمير بشير الشهابي أمير لبنان ، بأن يوافي ولده ابراهيم باشا في صحراء عكاه ، أمام أسوار المدينة المحصنة ، برجاله الجليدين الأشداء وفرسانه الشجعان ، وأن ينضم اليه في حروبه وغزواته ، تنفيذاً للعهد التي قطعها الأمير بشير على نفسه ، عندما كان في ضيافة محمد علي باشا في مصر قبل ذلك اليوم بسنوات

ولي الأمير دعاء صديقه وحليفه عزيز مصر ، وسار من مقره « بيت الدين » بصحبه مائة فارس إلى سهل عكاه ، حيث التقى للمرة الاولى بابراهيم باشا ، قائد الجيش المصري المظفر

وكان ذلك في ختام سنة ١٨٣١

وأصدر الأمير بشير أوامره إلى زعماء لبنان وأقباله ومشايخه ، بأن يوافقوا ابنه « الأمير خليلا » بالف مقاتل ، ينضمون إلى المصريين ويحاربون معهم جنباً إلى جنب . وأوفد رسلة إلى أنحاء الجبل ، يدعو القوم إلى القتال ، ويطلب منهم مساعدة الجيش المصري في حله وترحاله

وبعد أن وضع الأمير ، بالاتفاق مع ابراهيم باشا ، خطة العمل في الايام المقبلة ، قفل راجعاً الى قصر بيت الدين ، حاملاً من القائد المصري العظيم وعداً بأن يزوره في ذلك القصر ، وينزل في ضيافته ، عندما تسمح الظروف والاحوال

وصل الامير إلى قصره ، فاذا به يفاجأ بنجر غريب ، دهش له ذلك الرجل الذي عركته الايام والحوادث ، والذي كان يعتقد أن لا شيء يدهشه بعد أن رأى من الدنيا ما رأى !

قيل له ان عبيد القصر كانوا يعملون في الحمامات كعادتهم ، بعد رحيله الى عكا. يوم واحد ، فعثروا في الدهاليز على جثة امرأة لم يتبينوا هويتها ، ولم يعرفوا كيف دخلت الى ذلك المكان خلسة ، دون أن يقع عليها نظر الحراس ، وكيف قتلت دون أن يسمع لها أحد صوتاً !
ثار ثائر الأمير لهذا الخبر . وسأل القوم عما فعلوه بالجثة ، فأجابوه إنهم يحتفظون بها في احدى قاعات القصر ، بعد أن صبوا عليها الادهان والعمطور ، في انتظار عودة الأمير لاطلاعه على ذلك الحادث الغريب

ذهب يشير الى تلك القاعة ، فاذا به أمام جثة فتاة كانت بلا شك جميلة فاتنة ، وقد ظهرت في عنقها آثار خنق ، تدل على أن القاتل استخدم حبلاً للقضاء عليها ، وفي معصمها أساور ذهبية ، وفي قدميها خلدانان من الفضة ، وفي شعرها الاسود الطويل المسترسل حليتان ثمينتان أدرك الامير أنه أمام فتاة تنتمي الى احدى الاسر الغنية الشريفة ، وعزم على تمزيق الحجاب عن سر تلك الضحية المسكينة

وزاد في عزمه ما كان يعتقد في نفسه من قوة الارادة وبعد النفوذ ، أما كان الناس في جميع أنحاء لبنان ، يروحون ويحيثون هادئين مطمئنين ، في ضوء النهار أو في دجى الليل ، دون أن يعترضهم أحد في الطريق ، ودون أن يقع في البلاد حادث اعتداء أو سطو أو سرقة أو قتل ؟ أما

كانت الامثالك تضرب بالامن في انحاء ذلك الجبل الاشم ، مما جعل محمد على باشا نفسه يقول : « لاجعلن مصر آمنة كما جعل بشير لبنان آمناً ؟ » ، كيف اذن تقع مثل تلك الجريمة في بيت الدين ، داخل قصر الامير ، وأي تأثير سيء ستحدثه في البلاد ؟

حاول الامير أن يعرف الحقيقة ، وعرض جثة الفتاة على الناس ، وأرسل المتادين يطوفون القرى المجاورة ، وأوفد الرسل الى أطراف امارته ، وأذاع الخبر في كل مكان ، وعذب الحراس ، وجلد الخدم ، وأمر بقتل العبيد . ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً ، وظل أمر الفتاة الغريبة ، التي وجدت مغمومة في دهايز الحمامات في بيت الدين ، مجهولاً من سيد لبنان الذي كان يعتقد أنه لايجمل شيئاً مما حدث ، ولن يجمل شيئاً مما سوف يحدث !

قامر بشير بان تدفن الفتاة المجهولة في قبر يحفر لها في حديقة القصر ، بين الورود والرياحين . وغادر الامير مقره في بيت الدين ، على رأس فرسانه وفي صحبة ابنائه ، الى ميادين القتال وساحات الشرف ، وقص على ابراهيم باشا قصة الفتاة ، فلم يخف القائد المصري دهشته ، وقال لحليفه :

— أيجرؤ القتل والسفاحون على الابرياء في قصرك يا أمير ، وهم الذين يرتعدون لذكر اسمك ، ولا يتعرضون للمسافرين في امارتك ، خوفاً من عقابك وبطشك ؟ ان هذا الحادث لأغرب حادث سمعت به الى الآن ! فأجاب بشير :

— سوف أعرف حقيقة أمرها . والا فان هذا السر سينفص علي الحياة !

شغلت الحروب والمعارك الامير اللبناني عن متابعة البحث والسؤال والتحقيق ، في أمر تلك الفتاة الغريبة . وكان كلما عاد الى بيت الدين ، يعبر

هذا السر الغامض شطراً من وقته واهتمامه . ولكنه لم يفز بنتيجة
ترضيه ، لا بالوعد ولا بالوعيد

وزاره في قصره الطبيب الفرنسي الشهير كلوت بك ، موفداً من
لدى محمد علي باشا ، لمرافقة الجيش المصري في سورية ولبنان . وأقام عنده
ضيفاً بضعة أيام . واغتم الأمير الفرصة السانحة ، وعهد إلى الطبيب الكبير
بأن يطلب من محمد علي باشا السماح لأربعة شبان من اللبنانيين ، بالذهاب
إلى مصر لدرس الطب فيها مجاناً . فاجاب محمد علي باشا صديقه الأمير
اللبناني إلى رغبته ، وأرسل الأمير أول بعثة طبية لبنانية إلى مصر
وفي أثناء إقامة كلوت بك في بيت الدين ، قص عليه الأمير بشير
قصة الفتاة القتيلة الغريبة ، وأفضى إليه بدهشته وغيظه من عجزه عن
معرفة القاتل وهوية الفتاة

وخطر للأمير خاطر عزم على تنفيذه في الحال . فنادى رئيس
الحراس ، وأمره بأن يعهد إلى العمال بنبش القبر واستخراج جثة
الفتاة الجهولة !

وأسرع رئيس الحرس والعمال إلى تنفيذ الأمر . فرفعوا التربة
وأزاحوا بلاط الضريح ، في حضور الأمير والطبيب كلوت بك
وتراجعوا جميعاً مذهولين حائرين ، ينظر كل منهم إلى الآخر ...
كان القبر خاوياً لا شيء فيه !

وثارت تائرة الأمير الشهابي من جديد ، كما ثارت قبل ذلك اليوم
بسنوات ! ونادى حوله الضباط ورجال الحاشية وخدم القصر والعييد ،
وحاول أن يعرف منهم شيئاً عن اختفاء الجثة ، وعن هذا السر الجديد
الذي شغل باله كالسر القديم

ولكن الجميع أقسموا أنهم لا يعرفون شيئاً ، وأنهم لم يروا أحداً
يقرب من الضريح أو يعبت به

وقال أحد العبيد ، وهو رجل اهداه احمد باشا الجزائر ، صاحب
عكاه ، إلى الأمير بشير :

— انى أرى فى هذا الامر يا مولاي يد ابليس اللعين ! ولا يبعد
أن تكون تلك الفتاة من الجن !

فضحك الامير وهدأت ثورته . وبعد أيام غادره الطبيب كلوت بك ،
فودعه بشير وأغدق عليه العطايا ، وقال له :

— نخيل الى أن أمر هذه الفتاة سيظل سراً دفيناً فى هذا القصر .
وهو طى كل حال السر الوحيد الذي عجز بشير الشاهى عن كشف
الستار عن حقيقته !

ولم يعلم أحد إلى الآن من كانت تلك الفتاة الغريبة ، وكيف دخلت
القصر ، ومن أدخلها إليه ، وأية يد امتدت إليها وخنقتها وتركها
جثة هامدة فى دهاليز الحمامات ، ومن هو القاتل الذي تبع فريسته الى
القبر ، فسرق جثتها وأخفاها فى مكان مجهول !

obeykandl.com

عطين

أيها المسافر ، انت يا من تجتاز أرض فلسطين المقدسة ، عرج بنا إلى شاطئ تلك البحيرة الهادئة الساكنة ، وقف بنا حيناً أمام تلك القرية ، الصغيرة بمساحتها ، الكبيرة باسمها ، الخاملة في حاضرها ، المشهورة في ماضيها ، وطأ شاطئ الرأس خاشعاً أمام تلك الاطلال المحيطة بها ، وهي البقية الباقية من أسوار منيعة ، شيدت من حجارة البراكين الكالحة ، وزعزعتها الدهور إلى أن زلزلت الأرض زلزالها في سنة ١٨٣٧ ، فهدمت تلك الاسوار ولم يبق منها غير ما ترى عينك الآن طالما أهدقت بها الجيوش واندفعت نحوها سيولا جارفة . لكن حجارة البراكين حطمت هجمات تلك الجيوش ، فعادت عنها مقهورة ذليلة فسلام على « طبرية » و ألف سلام على بحيرتها !

أسسها هيرودس في العام السادس عشر قبل الميلاد . واتخذها الاسرائيليون بعد خراب اورشليم عاصمة لهم . واستولى عليها عمر بن الخطاب في سنة ٦٣٧ للميلاد . وأصبحت مركزاً دينياً ومقراً لأساقفة المسيحيين في عهد الحروب الصليبية . وسقطت في يد صلاح الدين سنة ١١١٨ للميلاد . وعاد اليها الصليبيون من سنة ١٢٤٠ إلى سنة ١٢٤٧ . وانتقلت مرة أخرى إلى أيدي العرب ، ثم إلى أيدي الأتراك . واشتهرت

في الجبل الثامن عشر عند ما اتخذها الشيخ « ظاهر » مركزاً لثورته
على الباب العالي

وانتهى بها الأمر الآن إلى ما ترى : فهي رابضة على شاطئ البحيرة
التي تحمل اسمها ، حائرة حزينة

وبعد أن تفنن خاشعاً أمام طبرية وبحيرتها ، عرج بنا أيضاً إلى ذلك
الجبل المنيع ، واذكر بالحير أولئك الأبطال الذين سقطوا في « حطين »
وقل معي : ألا ترسل الأقدار إلى الشرق ، في هذا العصر العصيب ، بطلا
كيوسف صلاح الدين ، يعيد إلى أبناء الشرق الثقة بنفوسهم ، وإلى
الشرق العظمة البائدة والمجد الضائع والاستقلال المنشود ؟

رسل محمد علي باشا أوامره إلى ابنه إبراهيم بن محمدر تجارة الحرير
في الاقطار السورية ، ويحصل الاموال الاميرية ، وينزع السلاح من السكان
ويجندم في جيشه . وكان إبراهيم في ذلك الوقت يقيم في مدينة يافا .
فجعل يعد عدته لتنفيذ تلك الاوامر ، التي كانت خطوة أولى نحو الفشل
النهائي ، الذي منيت به الجيوش المصرية في البلاد التي اجتاحتها بالاتفاق
مع أهلها . وكان ذلك العمل الذي أقدم عليه محمد علي باشا وابنه إبراهيم ،
فاتحة الخلاف الذي جعل يتفاقم منذ ذلك الحين ، فأفضى إلى تعدد
الثورات ، واتساع القلاقل ، وانقسام عرى الاتحاد بين القاهرة والقدس
وبيروت ودمشق

اذاع إبراهيم على الملا أوامر أبيه ، فتعلمل السكان وعقدوا
الاجتماعات وتشاوروا فيما بينهم ، وانتهى الأمر بان قامت الثورة في أنحاء
فلسطين ، في شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٤

شخص إبراهيم إلى القدس ، وارسل في طلب زعماء البلاد ومشايخ
القبائل وأصحاب الوجاهة ، للتداول معهم أو لحملهم بالوعد والوعيد على
الهدوء والسكينة

وعقد في أوائل ابريل (نيسان) سنة ١٨٣٤ اجتماعاً عاماً حضره
عشرات من قادة الرأي في القدس ويافا ونابلس وغيرها من المدن
الفلسطينية . ونهض في ذلك المجلس شيخ وقور من اسرة « طوقان »
المقدسية ، واستأذن من القائد المصري بأن يقص عليه قصة يتناقها
الناس في البلاد منذ مئات السنين
فقال ابراهيم :

— ما جئت أيها الشيخ لسماع الاقاصيص ، وأراكم في هذه البلاد
مغرمين بها . فأنى لا أهبط مدينة ولا أحضر مجلساً ، الا وينهض أحدكم
طالباً أن يقص علي قصة أو يذكرنى بحادثة وقعت في زمن مضى !
فأجابه الشيخ طوقان :

— ولكن القصة التي أريد الافضاء بها اليك أيها القائد ، ذات مغزى
قد تستفيد منه وأنت في عنقوان شبابك . فاصغ الي شيخ أحنث السنون
كتفيه وقربته من الفبر

وقص الشيخ طوقان على ابراهيم القصة الآتية :

في اليوم العاشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٢ للهجرة ، التقى فارسان
يمتطي كل منهما صهوة جواد عربي أصيل ، في الطريق الوعرة المؤدية
من مدينة صور إلى حصن عكاء . فأوقف الفارسان جواديهما ،
وانطلقت من بين شفاههما ، في آن واحد ، هاتان الكلمتان :

— يا لحاسن الصدف !

وقال أحدهما :

— كنت مسرعا اليك يا عامر لوداعك الوداع الأخير ، قبل التحاقى

بجيش سيدى الكونت رودمير ، المرابط على مقربة من هنا

فأجاب الآخر :

— وكنت من ناحيتي أيضاً مسرعاً اليك يا فيليب ، لوداعك الوداع
الأخير ، قبل التحاقى بجيش السلطان صلاح الدين الزاحف على مواقع
الافرنج في هذه الديار
وترجل الفارسان ، وتعانقا طويلا ، وجلسا على حافة الطريق ،
فوق صخرة تشرف على البحر الهادى ، وجعلا يتبادلان الحديث
والذكريات ...

كان فيليب دورسال الفرنسى جنديا في خدمة الكونت رودمير ،
الذى كان يحارب في صفوف الصليبيين ، ويتنقل من ميدان الى ميدان
برجاله وعتاده ، على حسب الظروف والاحوال ومقتضيات الحروب
وحدث ذات يوم ، فى إحدى المعارك التى دارت رحاها فى جبال
نابلس ، أن انتحى فيليب ناحية من ميدان القتال ، فاذا به أمام جريح
يفقد دمه بغزارة ويئن من الألم . فاقترب منه الجندى الفرنسى وعرف
فيه بطلا عربياً مشهوراً ، كثيراً ما رآه فيليب فى الميادين ، وكان الافرنج
أنفسهم يعترفون له بالشجاعة ويقرون له بالبدالة ، لأنه لم يكن بين
أبطال ذلك العهد المجيد من ينكر على صاحب الفضائل والحصال فضائله
وخصاله

كان الجريح يطلب ماء ، فحمله اليه فيليب ، وعندما روى العربى
ظمأه ، فتح عينيه وتمتم قائلاً :

— اقتلنى الآن ايها الجندى الصليبي ، فاني أرحل عن هذا العالم قرير
العين بعد أن وفيت الواجب حقه . وأرجو أن يكون النصر فى هذه
الموقعة لاعلام المسلمين !
فقال له فيليب :

— وهل سمعت يا ابن الاكارم أن أحداً من رجال رودمير اجهر

على جريح أو تهجم على اعزل ؟ لقد عرفتكم يا عامر التهامي ، وشاهدت
فعالكم في الميادين . وثق أن الجندي الذي تراه الآن أمامك يجلب فيك
الشهامة والاباء : سأنقذ حياتك . وقد تسنح لك الفرصة في مستقبل
الايام فتتقذ حياتي !

وانتهت تلك المعركة بانهزام المسلمين . ولكن فيليب دورسال الفرنسي
لم يلحق برفقه ، عندما اندفعوا في مطاردة اعدائهم ، بل ركب جواده ،
وحمل معه عامراً التهامي الجريح ، إلى مكان منعزل في الجبل ، حيث قضى
ليلته بقربه ، وضمده جراحه ، وأعاد اليه الحياة

وتوثقت عرى الصداقة بين الرجلين ، فانتقلا معاً إلى جبال لبنان ،
حيث أقاما مدة من الزمن ، بعيدين عن الحصون والقلاع وساحات القتال
وكانت الحوادث تتتابع وتتسارع في أثناء ذلك ، ويران الحرب
تندلع الستهما في كل مكان بين المسلمين والصليبيين . فقال عامر ذات
يوم لفيليب :

— أي صديقي . انني أحزن إلى ديار أهلي ومضارب عشيرتي .
فسأقصد إلى وادي التيم حيث ينزلون ، وأقضي بينهم مدة من الزمن ،
ثم أبعث اليك باخباري أو أوافيك في عزلتنا هذه !
فأجابه فيليب :

— انني أدرك يا صديقي الدافع الذي يحملك على ذلك ، لانني أشعر
به أيضاً ، وأرغب مثلك في الذهاب إلى الأهل والحلان . فسأقصد من
ناحيتي الى عكاه حيث ينزل رجال رودمير ، وبينهم اخوتي وأبناء عمي .
ولن تفرق الأيام بيننا يا عامر

وافترق الصديقان على أمل اللقاء !

وكان اللقاء في اليوم العاشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٢ للهجرة .
فقد حل عامر التهامي في مضارب عشيرته بوادي التيم ، وقوبل

بالتهليل والتكبير ، وكان القوم يظنونهم ميتاً . وعلم الرجل أن الملك
الناصر يوسف صلاح الدين قد أوفد رسله إلى القبيلة يطلب قيامها
إلى القتال ، والتحاقها بجيش المسلمين في طبرية

وعلم فيليب على أثر وصوله إلى عكا أن الملك « جي » الصليبي قد
أوفد رسله إلى الإمارات والحصون والقلاع المسيحية ، يطلب من رجالها
الاستعداد للحرب ، وموافاته إلى بحيرة طبرية للقاء المسلمين والقضاء على
جيشهم

ورأى عامر ، ورأى فيليب ، أن الواجب يقضى على كل منهما
بالسير حيث تأمر السلطة العليا . وأراد كل منهما قبل الالتحاق بأخوانه
أن يعود إلى صديقه ويودعه الوداع الأخير

واتجه عامر إلى عكا للقاء فيليب ...

واتجه فيليب إلى لبنان للقاء عامر ...

وشاءت المصادفات أن يلتقيا في ذلك الطريق المؤدي من صور إلى

عكا . . .

فكان بينهما حديث وكانت دموعه وكان فراقه ففسار كل من البطلين
العدوين الصديقين ، إلى حيث يدعو الواجب ، ملياً نداء الدين والملك

قرر صلاح الدين السير في القتال إلى النهاية ، وانتزع الأماكن
المقدسة من أيدي الصليبيين وأمرائهم وأقيالهم وأساقفتهم ، فاطلق
الحرب من عقابها ، ونادى بقومه أن هبوا إلى الجهاد قبل أن يعد
الاعداء عدتهم للدفاع ، وتصل الأمداد التي وعدوا بها من بلاد الغرب ،
والتي تحملها إليهم سفنهم العديدة فوق مياه البحار

وانقضت سنة كاملة والحرب سجال بين الفريقين . فتارة يضحك
النصر للمسلمين وتارة يعبس في وجوههم . وسالت الدماء حول أسوار

المدن وفوق قم الجبال وفي بطون الاودية ، من عكاه الى اورشليم الى
نابلس الى الكرك والصحراء

وأراد السلطان أن يضرب ضربة قاضية ، عند ما بلغه ان جيشا لحيماً
يقطع البحار الى سواحل المسلمين . فحمد كتابه في الكرك والشوبك .
ووافاه هناك جيش من حلب بقيادة زين الدين داردم ، وجيش من
دمشق بقيادة قيمانز النجمي ، وجيش من البادية بقيادة مظفر الدين
كوكي ، وغيرها من الجيوش جهزها الامراء والقواد من حدود مصر
الى تخوم العراق ، فزحف السلطان بتلك القوة الهائلة الى بلدة طبرية
الحصينة

وكان الافرنج من ناحيتهم قد جمعوا جموعهم وساروا للقاء المسلمين ،
قبل أن يصلوا الى ساحل البحر ، فالتحم الجيشان في موقعة فاصلة ، في يوم
السبت الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٥٨٢ للهجرة ، الموافقة
لسنة ١١٨٧ للميلاد

قاتل الفريقان قتال الاسود ، وقد أيقن كل منهما أن الأرض
المقدسة ستؤول الى من يعقد له النصر في تلك المعركة ، فاشتبكت الركب
بالركب ، وتطايرت الرؤوس عن الاعناق ، وارتفعت صيحات المحاربين
الى كبد الفضاء ، وغاصت قوائم الجيود في انهر من الدماء ، وتساقت
الجثث أكداساً فوق أكداس . وبعد ساعات من طعن وضرب لم يدون
التاريخ مثلهما ، تمايلت صفوف الافرنج ، ودب اليأس من الفوز في صدورهم ،
ورأى الجنود خمسة من امراءهم يهرون على الارض مجندين ، فصاح
أحدهم : « العدو عن القتال خسر وأوفى ! » فردد آخرون هذه
الكلمات . وما هي الا ساعة حتى تراجعت كتاب الصليبيين ، واندفعت
تطاب النجاة في جبل حطين

وألب انهزام العدو صدور المسلمين حماسة ، فانطلقوا في مطاردة

الصليبيين ، وأحاطوا بهم في حطين إحاطة السوار بالمعصم ، فتحولت المعركة الى مذبحه هائلة ، ولم ينج من الافرنج - وكان عددهم نحو ثمانين الف فارس وراجل - غير بضعة آلاف طلبوا الأمان من صلاح الدين . فأمر السلطان بالكف عن القتال ، وأخذ الاسرى إلى قلاع المسلمين في بلاد الاسماعيلية

وعندما اجتمع قواد الجيش الظافر ، بعد معركة طبرية وحطين ، حول سلطانهم المحبوب المطاع ، قال لهم صلاح الدين :
— لقد دون جيشنا الباسل اسمه اليوم في جبهة الدهور . ويحق للمسلمين بعد هذا النصر المبين ، أن يجعلوا من جبل حطين كعبة ثانية ، يحجون اليها مكبرين مهللين مستبشرين !

— وماذا تريد يا عامر أن تصنع بهذا الرجل ؟
ألقى صلاح الدين هذا السؤال على عامر التهامي ، فأجاب البطل العربي :
— مولاي ، وعدتني في ميدان القتال ، عندما مررت أمامك وسيفي مخضب بدم الاعداء ، أن تجيبني الى رغبة واحدة أفضي بها اليك بعد انتهاء المعركة . وها قد جئت إلى مولاي طالباً منه الوفاء بالوعد . وما كان صلاح الدين يوماً من الحاشين !

— جئتني اذن يا عامر تطلب العفو عن جندي مسيحي ، حاول في الميدان أن يضرب بسيفه عنق صلاح الدين ! فان ذلك الأسير الذي تحدثني عنه ، هو بعينه ذلك الرجل الذي اشتبك سيفي بسيفه ، وكان يريد أخذني على حين غرة

— أعلم ذلك يا مولاي . ولو كان ذلك الرجل جندياً خاملاً ، لما رأيت مني اهتماماً بأمره . لكنه من أبطال الصليبيين المعدودين ، ومن فرسانهم المغاوير . وقد أنقذ هذا الرجل حياتي ، فاقسمت أن أنقذ حياته ، وأقابل

صنيعه بمثله ، عندما تسنح لي الفرصة ، وقد سنحت اليوم !
طلب صلاح الدين أن يؤتى اليه بذلك البطل الصليبي ، فساق الجنود
اليه فيليب دورسال ، صديق عامر التهامي ورفيقه وصاحب الفضل عليه
فقال صلاح الدين :

— لقد حاولت قتلنا يا هذا ، ونحن الآن نغفو عنك ! فهل تحفظ
لنا جميل الذكرى على صنيعنا هذا ؟

فأجاب فيليب ، بعد أن ألقى نظرة على حاشية السلطان :
— أيها المولى ! انك تغفو عني اجابة لرغبة عامر التهامي ، الذي
أنقذت حياته فأراد اليوم أن ينقذ حياتي . فلست إذن مديناً لك بعطف
أو معروف . وانما أنا مدين بهما الى هذا الصديق الوفي . ولولاه لما
عفوت عني ، بل لضربت عنقي !

فمد صلاح الدين يده إلى فيليب دورسال وقال :
— وددت والله لو لم يطلب عامر العفو عنك ، لكي أصدر ذلك
العفو من تلقاء نفسي ، مكافأة لك على صراحتك ، واعترافاً مني بشجاعتك .
فصافح أيها البطل هذه اليد التي لم تصافح غير ايدي الشجعان الصناديد .
لقد أجبته عامراً التهامي الى رغبته ، وعفوت عنك ، وأضيف على ذلك
انتي لن احتفظ بك أسيراً ، وأنتك يا أخي حر طليق !

هجر عامر عشيرته ، وهجر فيليب قومه ، وعاش الاثنان معاً ثلاث
سنوات كاملة ، في جبال السامرة ، وأقاما في صومعتين ، وانعكف كل
منهما على الصلاة والعبادة على حسب تعاليم دينه ، وكان الناس يقصدون
اليهما للتبرك منهما ، والاصغاء إلى ارشاداتها
وأبديا رغبتهما لسلك من كان يقرب منهما ، في أن يرقدا رقادها
الاخير جنباً إلى جنب ، في جبل الزيتون في اورشليم ، سواء أكانت المدينة

المقدسة في أيدي المسلمين أم في أيدي الصليبيين
 وفي سنة ١٩٣٣ للميلاد ، كان الصاعد الى جبل الزيتون ، يرى تحت
 شجرة وارفة الظل ، قبرين صغيرين ، يعلو أحدهما شاهد من حجر ،
 ويعلو الآخر صليب من خشب
 فقد نفذت رغبة الصديقين الأخيرة . ونام الاثنان نومهما الابدي
 في ظل تلك الشجرة ، في سفح جبل الزيتون . وللمرة الأولى في التاريخ ،
 تجاوزت الشارتان - صليب فيليب وشاهد عامر - وكانت ذلك دلالة
 ملموسة على أن القلوب في استطاعتها أن تتصافى ، مهما كانت العقائد
 الدينية الراسخة في الصدور ، وأن الناس جميعاً إخوة في السراء والضراء ،
 والدين للديان !

أراد الشيخ طوقان المقدسي أن يقول لبراهيم ، القائد العظيم الذي
 أسكره النصر فراح يقلب ظهر المجن للذين كانوا له عوناً على أعدائه ،
 إن النقام خير من التخاصم ، وإن في استطاعة المصريين ان يعيشوا مع
 أبناء البلاد التي فتحوها في صفاء وهناء . فقد حتم الشيخ قصته بهذه
 الكلمات :

... أكبر صلاح الدين يا مولاي عاطفة الاخلاص عند رجلين ،
 فعفا عن جندي من جنود الاعداء . أفلا يجمل بك أنت يا ابن محمد علي
 أن تكبر عاطفة الاخلاص عند أمة بأسرها ، فتمتنع عن محاربتها في
 عادتها وتقاليدها ، وهي التي حاربت معك الاعداء ، وامتزجت دماء أبنائها
 بدماء جنودك في الميادين ؟

سكت ابراهيم باشا هنيئة ، ثم قال

... قد تكون مصيداً فيما ذهبت اليه أيها الشيخ . ولكن أوامر
 ابي صريحة ولا سبيل الى مخالفتها !

خشي محمد علي باشا ان ينتفض عليه السكان في فلسطين وسورية
ولبنان ، كما انتفضوا من قبل على الدولة العثمانية ، فاراد أن يحتاط للامر ،
ووقع في ذلك الخطأ الشنيع
وكان السكان يقولون : « يظهر أن عزيز مصر يريد أن يتغذانا
قبل أن تتعشاه ! »

وأضمرُوا له الشر منذ ذلك الوقت
والغريب في ذلك كله ، أن الذين انتفضوا على ابراهيم باشا وجيشه ،
في بادىء الامر ، هم المسلمون والدروز ، وأن الذين ظلوا له مواليين مخلصين ،
هم النصارى اللبنانيون

قامت الثورة الاولى إذن في فلسطين ، واستمرت ستة أشهر كاملة ،
وقعت في خلالها، بين الثائرين وجنود ابراهيم ، معارك ومناوشات عديدة ،
كان فيها النصر تارة لهؤلاء وتارة لاولئك ، إلى أن نجحت سياسة
التفريق التي عمد إليها ابراهيم لتهديئة الحالة ، فانتهدت الثورة بالقضاء على
القائمين بها ، وفرار بعض زعمائهم إلى الصحراء

وبينا كان ابراهيم يحارب الثوار الفلسطينيين بنفسه ، قامت ثورة
أخرى في دمشق في شهر مايو (ايار) سنة ١٨٣٤ . فقضى عليها شريف
باشا في مهدها

وتآمر سكان طرابلس على الفتك بالحامية المصرية ، فسار اليهم الامير
خليل ، ابن الامير بشير الشهابي ، على رأس الف مقاتل من نصارى لبنان ،
فتك بهم ، وقبض على زعمائهم ، وانقذ الحامية المصرية من الهلاك .

وكان ذلك في شهري يونيو ويوليه (حزيران وتموز) سنة ١٨٣٤
وماهدأت الحالة في طرابلس ، حتى قامت ثورة أخرى في صافيتا
وعكار وحصن الاكراد . فزحف القائد المصري سليم بك والامير
خليل وفرسانه اللبنانيون على الثائرين ، في شهري اغسطس وسبتمبر

(آب وایلول) سنة ١٨٣٤ ، ففر العصاة من وجه الجيش الزاحف ،
وقبض سليم بك والامير خليل على زعمائهم ، وأرسلوهم إلى اللاذقية
وطرابلس مكبلين بالحديد ، فنفى بعضهم إلى قبرص
ولكن تلك الانتصارات لم تضع حداً للقلاقل ، بل تضاعف بسببها
عدد الخصوم والاعداء ، ولم يعد في استطاعة ابراهيم أن يطمئن على
سلامة جيشه ، وأن يعتمد على أحد من حلفائه السابقين ، غير الامير
بشير وابنائهم وسكان لبنان الموارنة

انشودة العيد

كان « عبدالله آغا عذرة » صاحب قلعة « المرقب » بين الزعماء الذين قبض عليهم سليم بك والامير خليل ، في ثورة عكار . وكان ابراهيم باشا يعلم ان ذلك الزعيم العنيد يكرهه كرها شديداً . فأصدر أمره باعدام الاسير لانه أهان ضابطاً مصرياً واشترك في الثورة علناً ، ونفذ حكم الاعدام في عبدالله آغا عذرة ، في سوق اللاذقية ، ودهش المصريون عندما سمعوا ، في اثناء اعدام الرجل ، أصوات النساء ترتفع بالغناء

نعم ، كانت النساء التابعات لعبدالله آغا عذرة ، ينشدن باصوات تقطع نياط القلوب ، أنشودة حزينة ، تعرف عندهن بانشودة العيد ولهذا الانشودة قصة

كانت تلك الليلة ليلة عيد في قلعة « المرقب » حيث اجتمع الاشراف والفرسان حول زعيمهم قائد ذلك الموقع الحربى المنيع . وتلايلات في القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة ، وابتساماتهن الخلابه . وارتفعت في ارجاء المكان أنغام الموسيقى الوترية والاناشيد الدينية والقومية

كان القوم يحتفلون بعيد الميلاد ، وذلك في سنة ١٧٢٢م مسيحية ، وقد

عقدوا مع أعدائهم هدنة ، تعهد الفريقان بالامتناع عن الحروب والغزوات في خلالها

وكان الصليبيون والمسلمون يجأون إلى ذلك في المواسم والاعياد ، فلا تنطلق السيوف من أغمادها ، إلا بعد انقضاء المدة المتفق عليها .
أما قلعة « المرقب » التي كان يقام فيها الاحتفال ، فقد بناها العرب في سنة ٤٥٥ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٦٣ مسيحية ، في بلاد الاسماعيلية ، أو « الحشاشين » كما كانوا يسمونهم ، على قمة جبل يشرف على البحر . وكان في استطاعة من يقيم في تلك القلعة أن « يراقب » الطريق المؤدية من طرابلس الى انطاكية ، والطرق المتشعبة منها الى المناطق الجبلية الداخلية . ويعرفها الافرنج باسم قلعة « ماركا » اما العرب فقد أطلقوا على ذلك الحصن اسم « قلعة المرقب »

واتزع ذلك الموقع المنيع من العرب ، القائد الصليبي روجيه أمير انطاكية ، في سنة ١١١٧ للميلاد . وانتقلت القلعة فيما بعد الى « فرسان الهيكل » الذين تعهدوا بالاحتفاظ بها ، والسهر منها على سلامة المواصلات ، بين حصون الافرنج وقلاعهم على سواحل سورية ولبنان

وفي تلك الليلة التي كان الفرح فيها شاملا ، وصل إلى أسوار الحصن الخارجية فارس عربي ، طلب من الحراس أن ينزلوا المعبر على الخنادق المملوءة بالماء ، لكي يدخل الحصن ويقابل قائده ، ما دامت الهدنة قد أعلنت ، وما دامت الايام أيام عيد ، لا حرب فيها ولا قتال ، ولا غدر ولا خيانة

وترجل الفارس ودخل القلعة . وما وقع نظر الحراس عليه حتى عرفوه ، لانه كثيراً ما كان يتردد على قائد الموقع وعندما بلغ خبر وصوله مسامع المجتمعين في قاعة الحصن الكبرى ،

لم يظهروا شيئاً من الامتعاض ، بل وافقوا على أن يشاركهم الضيف
الغريب في فرحهم ولهوم ، وأوفدوا اليه رسولا يدعوهُ للدخول
لكن الفارس لم يدخل ، بل أفضى الى الرسول برغبته في أن يرى
الفتاة « بلانش » ربيبة سيد الحصن ، لانه سائر الى ميادين القتال ،
ويود أن يودعها ويودع حماة الموقع في شخصها
ولم يمانع أحد من الجالسين في قاعة الحصن في خروج الفتاة للقاء
الفارس العربي ، لانهم كانوا جميعاً على بينة من أمرها ، يعلمون أن
الفارس أنقذ حياتها في احدى الغزوات ، وأنها تحمل له في صدرها
عاطفة حبة قوية ، ممزوجة بالاحترام وعرفان الجميل

هرولت بلانش الى صحن القلعة ، حيث كان الفارس العربي ينتظرها
ملتحفاً بردائه الأبيض ، تحت البرج الشاهق القائم في وسط المكان
وألقت الفتاة بنفسها بين ذراعي ذلك الغريب ، قائلة بصوت يبدو
فيه القلق والاضطراب :

— علاء الدين ! علاء الدين ! ماذا أسمع ؟ أعائد أنت الى الميادين
حقاً كما انبثت منذ لحظة ؟ ألا يعيد اذن سلطانكم الشجاع السيوف الى
الاعتماد والراحة الى النفوس ؟ أكتب لكم أن تقضوا حياتكم كلها في
كر وفر وهجوم ودفاع ، تتقاذفكم الاقدار من نصر الى هزيمة ومن
هزيمة الى نصر ؟ أما لهذه الحالة من آخر يا علاء الدين ؟
فضم الشاب العربي الفتاة الى صدره ، وداعب جدائلها المسترسلة ،
وقال بصوت لا يقل اضطراباً وقلقاً عن صوتها :

— هكذا شاءت الاقدار يا بلانش ، بل هكذا شاءت الامم الافرنجية
التي تنتمين اليها ، والتي دفعت جحافل الصليبيين الى هذا الشرق . اني
أقوم بواجبي كعربي ومسلم في صفوف العرب والمسلمين ، كما يقوم

أصدقاءك وبنو قومك بواجبهم كافر نج و نصارى ، في صفوف الصليبيين .
أتريدني حائناً باليهود ، جاحداً لسادتي ، محجماً عن تلبية نداء الدين -
ديني أنا يا بلانش ؟

— كلا يا صديقي . لا أريدك هكذا ، بل أريدك دائماً أبداً حافظاً
للهود ، طامعاً لسادتك ، أول الملبين للنداء . لقد أنقذت حياتي يا علاء
الدين من موت محقق . وكنت في ذلك اليوم العصيب مثال النبيل
والشرف والمروءة . واني أحفظ لك الجميل على حسن صنيعك ، كما أن
قومي يقرون لك بذلك الصنيع الحسن . فأنت هنا دائماً بين أصدقاء
أوفياء ، سواء أ كنا في أيام حرب أو في أيام سلم . ولكنني أرغب
اليك في شيء واحد وهو أن لا تطيل غيبتك عني ، وأن تزور هذا
الحصن مرة أو مرتين في السنة ! هذا كل ما أطلبه منك . وأعدك
بأنني سأفكر فيك لبلا ونهاراً ، وأرفع صلواتي إلى الله عز وجل -
إلى الله الذي يعبده قومي كما يعبده قومك يا علاء الدين - بان يدفع
عني الأذى ، ويحفظ حياتك ، ويجعلك سعيداً ... سعيداً كما أريد أنا
أن تكون ... سعيداً على الخصوص في الحب يا علاء الدين !

— وهذا ما أرجوه لك يا صديقي !

— حقق الله رجاءنا ! وسأطلب من الله ايضاً ، في هذه الليلة
التي نحتفل فيها بميلاد السيد المسيح ، أن لا يسمح بموت احدنا بعيداً عن
الآخر !

— وسأطلب منه ايضاً أن لا يغمض عيني للمرة الاخيرة إلا بالقرب
منك يا بلانش . الوداع !

— بل إلى اللقاء يا منقذي من الموت . إلى اللقاء القريب اكن
شجاعاً ، ولكن لا تجازف بنفسك ولا تفتحم المخاطر طامعاً
إلى اللقاء

رحل علاء الدين السنجاري عن حصن المرقب في ذلك الليل الذي
أراد الله أن تكون السماء فيه صافية الاديم مرصعة بالنجوم . وغاب
الفارس العربي الكريم عن الانظار متغلغلا في الظلام ، والفتاة مطلة
من أعلى البرج الشاهق ، ناشرة خمارها الابيض ، مشيرة به لتحية الصديق
المسافر ، بينما كانت الرياح تداعبها بلفحاتها الباردة
وأجهشت الفتاة فجأة بالبكاء ، فأقلت الحمار الابيض من يدها ،
وحملت الرياح على أجنحتها ، ودفعت به الى حيث تمتد الطريق الوعرة ،
من أسوار الحصن إلى أسفل الجبل
ونظرت بلائش إلى الحمار في طيراته ، وما هي إلا دقيقة واحدة ،
حتى سمعت الفتاة صوتاً بعيداً عرفته من نبراته ، يصبح فرحاً :
— سأحمله في صدري ، وسيكون لي درعاً يرد عني أسنة الرماح !
إلى اللقاء !

في يوم من أيام الشهر الثاني عشر سنة ١١٩٢ للميلاد ، الموافقة لسنة
٥٨٨ هجرية ، وصل مدينة طرطوس ، في رابعة النهار ، شيخ هرم ،
يجر نفسه جراً ، وعلى ظهره كيس مهلهل يحمل فيه قوته ، وفي وجهه
أثر جرح بليغ ، وشعوره البيضاء تجلجل رأسه وتتساقط على كتفيه
كانت المدينة في ذلك اليوم في فرح ، لان الكنيسة التي شيدها
الصلبييون ، وهدمها السلطان صلاح الدين يوسف في غزوة سنة ١١٨٨
قد أعيد ترميمها واصلاحها ، بعد أن عقد الصلح بين السلطان
وريكاردوس قلب الاسد . وكان الناس في ذلك اليوم يقيمون الزينات
استعداداً للاحتفال بعيد الميلاد
مر الشيخ الفريب في المدينة قاصداً الى الكنيسة الكبيرة ، فالتقى
في ساحتها بكاهن جليل من كهنة الصليبيين فسأله قائلاً :

— أفي استطاعتك يا حضرة الاب أن تعطيني أخباراً عن حصن
المرقب ومن يقيم فيه الآن ؟
— نعم يا أخي . في استطاعتي أن افعل ذلك إذا كان الامر يهملك .
أقصد أنت الى ذلك الموقع المنيع ؟
— نعم . إنني أسير اليه على قدمي ، منذ شهر
— إن الحصن لا يزال كما كان منذ عشرات السنين ، في حوزة
فرسان الهيكل

— والفتاة بلانش ؟ أتعرف عنها شيئاً ؟
— الفتاة بلانش ؟ لقد زرت القلعة في العام الماضي ، ولكنني ما
عرفت فيها فتاة بهذا الاسم . غير أن في الحصن اليوم سيدة تدعى
« بلانش » هي زوجة الكونت هكتور ، الذي بلغت مسامحك بلا
شك أنباء انتصاراته الباهرة ووقائعه الرائعة . إن زوجته تدعى بلانش ،
نعم . وابنته الصبية تدعى كلوتيلدة . . .
— آه . . . شكراً لله . . . استودعك الله !
— بسلامة الله يا أخي !

وكانت تلك الليلة أيضاً ليلة عيد في قلعة المرقب ، حيث اجتمع
الاشرف والفرسان في سنة ١١٩٢ ، كما كانوا مجتمعين في سنة ١١٧٢ ،
فتلاآت في القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة ، وابتنسماتهن
الخلابة ، وارتفعت في ارجاء المكان انغام الموسيقى الوترية والاناشيد
الدينية والقومية
وكان القوم يحتفلون — في تلك الليلة ايضاً — بعيد الميلاد السعيد
وفي سكون الليل ارتفع وراء الاسوار صوت يطلب من الحراس
الاذن بالدخول

من يكون ذلك الشيخ المتبدم ؟ انه بلا شك درويش حظ عليه
الزمن ، أو متسول قدر ، أو حاج نذر لله السير على قدميه إلى بيت
القدس

أنزل له الحراس المعبر فدخل . وجلس في ناحية من الساحة قائلًا
للجند انه يرغب في رؤية السيدة زوجة الكونت هكتور . فامتعض الجند
ولكنهم حملوا الخبر الي السيدة ، لان التقاليد تقضي بان لا يرفض لاحد
طلب في أيام الاعياد

خرجت بلانش الى ساحة الحصن ، واتجهت الى الركن الذي جلس
فيه الغريب ينتظر . فاذا بها أمام رجل لا تعرفه
— بلانش !

انبعثت هذه الكلمة من فم الغريب الشيخ ، فانتفضت المرأة لسماعها
هذا الاسم ينطلق فجأة من بين شفيتين مرتجفتين ، وقالت بدهشة
مزوجة بشيء من الغضب :

— من أنت ؟

— أنا . . .

سكت الرجل وعض على شفقيه . ثم وضع يده في صدره ، وتناول
منه شيئاً نشره أمامه . فاذا بالمرأة ترى خماراً ابيض ، ناصع البياض ،
يحقق مضطرباً وقد لعبت به خطرات النسيم !
— علاء الدين !

- نعم علاء الدين يا بلانش !

— أنت ؟ على هذه الحالة ؟ هنا ؟ . . انهض . انهض من مكانك

وقص علي قصتك

— لا . لا استطيع النهوض ، فقد خارت قواي . وما جئت الى

هنا إلا لكي أفضي نحيبي في هذا الركن المنعزل من أركان حصنك يا بلانش

— هكتور . . . هكتور . . .

دوى صوت السيدة في ارجاء القلعة ، فاسرع الكونت هكتور ،
زوجها ، تصحبه ابنته ، وهي في الخامسة عشرة من سنها

— هكتور . لقد افضيت البك غير مرة يا حبيبي العزيز بما حدث
لى من زمن بعيد ، يوم هاجمنا الاعداء وأحدق بي الخطر من كل
صوب ، فأنتدنى فارس عربي شهيم نبيل

— علاء الدين ؟

— انظر : انك ترى منقذي أمامك !

— هذا الشيخ الهرم ؟

فرفع علاء الدين رأسه ، وقال بصوت عادت اليه نبرات الشباب :
— ان هذا الشيخ الهرم أيها المولى ، لم يبلغ بعد الخمسين من العمر .
لكن الويلات والمصائب التي حلت به ، والعذاب الذي قاساه ، والضرب
المبرح الذي تحمله بصبر وأناة ، كل ذلك جعله يشيخ قبل الأوان !
كانت بلانش قد جلست على الأرض بجانب منقدها ، وأرهفت أذنيها
تستمع اليه ، فقال :

— وقعت أسيراً في حروب عسقلان منذ عشرين سنة . فقادني
الصلبيون الى قلاعهم وحصونهم . ثم أرسلوني مع من أرسل من
إخواننا العرب الى بلادهم . . . نعم الى بلادكم أيها المولى ، حيث طافوا
بنا كما يطوف المروضون بوحوشهم ، لكي يتفرج علينا الناس في المدن
والقرى والحقول !

— ماذا تقول يا علاء الدين ؟

— الحقيقة . وقد فررت من الأسر ، وهمت على وجهى في بلاد
لا أعرف لغة أهلها . فسرت من قطر الى قطر ، متكرراً ، باسطاً يدي
للتسول ، أحمّل العذاب وشظف العيش ، وليس لي غير أمنية واحدة

وهي أن أرى بلادي قبل أن أموت ، وأن أموت في هذا الحصن يا بلانش !
— ستعيش يا علاء الدين . ستعيش وستنسبك نحن ما الحقه بك
بنو قومنا هناك من ضرر !

— ما جئت لكي أعيش بل لكي أموت . وقد حقق الله رجاءنا
يا بلانش : أما طلبنا منه هنا ، منذ عشرين سنة ، ألا يسمح بموت
أحدنا بعيداً عن الآخر ؟ وقد أراد الله أن تغمضي عيني بيديك . انني
أشعر بالحياة تنسل من جسمي انـالـالا ، فأقول لك اليوم يا بلانش :
الوداع ! الوداع الأخير ! إن هذه الليلة ليلة عيد عندكم يا كونت . فارجو
ألا تعكروا على أنفسكم صفو هذه الافراح . انكم تحترمون ارادة الميت
الأخيرة . و ارادتي الاخيرة هي أن تدفنوني في سفح هذا الجبل ، بين
تلك الصخور الشاهقة ، وأن يكون ذلك على أنغام الموسيقى ، وعلى
لحن أنشودة العيد ، التي كانت بلانش الفتاة تغنيها منذ عشرين سنة ،
والتي أرغب الى بلانش الزوجة والأم أن تغنيها الليلة أيضاً !

وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١١٩٢ ، دفن علاء الدين السنجاري في
سفح الجبل ، على طريق قلعة المرقب ، على أنغام أنشودة العيد . وأبت
صديقتة بلانش ، التي أنقذها من الموت فكان نصيبه الاسر والتعذيب
والتشريد ، الا أن تقيم على قبره شاهداً حفرت عليه هذه الكلمات
باللغة العربية : « في ذمة الله . انا لله وانا اليه راجعون ! »

وجعل الناس يتناقلون منذ ذلك العهد البعيد ، أنشودة العيد هذه ،
حتى اذا ما نسيها قوم ، وضع غيرها قوم آخرون . وظل السكان في
أفراحهم وأتراحهم على السواء ، وفي أيام الحروب والقتال والثورات ،
وفي أيام السلم والطمأنينة ، يغنون « أنشودة العيد » التي تجمع بين
الحب والشجاعة والفروسية والاخلاص . وسواء أكان صاحب قلعة

« المرقب » مسيحياً أم مسلماً ، عربياً أم اجنبياً ، فإن « أنشودة العيد »
كانت تنتقل الى صاحب القلعة بانتقال القلعة اليه ، كأنها جزء متمم
للحجارة الصماء ، والاسوار الضخمة ، والابراج الشاهقة ، التي يؤلف
منها ذلك الحصن المنيع

وهذا ما جعل النساء - في اليوم الذي أعدم فيه عبد الله آغا عذرة
في اللاذقية ، ينشدن على مسمع من الجند المصري « أنشودة العيد » ،

السِّبْطَانُ فِي الدَّيْرِ

إذا توغلت في صحراء سيناء ، ممتطياً متن جواد أو راكباً سيارة
أو سائراً مع الاطعمان « تطوى البيدطياً » - فخرج على ذلك الدير
المنزل الذي يبدو لك هناك ، في سفح جبل موسى ، أشبه بقلعة حصينة ،
شيد أسوارها أقوام من الردة لصد غزوات الغزاة وغارات المغيرين

ذلك الدير يعرف الآن بدير « القديسة كاترينا » ويتضح من
الوثائق والمحطوطات المحفوظة في مكتبته القيمة ، أنه شيد في المكان

الذي ظهر فيه الرب لموسى الحكيم ، وسلمه لوحة الشريعة والوصايا
وإذا وصلت الى ذلك الدير ، وولجته بعد استئذان الرهبان المقيمين
فيه ، فإذهب مسرعاً الى تلك المكتبة ، وابحث بين وثائقها
ومخطوطاتها ، إذا كنت من هواة البحث في مجاهل التاريخ وحوادثه
المطموسة المبهمة ، فإنك سوف تخرج من بحثك بنتيجة تجعلك تستهين
بالتعب الذي عانيته للوصول الى ذلك الدير

وبين الحوادث التي تضمها أوراق السجلات القديمة في دير القديسة
كاترينا ، قصة « شيطانين »

الشيطان الأول يدعى تيوفيلوس . . .

والشيطان الثاني يدعى فوزان الادرعى . . .

ولنبداً بقصة الشيطان الثاني |

ترك ابراهيم باشا أعوانه وضباط جيشه وحلفاءه اللبنانيين يحاربون
الناشرين في الشمال ، وانصرف من ناحيته الى مطاردة العصاة في فلسطين ،
فكان يقود الحملات بنفسه ، ونحوض غمار المعارك في مقدمة جيشه .
وكان الناثرون يستبسلون في القتال . غير ان الدائرة كانت في معظم
الاحيان تدور عليهم ، فيهرعون الى الجبال أو الى الصحراء ، واثقين
أن الجيش المصري النظامي لن يقتنى أثرهم ، وأن ابراهيم باشا لن يخاطر
بنفسه وبرجاله فيلحق بهم

وكان بين الناثرين في جبال نابلس ، شيخ من عربان الصفاء ،
يقود كوكبة من الفرسان ، ويشن الغارة على مخازن الجيش ومستودعات
أسلحته ومؤوته وذخيرته . واسم ذلك الشيخ « فوزان الادرعى »
نسبة إلى مدينة درعا

عجز ابراهيم عن اخضاعه ، وعزم في النهاية على أن يسير اليه بنفسه
على رأس قوة كبيرة ، فلا يعود أدراجه الا والشيخ فوزان في قبضته
ظن ذات يوم انه وصل الى بغيته ، عندما أحدق جيشه بهضبة وعرة
فسيحة ، قيل له ان عدوه معتصم فيها . ولكن الجيش لم يجد في تلك
الهضبة أحداً ، فان الشيخ فوزان الادرعى كان قد أخلاها وابتعد
برجاله عنها ، قبل أن يصل اليها ابراهيم باقل من ساعة
غدير ان القائد المصري وجد في كهف صغير ، رمحا مرتكزا إلى
صخرة ، وفي سنانه ورقة كتبت عليها هذه الكلمات :
« لا تحاول المستحيل يا ابراهيم فالقبض على الشيطان أهون عليك
من القبض على فوزان ! »

فاستشاط القائد المصري غيظاً ، وانطلق من جديد في طلب
غريمه . . .

وكانت مطاردة جنونية، في الجبال والسهول ، والهضاب والصحاري

وبعد خمسة أيام لم يفز فيها ابراهيم بطائل ، جاءه أحد جواسيسه
بالخبر اليقين : « الشيخ فوزان الادرعي نفذ الى سيناء وقصد إلى دير
السيدة كاترينا القائم في وسط الجبال . »
فصاح ابراهيم :
— الى الدير !

عندما أشرف القائد المصري على مسكن الرهبان ، أمر جنوده
بالنزول عن خيولهم ، وأوفد الى الدير رسولا يطلب من رئيسه
الاسراع لمقابلة « الباشا »
ولم يصل الرسول الى الدير ، لانه التقي في الطريق بالرئيس قادم الى
المسكر مع بعض الرهبان . فعاد معهم الى ابراهيم ، وكان قد جلس في
خيمته ينتظر رجوع الرسول
نهض ابراهيم وخف الى باب الخيمة لاستقبال القادمين ، والابتسامة
على فمه ، وبادرم قائلاً :
— لست أضمر لكم شراً أيها النساك الابرار . لكنني أطلب اليكم
أن تخرجوا الرجل الذي فزع اليكم ، وتطلقوه في هذه الصحراء ، لأنني
لحقت به لكي أثبت له ان القبض عليه أسهل من القبض على الشيطان ،
خلافاً لما يقول
فأجابه الرئيس :

— ان لفوزان الادرعي يا مولاي الايادي البيضاء على هذا الدير .
فانه حليف الرهبان من قديم الزمان . وقد أخلص لنا أعوانه الودي في
السراء والضراء . وعند ما جاءنا منذ يومين هارباً من وجهك ، القينا
اليه الجبال من فوق أسوارنا ، ورفعناه مع رجاله الى داخل ديرنا .
لان هذا الشيخ المسلم يجد نفسه في أمان واطمئنان بين رهبان النصرى

سكت ابراهيم وجعل ينظر الى رئيس الدير ، وهو معتقد ان
الرهبان سيرفضون تسليم الضيف الى عدوه
واستطرد الرئيس قائلاً :

— غير ان الشيخ فوزان الادرعي ايها الامير ، كان يمتد في
هذه المرة ان نجمه قد أفل ، وانه واقع في قبضتك بلا ريب ، وان
مناوذة النجاة قد سدت في وجهه
فقاطعه ابراهيم قائلاً :

— نعم . لانني كنت عازماً على مطاردته الى النهاية ، واللاحاق به الى
حيث يذهب

فقال رئيس الدير مبتسماً :

— لم يكن فوزان الأدرعي خائفاً منك ايها الامير ، لانه لم يعرف
الخوف في حياته ، ولان فعاله منذ نعومة أظفاره الى الآن جعلتنا
نطلق عليه اسم « شيطان الصحراء ! » واذا قال لك صديقنا ان القبض
على الشيطان أهون من القبض عليه ، فصدقه يا مولاي !

— إذن . . . لماذا قال فوزان الادرعي ان نجمه قد أفل وإن
مناوذة النجاة قد سدت في وجهه ؟

فمسح رئيس الدير دموعه ترقرت بين جفنيه ، واجاب :

— لانه سقط عن سور الدير وهو يتدلى إلى الداخل ، فكسرت
ساقه ، واصبح عاجزاً عن الحراك
فوجم ابراهيم وقت متأثراً :
— اذن ، لقد عفونا عنه !

— لكنه لم يعد في حاجة الى عفوك . فقد مات منذ ساعة ، عند ما
أقبلت علينا برجالك
— كيف ؟

— كان فوزان الادرعي يحمل معه صمما زعافا ، يعده لمثل هذه الساعة . وقد تجرع السم عندما تراءى له شبح العار من بعيد . فان ذلك العربي يا مولاي كان يؤثر الموت على الوقوع اسيراً !

سكت الرئيس هنيهة ، ثم نهض مستأذنا وم بالانصراف وقال :

— انتم ضيوفنا اليوم أيها الامير . فقد رحل رجال فوزان الادرعي ، وتوغلوا في الصحراء تاركين لنا جثة زعيمهم . وسنحتفل بدفنها غداً ، فنواربها التراب في سفح هذا الجبل ، على مقربة من المكان الذي يضم رفات « شيطان الدير »

نهض ابراهيم ومد يده لمصافحة الرهبان ، ووعدم بانه سيزورم قبل غروب الشمس ، ويشترك في اليوم التالي في الاحتفال بدفن الميت وشيع زائريه الى خارج الخيمة . ولكنه استوقف الرئيس وسأل مستفهما :

— ومن يكون « شيطان الدير » الذي عزمتم على دفن « شيطان الصحراء » بجانب قبره ؟

فاجاب الرهبان بصوت واحد :

— هو تيوفيلوس !

فن هو تيوفيلوس ؟

لندع ابراهيم باشا يأخذ نصيبه من الراحة في خيمته ، ولتنطلق وراء الشيطان الاول ، بعد ان تركنا الشيطان الثاني جثة هامدة يغسلها الرهبان بأيديهم ويكفنونها ويعدونها للمقر الاخير

جلس الامبراطور يوستينوس الثاني على عرش بيزنطة في سنة ٥٦٥ للميلاد ، على اثر وفاة عمه يوستينيانوس الشهير ، زوج الامبراطورة

تيودورة ، المرأة الفاتنة الجهنمية ، التي دوت اسمها في بطون التاريخ
باحرف لن تمحى ، والتي نبغت في ميادين السياسة والحب والحرب
على حد سواء

وكانت الامبراطورة « صوفيا ، زوجة الامبراطور يوستينوس
ذات سلطان على زوجها ، كما كانت من قبل الامبراطورة تيودورة ذات
سلطان على يوستينيانوس . كانت الاقدار اُبت الا أن تكون
الامبراطورية الرومانية الشرقية في ذلك العهد ، خاضعة لارادة النساء
دون ارادة الرجال

كانت صوفيا من النساء اللواتي لا يطقن نيران قلوبهن وأجسامهن
غير الحب العنيف والغرام الفاسد . فبحثت عن عشاق بين الاشراف
والصعاليك ، والكهول والشبان . وجعلت نفسها مشاعكاً بين
هواة الحوادث الغرامية وطلاب الحب الممنوع . فأعدت الى بيزنطة ،
من هذه الناحية ، عهد تيودورة ، ابنة مروض الوحوش التي رفعها
جمالها الى سرير الملك

أحبت صوفيا من الرجال أشكالاً وألواناً ، وضافت في مخدعها نماذج
من جميع الاجناس والمذاهب . فمر في ذلك المخدع ليوم واحد أو ليلة
واحدة ، الروماني والبيزنطي والسوري والفينيقي والعربي
والمصري والبربري

ولم يقف في وجه الامبراطورة المتعطشة الى الغرام ، الباحثة في كل
مكان عن الرجال الأشداء الاقوياء ، غير رجل واحد ، أو بالخرى فتى
واحد ، زجر المرأة ولم يؤثر فيه اغواؤها . وبلغ به الامر الى ضربها
بعضاه ضربة مؤلمة على كتفها ، كتبت الامبراطورة خبرها ، لا خوف من
الشاب الذي لم يكن له حول ولا طول ، بل خوف من العار والفضيحة
ذلك الفتى هو تيوفيلوس الرومي ، الجميل الطلعة، المفتول الساعدين ،
الساحر العينين

جاء به الامبراطور يوستينوس من قرية نائية ، حيث كان الشاب
يرعى الماشية ويروض الخيول ويصارع الثيران . وجعله جندياً ثم ضابطاً
في حرسه . غير أن الشاب ظل محتفظاً بخلقه الريفى ، وطبعه الشرس ،
وظل عائشاً بين الناس كما كان عائشاً من قبل بين الحيوانات
رأته الامبراطورة وهى تطوف فى ثكنات الجند ، فى احدى ليالى
الشتاء الباردة . وكان الشاب عارى الذراعين والصدر والظهر ، يداعب
فرساً جامحاً ويحاول اخضاعها ، والعرق يتصبب من جبينه
راق الامبراطورة منظر ذلك الفتى القوى الشجاع ، الذى لا يؤثر فيه
البرد ، والذى لا يحتاج لاتقائه الى الاصواف والفر
وحاولت المرأة ان تغري الرجل وتستهويه . لكن تيوفيلوس
لم يؤخذ بمبائلهما ، ولم يدع لسهام عينيها منفذاً الى صدره . فحنقت عليه
الامبراطورة العاشقة العاتية ، واضمرت له الشر وبيتت له الانتقام

* * *

سأيرت الاقدار يوستينوس فى بادىء الامر ، وساعدته الظروف
والاحوال ، فانتصر على اعدائه الكثيرين ، ورد القبائل عن تخوم مملكته
الشاسعة ، وأعاد الى شعبه الطمأنينة . ولكن المجهود العظيم الذى بذله
ذلك الامبراطور فى صيانة مملكته وتنظيم شؤونه ، أدى به الى خطر لم
يكن فى الحسبان

اقدم الامبراطور فى سنة ٥٧٣ على اعمال تم عن اضطراب عقلي
ظاهر . فعهدت الامبراطورة صوفيا الى اشهر اطباء المملكة فى فحصه ،
واتضح لهم ان يوستينوس مشرف على الجنون
وفى سنة ٥٧٤ ثبت لدى الامبراطورة ولدى الاطباء وعظماء
المملكة ، أن المسكين مصاب بالجنون ، وأنه لابد من اختيار أشخاص
يتولون الحكم بجانبه

وفي انتظار ذلك ، جعلت الامبراطورة تصدر الاوامر إلى أتباعها باسم زوجها ، بعد موافقة الامبراطور المعتوه عليها . وكان أول أمر أصدرته صوفيا ، موقعا عليه باسمها ، مهوراً بختم الامبراطور يوستينوس ، أمراً بنفي تيوفيلوس ، الضابط في الحرس ، الى دير جبل سيناء ، بحجة أن الرجل مسكون وأن شيطاناً رجاها قد اتخذ من جسمه مفراً له !

نهمة باطلة كانت عقلية القوم في ذلك الوقت تميل الى تصديقها . وقد ساعدت طباع الرجل الشرسة على اثبات التهمة واصدار الامر بالنفى

وأرسل تيوفيلوس الرومي ، الذي احتقر الامبراطورة وزجرها ورفض ما عرضته عليه من غرام أثيم ، الى دير سيناء للاقامة فيه بين الرهبان والنساك ، الى أن يطرد الشيطان منه وتغادره الروح الشريرة ؟

عبثاً حاول الرجل أن يدافع عن نفسه ، وأن يثبت أن ليس للشيطان علاقة به . وأخيراً ثارت ثائرة ، فأهوى بعصاه مرة أخرى على الامبراطورة صوفيا ، أمام وزير الامبراطورة « تيبيروس » فأخذ عمله هذا برهاناً جديداً على حلول الشيطان فيه

ولكن تيوفيلوس لم يلبث أن أصيب بالجنون . على أثر وصوله الى الدير وحبسه فيه ، نثرج ذات يوم من الحجرة التي كان مسجوناً فيها ، بعد أن كسر قيوده وتخلص منها ، وصعد الى أعلى الاسوار والتي بنفسه الى الخارج فسقط على الارض جثة مهشمة هامدة

ولم يدفن تيوفيلوس أو « الشيطان » كما كان يسميه سكان الدير في المقبرة التي يرقد فيها الرهبان والنساك رقادهم الاخير . بل نقلت جثته الى سفح الجبل ، ودفنت في حفرة بين الصخور ، حيث تبني النصور

وكناتها ، ولم يقبل أحد من الرهبان ان يتلو على قبره الشيطان ،
صلاة الاموات ، لان الله لا يقبل نفس من اتخذه ابليس مقراً له
ولو حفرت بين الصخور ، فى الناحية الشرقية ، لعثرت على عظام
الشيطان تيوفيلوس ، الذي راح ضحية الظلم والاستبداد ، والذي يعتقد
الناس أن روحه قد ولت الى الجحيم مقر الشياطين ، بينما هم يعتقدون
ان روح الامبراطورة صوفيا الفاجرة ، تقيم فى جنة الخلد بين الملائكة
والابرار والقديسين ا

بحوار ذلك المكان ، الذى كان الرهبان يعتقدون أن عظام
تيوفيلوس مدفونة فيه ، حفر الجماعة حفرة وأعدوها للدفن جثة صديقهم
وحليفهم فوزان الأدرعى
وفى اليوم التالي ، شهدت تلك الصخور السماء والحجارة البركانية
والرمال السوداء منظرآلم تألفه من قبل
فقد حمل الرهبان المسيحيون على أكتافهم نعش ذلك الشيخ العربى
المسلم ، ومشوا به الى مقبره الاخير ، بين صفيين من الجنود المصريين
وامر ابراهيم جنوده بأن يحيا الميت التحية الاخيرة ، ويرافقوه
بصلاتهم . فارتفعت اصوات الجنود بالتكبير ، على انغام النواقيس التى
كانت تنقرها ايدي الرهبان ا
ورقد شيطان الصحراء بحوار شيطان الدير

obeykandi.com

سيف الأمير

كان ذلك اليوم يوم فرح وحبور في الاسرة الروسية العريقة في الحسب والنسب ، فأقيم مهرجان نغم احتفالا بزفاف الاميرة الشابة ، ابنة رب البيت الوحيدة ، وهي من أبرع فتيات روسيا جمالا ، وأفتكهن لحظاً

وكان العريس ضابطاً في الجيش التساوي ، خاض غمار حروب كثيرة ، وسافر الى روسيا حيث التقى بالفتاة الفاتنة في حفلة ساهرة ، فعلق بها وهامت به ، ولم يتردد والدها في أن يزفها إلى ذلك الجندي الباسل

وبعد حفلة الزفاف ، تقدم الأمير الروسي من صهره ويده سيف بديع الصنع مرهف النصل ، وقال :

ليس عندي يا بني هدية تليق بك أكثر من هذا البتار ، الذي خرج من مصانع روسيا في الجيل الخامس عشر ، ونقشت عليه من الجهة الواحدة صورة العذراء مريم عليها السلام ، ومن الجهة الاخرى صورة الصليب المقدس وبعض الصلوات ، التي اذا ما تلاها حامل السيف قبل خوضه المعركة ، كتب له النصر وفاز على عدوه فوزاً مبيناً . نخذه يا صديقي وتقلده ، وليحفظك الله ويدفع عنك شر الانسان وعاديات الزمان !

فأخذ الضابط « ورمزر » السيف التاريخي من يد الأمير ، ووضع
على صورة العذراء قبلة ورع واحترام ، ثم على جبين زوجته قبلة حب
وهيام ، وتقلد السيف وبسط ذراعه مقبها وقال :

— لن أخون وصيتك ابتاه !.. ستسمع عن فعالي وهذا السيف إلى
جنبي ، مايسرك وبطربك. أما اذا قلب لي الدهر ظهر المحن واضطرت
إلى تسليمه ، فاني لن أسلمه إلا إلى بطل أرفع مني شأنًا واكثر حظوة
لدى إله الحرب والسلام !

سنة ١٧٩٧

سنةدموية مروعة، نفخ فيها ملوك أوروبا وطغاتها في أبواق الحرب ،
وجردوا جحافلهم الجرارة ، وسيروها إلى ميادين القتال ، لاطفاء
نيران الثورة الفرنسية المتأججة ، ودرء الخطر الدائم المنبعث من
ذلك البركان الباريسي ، حيث قام أبناء الشعب ورفعوا عقيرتهم
صائحين :

— إن للشعب حقوقا هضمتموها يا أرباب التيجان ، وعليكم
نحو رعاياكم واجبات تقاعستم عن ادائها ، فالشعب الآن ينتقم لنفسه
وينهض من سباته ، طالبًا أن ترد إليه تلك الحقوق ، ساعيًا إليها بحمد
الحسام ورموس الحراب !

وتدفقت جيوش الثورة على الدول الاوربية ، تقتحم المدن وتحرر
الامصار ، وتصدت لها جيوش أوروبا بأسرها ، ترد غزواتها وتدفع
خطرها

واجتاز القائد بونابرت جبال الالب . وانحدر بجيشه على ربوع
ايطاليا . فسحق الجحافل التساوية سحقًا ، ووصل إلى أبواب مدينة
« مانتو » الحصينة فأحاطها برجاله ، وضيق على حاميتها الخناق فاضطر
قائدها إلى التسليم

ولم يكن ذلك القائد الذي خانه القدر غير الضابط ورمزر ، زوج
الروسية الحسناء وحامل السيف المجيد التاريخي . وقد عهد اليه
ملكه بعد أن أنعم عليه بلقب « قائد » بالدفاع عن ماتو وصد غارة
الفرنسيين عن حصونها

أرسل ورمزر سيفه الى بونابرت مع هذه الكلمات :
— أقسمت ألا أسلم هذا الحسام الا الى بطل أرفع مني شأنًا
وأكثر حظوة لدى إله الحرب والسلام . وها قد وجدت ذلك البطل .
فخذ السيف وادخل المدينة ظافراً منصوراً

سنة ١٧٩٩

سنة أخرى دموية مروعة . انتقلت فيها الحرب من الغرب الى
الشرق ، فزل الجيش الفرنسي الى السواحل المصرية ، وزحف على
فلسطين وسورية لانشاء مملكة عربية واسعة ، يكون بونابرت الشاب
رأسها وساطاناً عليها

لكن إنجلترا كانت للقائد الشاب بالمرصاد . فأرسلت اساطيلها الى
عكا وصاغت حاكمها احمد الجزار ، ووضعت قواها تحت تصرفه
للدفاع عن مدينته

وكان ما كان من حصار وكر وفر وأمراض تفتك بوحدات الجيش
القائح فتكا ذريعاً . فهال بونابرت الامر وبحث عن حليف يساعده
على العدو العنيد ، وقرر أن يطلب النجدة من الاسد اللبناني بشير
الشهابي الكبير ، الرابض في عرينه ، هناك في « بيت الدين »

أرسل القائد الشاب الى الامير كتاباً يطلب فيه المدد بالرجال
والمؤونة ، وأرسل مع الكتاب سيفاً وقال :

— هو السيف الذي سلمه إلي قائد حامية ماتو المتساوية عربون

خضوعه . فخذ به يا أمير الجبل هدية منى ودليل اخلاص ومودة .
وانسرع إلى برجالك للاستيلاء على عكا ، والناداة بك ملكا على لبنان
فأخذ الأمير السيف وأرسل يقول للفرنسي :
— سأسرع اليك برجالى ، ولكن بعد استيلائك على عكا !
فكان أمير الجبل أشد دهاء من القائد الفتى ، وعاد الجيش الفرنسي
أدراجه الى مصر ، وذاق بونابرت حينذاك للمرة الاولى طعم الانهزام
المر . . .

* * *

مضت على ذلك الحادث ثلاثون سنة . فرأت ربوع فلسطين جيشاً
آخر يتدفق عليها من الجنوب ، فلا يحول دونه جيش الا ويمزقه تمزيقاً .
ذلك أن عزيز مصر ووالدها محمد علي الكبير أراد أن يمثل الدور الذى
فشل فيه بونابرت . فأرسل ابنه ابراهيم على رأس جنوده ، وأمره ألا
يعود اليه إلا حاملاً مفاتيح الشام
وبعد الاستيلاء على غزة والتغافل في جبال فلسطين ووهادها ،
بعث ابراهيم الى صديقه بشير يقول :
— كن على استعداد لتنفيذ الحطة التى وضعناها في مصر ، عندما
جئنا زائراً ونزلت علينا ضيفاً

فكان الأمير عند حسن الظن به . ومشى مع رجاله ، وقد تقلد
السيف المعهود ، على عاصمة الامويين حيث كان القائد التركي يعد العدة
للدفاع . وكانت موقعة « المزة » الشهيرة . وفي صباح اليوم التالى دخل
الحليفان ابراهيم وبشير عاصمة سورية فاتحين
فنادى بشير ولده خليلاً وقال :

— لقد خضت غمار المعركة والى جنبي هذا البتار الذى أرسله إلى
بونابرت . فخذ به يا بنى وسر على رأس جيشك مع حليف أبيك . فهو

يليق بأكف الأبطال ولم يحمله قبل اليوم غير الأبطال
وشهد خليل معارك سورية والاناضول مسلطا سيفه على رؤوس
الاعداء . ولم يخرج من واقعة الا والنصر حليفه وسيفه مخضب بالدماء

وحارب الامير خليل ابن الامير بشير الثائرين من أبناء البلاد بعد
أن حارب الاتراك ، والسيف المشهور الى جنبه ، والنصر معقود الالوية
له ولرجاله

واستراح السيف من غمده فترة من الزمن
ثم انطلق من جديد يلمع في الفضاء !

سنة ١٨٣٧

في أواخر شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من تلك السنة قام الدروز
بشورتهم الهائلة ، التي زعزعت مركز ابراهيم باشا في سورية ، وجعلت
موقفه منذ ذلك الوقت محفوقا بالخطر . وفقد الجيش المصري بقيام
الدروز عليه ، معونة أشد السكان مراسا وأرسلهم قدما في الحرب ،
وقتل من رجال ابراهيم عشرة آلاف بطل

ظل الدروز يحاربون المصريين ويفتكون بهم من شهر نوفمبر سنة
١٨٣٧ الى شهر أوغسطس (آب) سنة ١٨٣٨ وكانوا يخوضون
المعارك وهم ينددون اناشيدهم ويرددون اهازيجهم الحربية :

حنا بني معروف نحمى الجار ولو جار

نهوى المزند فتيلك مانداريه

وسيوفنا الحذب تبرى كل زنار

وسلاحنا لو صدى بالدم نجليه

اراد ابراهيم باشا ان يجند أولئك الدروز الذين لم يخضعوا قط إلا

لزعمائهم ومشايخهم . فكانت النتيجة أن هبوا في وجهه دفعة واحدة ،
وفتكوا بالحملة الاولى التي زحفت عليهم بقيادة على أغا البصلي
وسار اليهم محمد باشا على رأس قوة أخرى ففتكوا بها أيضا
وقتلوا قائدها

ولم تكن الحملة الثالثة التي كان يقودها احمد منيكل باشا ويصحبها
شريف باشا اوفر حظا من سابقتها . فقد انهزمت وقتل من رجالها
عدد كبير ، وبلغت أخبار هذه الانتصارات دروز وادي التيم ولبنان
فهبوا لنجدة اخوانهم

وكان الأمير خليل قد أوفد ابنه الأمير محموداً لمساعدة المصريين .
فحاصره الدروز في حاصبيا وأسرع الأمير خليل الى نجده ويبيده
السيف المعهود

وتمكن الأمير من انقاذ رجاله . وابتعد الدروز الثائرون عن
لبنان بقيادة شبلي العريان زعيم تلك الثورة ، وانضموا الى اخوانهم في
حوران واللجاء وجبل الدروز

ورأى ابراهيم ان لاسبيل الى اخضاع الثائرين الا بالقيام اليهم على
رأس جيش لجب . فطلب نجدة من أبيه ، وفي شهر ابريل (نيسان)
سنة ١٨٣٨ ، كان ابراهيم قد حشد في حوران عشرين الف مقاتل ،
قسمهم الى أربع فرق تولى قيادة إحداها . ووضع على رأس الفرق
الثلاث الأخرى شريف باشا وسليمان باشا الفرنساوي ومصطفى كامل
باشا

ووقعت بين الفريقين معارك قال ابراهيم إنها فاقت بهولها ما سبقها
من معارك بين جيشه والأتراك . وظل الدروز يحاربون اربعة شهور
أخرى ، تارة في اللجاء وتارة في وادي التيم ، الى أن تم الاتفاق بينهم
وبين ابراهيم على التسليم والاخلاد الي السكينة ، مقابل اعفائهم

من التجنيد والضرائب والسخرة والسباح لهم بحمل السلاح
وكان ذلك في ٢٢ اوجسطس (آب) سنة ١٨٣٨

لعب آل الاطرش في تلك الثورة التي قام بها الدروز في حوران
واللاجاء دوراً عظيماً . وهم الذين آلت اليهم فيما بعد الزعامة على جبل
الدروز ، في ظروف نلخصها فيما يلي :

كان جبل الدروز في قبضة الامراء الحمدانيين ، فتوسعوا في الحكم
وبسطوا سلطانهم على السهول المجاورة وعلى القبائل الضاربة على حدود
الجبل . ولكنهم كانوا طغاة ظالمين مستبدين . فدب الكره شيئاً فشيئاً
في نفوس أتباعهم . وأخذ الزعماء الآخرون يتحينون الفرص للانقضاض
عليهم وانتزاع السلطنة من أيديهم

وكان آل الاطرش في مقدمة أولئك الزعماء وعلى رأسهم الشيخ
اسماعيل . فجمع الرجل اعضاء أسرته وطلب اليهم أن يكونوا على أهبة
الاستعداد لاغتنام الفرصة الساعية ، والاستفادة من الطوارئ .

وشاء القدر في ذلك الوقت أن يمر في مدينة «عري» عاصمة الحمدانيين
بائع مواسى جاء الجبل لتصرف بضاعته

لكن المسكين أساء الاختيار ، لانه دخل بلاداً لا يحلق أهلها لحام ،
بل يعتبرون حلق اللحى عاراً شنيعاً ، وكان الدرزي في ذلك الوقت يقسم
بلحيته كما يقسم بشرفه أو بالعزة الالهية

وصل البائع الى عري وطلب المشول بين يدي امير الجبل . فاذن له
الحمداني ودخل . ولما علم بأمره وبالاسباب التي حملته على طلب المشول
بين يديه ضحك والتفت اليه قائلاً :

— نخيل إلى يا هذا أنك غريب عن هذه الديار . فاعلم أنه لا يوجد
عندنا من يحلق لحيته لكي نشترى منك المواسى . ولكنك سوف

تجد في « القرية » من يتناع مواسيك كلها . فاذهب الى الشيخ اسماعيل
الاطرش واعرض عليه بضاعتك !

قال الحمداني هذا تمكنا بخصوصه الطرشان . ولم يفتن بائع المواسي
الى تلك الحيلة ، فاكب على يد الزعيم يقبلها ، شاكرآ له نصيحته ،
مؤكدآ أنه سيسرع الى « القرية » مقام اسماعيل الاطرش وأسرتة
ويعرض عليهم مواسيه للبيع !

نزل الرجل ضيفآ على شيخ القرية ، عملا بالتقاليد المرعية هناك ،
وفاتحه في أمره راجيآ منه أن يتناع ما يشاء من المواسي وأن يساعده
على تصريف الباقي بين أفراد أسرته

فانتفض الشيخ اسماعيل وسأل البائع :

— من أوفدك إلى يا رجل ؟

فاجاب المسكين :

— عرضت بضاعتى على الحمدانيين فأعرضوا عنها ، وقالوا لى إننى

لن أجد فى الجبل كله من يخلق لحيته إلا أنت وأهل بيتك

فثار ثائر الشيخ للاهانة التى لحقت به ، وأدرك أن الحمداني قد

اتخذ ذلك البائع الجاهل آلة بيده وواسطة لتحقيره واذلاله . فنادى

رجال بيته ، ولما أحاطوا به تناول المواسي من حقيبة الرجل وصاح

بقومه :

— ليأخذ كل منكم موسى !

فوقع الجميع فى ارتباك وحيرة ، وسألوا زعيمهم

— ما معنى هذا ؟

فأجاب اسماعيل والشرر يتطاير من عينيه :

— إنها هدية من الحمداني ! ذهب اليه هذا البائع الغريب وعرض

عليه مواسيه ، فأرسله الينا قائلاً : إن عشيرة الطرشان هي الوحيدة في
جبل الدروز التي يعلق رجالها لحام !

فصدرت من الصدور صرخة واحدة :

— إنها لاهانة !

— وأية اهانة الا يغسلها إلا الدم !

ولمع في قبضة كل منهم حسام مسلول
فسأل الشيخ اسماعيل وهو يكاد يحنق غيظاً :

— الى أين ؟

فكان الجواب واحداً :

— الى عرى !

جمع آل الاطرش جموعهم ، وانضم اليهم الاصدقاء والانصار ،
فهاجموا الحمدانيين في عاصمتهم وعقر دارهم ، ووقعت بين الفريقين
معركة هائلة لا يزال الرواة يتحدثون بها . فتم النصر للشيخ اسماعيل
وأبناء أسرته ، وانتزعوا من الحمدانيين الزعامة ونادوا بشيخهم وكبيرهم
زعيماً على جبل الدروز

والفضل في ذلك كما رأيت عائد الى بائع المواسي ، الذي لولاه لما
تأججت نيران الغضب في قلوب الطرشان ، ولما هبوا كرجل واحد
للاتتقام من عدوم ومحو العار الذي لحق بهم

أخذ الدروز إذن الى السكينة . وأعادوا السيوف الى أغمادها .
وعاد الصفاء الى ما كان عليه بينهم وبين المصريين من ناحية ، وبينهم
وبين الموارنة أنصار الامير بشير الشهابي من ناحية أخرى

وعاد سيف الامير خليل الى غمده أيضاً
ولكن الى حين !

سنة ١٩١٣

كان الناس يتوافدون لزيارة سيدة جليلة في مدينة « جونيه »
الصفيرة ، الواقعة على سفح جبل كسروان من جبال لبنان ، مظهرين
احترامهم لتلك السيدة ، وهي غصن باق من الدوحة الشهابية العظيمة
« الست ملكة » هو الاسم الذي تعرف به أرملة الامير فايز
الشهابي ، ابن الامير سعد ، حفيد سيد لبنان بشير الشهابي الكبير
وكان السيف الاثري المجيد في حوزة « الست ملكة »
ولكن للايام علواً وهبوطاً وعزاً وشقاء ، كما أنت للجيوش في
حيادين القتال كراً وفرأً ونصراً وانهازماً
كان الامير بشير غنياً ، وكان أحفاده لا يعلكون شيئاً
دارت الايام دورتها ، وأصبح أسياد الامس أفراداً من أبناء الشعب ،
بل ان الكثيرين من أبناء الشعب كانوا أوفر مالا من أسياد الامس
لكن أحفاد الامير العظيم كانوا أغنياء بتاريخهم المجيد ، وبالآثار
التي احتفظوا بها عن آباؤهم وأجدادهم

في شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٧ ، نشرت الصحف في
مصر الخبر الآتي :

« تكثر الصحف من الكتابة عن سيف الامير بشير الشهابي
الكبير حتى باتت حكاية هذا السيف حديث المجالس في بيروت
و فانه بعد ما قرر مجلس الوزراء اللبناني شراء هذا السيف من

وارثته الشرعية انبرى لشراائه وارث آخر هو الامير كامل عامر شهاب
من أحفاد الامير الكبير ،

فماذا حدث ؟

حدث أن السيدة الجليلة ، صاحبة السيف الاثري ، اضطرت الى
التخلي عنه

ذلك لأنها كانت في حاجة الى المال . . .

يالقسوة القدر ! . . حفيده بشير تضطر الى بيع سيف بشير بعد
أن كان بشير قابضاً على ثروة لبنان من أدناه الى أقصاه !
وتدخلت الحكومة في الامر وباله من تدخل شنيع معيب . . .
أرادوا أن يشتروا سيف الامير من حفيده الامير ، فحددوا له ثمانمئتين
ذهبا . . .

خمسون ذهباً لسيف يعود تاريخه الى الجيل الخامس عشر ، شهد
المارك في جبال الكربات والالب ، وفي سهول ايطاليا ، وفي ربوع
مصر ، وفي وهاذ فلسطين ، وفي لبنان وسوريه والاناضول ، وتقلده
قواد وأمراء يعتز بهم التاريخ ويمجد العالم أسماءم

لكن أميراً شاباً ، من الأسرة الشهابية ، هب لدفع هذا العار عن
السيف الاثري ، بل عن حكومة بلاده ، فقدم مبلغاً من المال يفوق ما
دفعته تلك الحكومة ، فحال دون المقايضة على هدية بونابرت مقايضة
التجار على السلع

هذا ما فعله في سنة ١٩٢٧ الامير الشاب كامل عامر الشهابي ، الذي
استحق شكر وطنه وأبناء عشيرته ، فاحتفظ « بسيف الصورة » -
كما يسمون ذلك الاثر النفيس - وظل سيف الامير لاسرة الامير

obeykandl.com

الساحرة

كانت العظاء والصعاليك على السواء يستشيرون تلك الساحرة
ويعتقدون في صحة تنبؤاتها

فقد استشارها نابوليون بونابرت فكانت معه صادقة
واستشارها ابراهيم باشا فكانت معه صادقة
واستشارها آخرون فكانت مع الجميع صادقة
ما اسمها ؟

لم تبسح به لاحد . وكان الناس يعرفونها باسم « الساحرة » فقط
هل هي مصرية أم عربية أم تركية أم شركسية ؟

— أيها الجنود امن أعلى هذه الالهram اربعون قرناً تنظر اليكم ا
بهذه الكلمات خاطب بونابرت جنوده ، وقد امتدت صفوفهم
المراصة في السهل وتأهبت لصد هجمات « مراد بك » وفرسانه .
وكانت موقعة انتهت بانهزام المماليك وعرفت تلك المجزرة الدموية في
التاريخ باسم « معركة الالهram » أو « معركة انبابة »
وفي اليوم التالي توجه بونابرت إلى المضارب التي تحولت إلى
مستشفيات ، يتفقد الجرحى والمشوهين ، ويعزي أولئك الجنود
المساكين ، الذين بقوة سواعدهم يفتتح الغزاة الاقطار والامصار ،
وبدمائهم تشرى الصوالمجة والتيجان

طاف القائد في ذلك المكان يدأل كلا من أولئك الجرحى عن اسمه
وحالته ، حتى وقف أمام فتي لم يتجاوز بعد العشرين ربيعاً ، وقد أصيب
في وجهه بضربة سيف قطعت أذنه اليسرى وفلذة من فكاه الاسفل :
من هذا ؟

شاب مصرى طلب أن يقاتل المهاليك في صفوفنا فأجبناه الى
طلبه ، وقد أصيب بهذا الجرح وهو ينجد أحد رجالنا
حسناً . ابذلوا في سبيل انقاذه جهودكم ، واثتوني به بعد شفائه
وبعد خمسة أسابيع مثل الفتى المصرى بين يدي قائد الفرنسيين
فسأله بونايرت بواسطة أحد الترجمة :
— ما اسمك وما هو الداعى الذى حملك على مقاتلة المهاليك في
صفوفنا ؟

— اسمي حسن ، وقد قاتلت في صفوفكم طلباً للانتقام

— ممن ؟

— من مراد بك

— ولماذا ؟

— لانه قتل أبى

— ولأى سبب قتله ؟

— لن أبوح بهذا السر لأحد يامولاي ، بل سأدفنه في صدري ،
فيذهب معى الى القبر . لقد حاربت مع جنودك جنباً الى جنب ، وسأظل
واحداً من رجالك والحق بك الى بلادك . فان الساحرة تبتأت لى بأننى
ساموت بعيداً عن وطنى
— أية ساحرة ؟

— لا يوجد عندنا سواها ، وهى تقيم في غارها هناك على مقربة

من الهرم الاكبر

وكان بونابرت يعتقد كثيراً بالخرافات والسحر ويقصد الى العرافين
يستطلعهم الغيب . فما سمع كلام حسن المصري حتى أخذته الرغبة
في أن يستطرق تلك الساحرة . فطلب من بعض قواده أن يرافقه ،
وسار في مقدمتهم الشاب حسن إلى مسكن المرأة

دخلوا ، واذا بهم في حجرة صغيرة ، لامنفذ فيها الا الباب الضيق
كانها نحتت في صخرة صماء لتقيم فيها الساحرة مع الارواح والابالسة ،
بعيدة عن موطن البشر في معزل عن العالم وضوضائه
كان القائد يظن أن عجوزاً شمطاء ستقابله في داخل ذلك الحجر .
ولكن خاب ظنه ، إذ أن المرأة التي انتصبت أمامه كانت في مقتبل
العمر ، جميلة الطلعة ، ترتدي ثوباً فاخراً ، ويدها عصا كالصولجان .
فاقتربت منه وحيته مبتسمة وقالت :

— أهلاً بالقائد الأكبر

ثم التفتت الى الآخرين وحيثهم أيضاً ، ومدت يدها الى حسن
فصافحته ، وألقت نظرها على ما كان يحيط بها من تماثيل وحجارة
وصدف ، ثم حدثت في بونابرت ، ووقفت واجمة لا تبدي حراكاً
وكان في وسط الحجرة موقد أشعلت النار فيه فـلأث المكان
وهجاً ، وزادت الحرارة شدة والصدر انقباضاً ، وخيم السكون التام
على الجميع . لكن صوت حسن ارتفع فجأة :

— تعلين لماذا جاءك القائد مع حاشيته ، إذ لا يزورك أحد هنا

إلا مدفوعاً برغبة واحدة . تنبئى إذن بالمستقبل . . .

جئت الساحرة أمام كومة من الصدف ، ثم نهضت وقد تناولت منه
مله قبضتها ، وتمتمت كلمات لم يفهما أحد ، وبحركة رشيقة ألقت
الصدف من يدها على قدمي بونابرت ، وأسرعت الى مرجل مملوء بالماء
فنظرت فيه طويلاً ، ورفعت رأسها ببطء وفاهت بهذه الكلمات :

— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير

كان لبوءة الساحرة في نفس بونابرت وقع شديد

— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير ١

ردد الفاتح هذه الكلمات ، ثم ردها ورددتها أيضاً ، وكان يكثر من الطواف في ضواحي القاهرة ، فيعطي ساعات طويلة منتقلا بين مدافن الملوك والمماليك ، ناظراً الى نجمة يسطع في الفضاء سائلا نفسه : — أيتحقق الحلم يا ترى ، وأعيد في هذا الشرق تشييد مملكة الاسكندر . فاجلس على عرشها ، وأدفن هنا ، في هذه العرافة ، فوق هذا التل المشرف على القاهرة ؟

ثم يشك في صحة تفسيره أقوال العرافة الجميلة ، فيتقطب جبينه ويعود الى سؤال نفسه :

— ماذا تعنى هذه المرأة ؟ أيبسم لي النصر اليوم ثم يعبس في وجهي غداً ، فاشيد مملكة لا أنعم بالعيش فيها ولا أتركها لابنائى من بعدى ؟

عاد الفرنسيون من مصر الى أوطانهم ، وكان بونابرت يعى الى العرش الفرنسى بعد ما أفلتت منه عروش الشرق . فتم له ما أراد ، ودوخ الممالك وأسقط التيجان ودك العروش

وكان حسن ، الشاب المصرى ، قد تبعه الى فرنسا حيث ظل في خدمته واشترك في جميع الحروب والغزوات والفتوحات

سنة ١٨١٥

خان إله الحرب أعظم قائد عرفه التاريخ . فسقط نابوليون الاول

عن عرشه وتشتت أنصاره والمقربون اليه في طول البلاد وعرضها

سنة ١٨٢١

صعدت روح الرجل العظيم الى خالفها ، لتؤدى الحساب عما أتاه
ذلك الرجل من حسنات وسيئات . . .

سنة ١٨٤٠

أصبح حسن المصري شيخاً جاوز الستين ، وكان يعمل في حانة
بباريس ، يخدم الزائرين ويغنيهم أناشيد بلاده العربية
وفي تلك السنة عاد الى ذلك الجندي القديم شيء من الفرح
والطرب ، عند ما تألبت جماهير الفرنسيين لاستقبال جثة الامبراطور ،
وقد جاءوا بها من جزيرة القديسة هيلانة ، ذلك المنفى البعيد النائي ،
عملاً بإرادة نابليون وتنفيذاً لرغبته الاخيرة
وقدمات حسن بعدما طعن في السن ، وتيسر له الوقوف أمام ذلك
المعبود . ولعله كان يذكر حينذاك كلمات الساحرة :
— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير !

عندما عاد ابراهيم باشا الى مصر ، في سنة ١٨٣٥ ، خطر له أن
يزور الساحرة في غارها ، حيث زارها من قبل نابليون بونابرت ،
وأن يستطلعها الغيب كما فعل القائد الفرنسي
وأعادت الساحرة تمثيل المنظر الذي مثلته من قبل
جئت أمام كومة من الصدف ، ثم نهضت وقد تناولت منه ملء
قبضتها ، وتمتمت كلمات لم يفهمها أحد ، وبحركة رشيقة ، ألقت الصدف
من يدها على قدمي ابراهيم ، وأسرعت الى مرجل مملوء بالماء ، فنظرت

فيه طويلا ورفعت رأسها ببطء وفاقت بهذه الكلمات :
— أرى جيشا ينطلق بسرعة الى الامام ، ثم يتقهقر بسرعة الى
الوراء !

حذق فيها ابراهيم البصر مبتسما ، وهز كتفه وقال :
— اتعتقدين أنني جيشك لاستطلاع الغيب ؟ إن نجمي يا امرأة يسطع
في الفضاء فيمزق نوره الحجب ، وينبئني بما كتب لي في صفحة القدر !
فاقتربت المرأة منه وقالت وهي تنظر اليه وجهها لوجه :
— كان بودى أيها الفائد أن تكون الساحرة كاذبة وأن يكون
نجمك صادقا !

— وهذا ما سوف يكون !
— لننظر ما يجبه لك الغد . فان الغد لناظره قريب !
— لقد استظلمك بونايرت الغيب فهل صدقت معه نبوءتك ؟
— لا بد أن تكون قد صدقت معه ، ولا بد أن تصدق معك
— في اي عقد من السنين أنت ؟
— ليس للساحرات أعمار !
— في أي بلاد رأيت النور ؟
— في بلاد الجن وليس فيها مطاعم ولا حروب !
— سوف أعود لزيارتك بعد ان يتم لي النصر
— لن تجدني في هذا المكان يا ابراهيم

عاد ابراهيم الى سورية حيث كان الثائرون قد استأنفوا هجومهم .
فكان ما كان مما ذكرناه ، ثم هدأت الحالة في داخل البلاد ، ولكن
عقبات سياسية جديدة قامت في وجه الغزاة الفاتحين ، وأثمرت الدسائس
الأوربية فعاد السلطان الى التحكك بابراهيم ، وفي شهر يونيه (حزيران)

سنة ١٨٣٩ ، زحف ابراهيم الى الامام لملاقاة جيش حافظ باشا
والتقى الجيشان في « نرب » في الرابع والعشرين من يونيه ،
وطحن المصريون أعداءهم طحناً في تلك المعركة ، وفتحت طريق البواغيز
من جديد أمام ابراهيم
ومات السلطان محمود الثاني في أول يوليه (تموز) سنة ١٨٣٩ ،
قبل أن يبلغه خبر انهزام جيشه في نرب

سنة ١٨٤٠

أشد السنوات شوماً على ابراهيم . . .
ففى تلك السنة انتفض عليه الاصدقاء الذين طالما عول عليهم في
حروبه ، والذين لم يحسن السياسة معهم فقلبوا له ظهر المجن ، وثاروا
في وجهه مع من ثار من أبناء البلاد الآخرين
أولئك الاصدقاء هم سكان جبال لبنان ، الذين أرفقهم ابراهيم
بالضرائب وأصر على نزع سلاحهم واقامة نظام للحكم في جبالهم لم يألفوه
من قبل . فتمردوا وثاروا على المصريين وعلى أميرهم بشير الشهابي ،
الذي ظل الى النهاية مخلصاً لحليفه ، فأفقده ذلك الاخلاص الأمانة
والحرية ، فمات منفياً بعيداً عن وطنه

بدأت الثورة اللبنانية في شهر مايو (أيار) ١٨٤٠
وكان يقود اللبنانيين في تلك الثورة بعض الامراء الشهابيين
خصوم الامير بشير ، وبعض أمراء آل أبي الدع ، والمشايخ آل الخازن
وحجيش والد حداح ، والامير خنجر الحرفوش وابو سمرا غانم واحمد
داغر وغيرهم من أبطال الحروب
ودارت رحى القتال بين الثائرين وجنود ابراهيم باشا . فكان
النصر يخالف هؤلاء حيناً وأولئك أحياناً . وما انتهت تلك السنة

المشؤومة ، حتى كانت الدول الاوربية قد اغتنمت الفرصة وتدخات في الامر ، وشدت أزر الدولة العثمانية ، ففي الجيش المصري بخسائر فادحة ، واضطر الى التقهقر فالانسحاب شيئا فشيئا من البلاد . وكان انسحابه سريعا كما كان زحفه من قبل سريعا
وصدقت الساحرة !

كانت سنة ١٨٤٠ اذن خاتمة عهد المصريين في سورية ولبنان . فعاد ابراهيم الى مصر ، وانصرف مع ابيه الى ادارة الشؤون الداخلية بعد أن منى بالفشل في حروبه وغزواته . وسأل عن الساحرة التي لم ينس نبوتها ، فقيل له إنها رحلت دون أن يعلم أحد مقرها فتذكر ابراهيم ما قالته له في سنة ١٨٣٥ :
— أرى جيشا ينطلق بسرعة الى الامام ، ثم يتقهقر بسرعة الى الورااء !

عكاه . . . الزراعة . . . قونية !
ثم نذب !
ثم ثورات ، فتورات ، فتورات !
لذة الانتصار — تعقبها بسرعة مرارة الانكسار !
ثم العودة الى مصر بعد ثمانية اعوام
صدقت الساحرة !

« نم الكتاب »

فهرس

صفحة	صفحة
١٢١ الشيخ والراهب	٥ مقدمة
١٣١ الأب والابن	١٧ تحية ورجاء
١٤١ كونا هبة	١٩ درة بنت النصيري
١٤٧ حليلة الوهاية	٢٧ دموع سليمان
١٥٥ صباح	٣٧ خيط العنكبوت
١٦٥ الضريح الخاوي	٤٧ زهرة المغرب
١٧١ حطين	٥٧ السلطانة والدة
١٨٣ أنشودة العيد	٦٩ الأخذ بالنار
١٩٣ الشيطان في الدير	٧٩ قبر العاشقين
٢٠٣ سيف الأمير	٨٩ أفراح وأتراح
٢١٥ الساحرة	٩٩ انتقام الهوارة
	١٠٩ خرساء البادية